سلسلة منشورات مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع بالرياض
(١١٦)

أصول الإنشاء والخطابة

للعلامة محمد الطاهر ابن عاشور
(المتوفى سنة ١٣٩٣هـ)

ويليه

الخطابة عند العرب

للعلامة محمد الخضر حسين
(المتوفى سنة ١٣٧٧هـ)

تحقيق
ياسر بن حامد المطيري

مكتبة دار المنهاج
للنشر والتوزيع بالرياض





أصول الإنشاء والخطابة

للعلامة محمد الطاهر ابن عاشور
(المتوفى سنة ١٣٩٣هـ)

ويليه

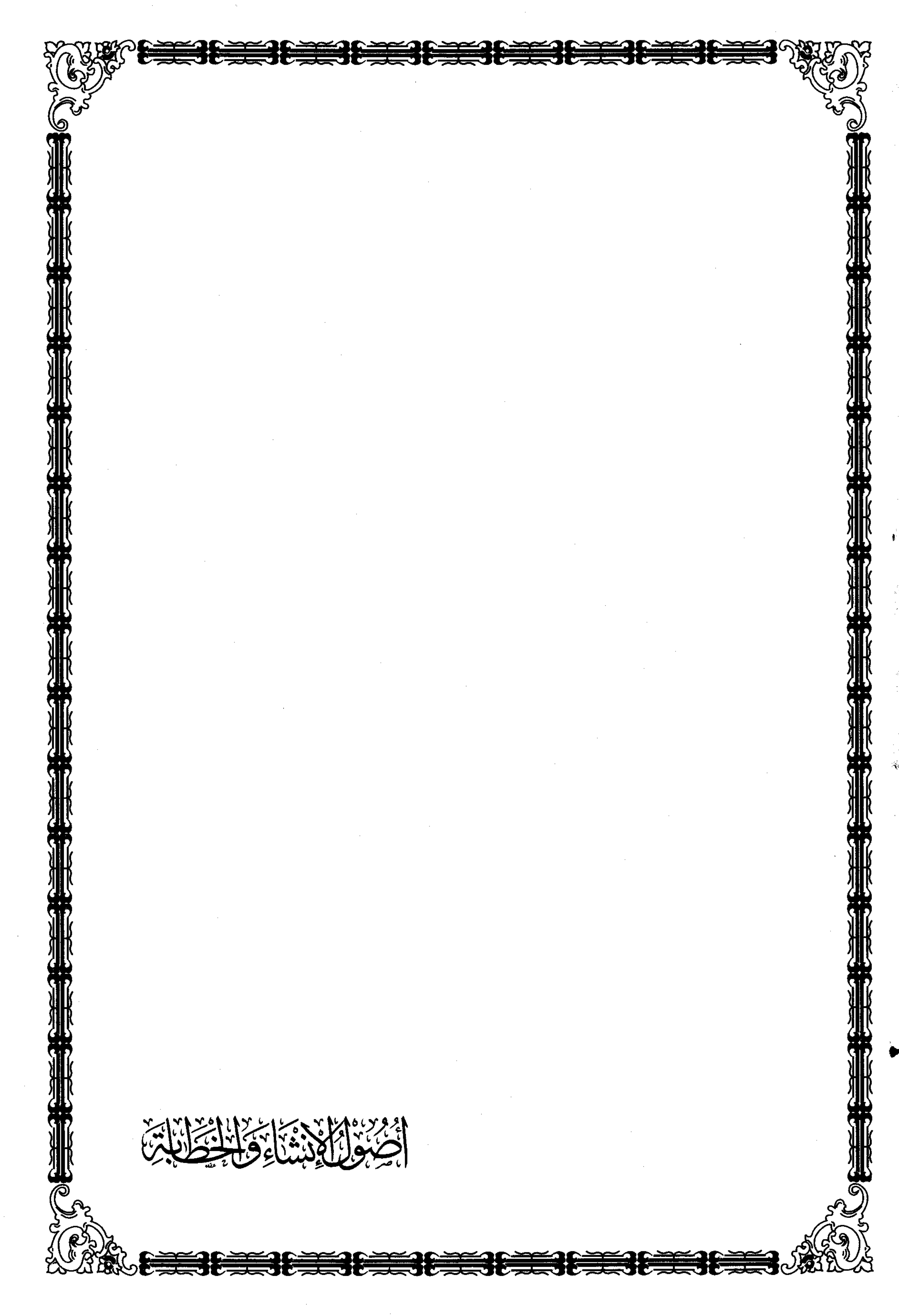
الخطابة عند العرب

للعلامة محمد الخضر حسين
(المتوفى سنة ١٣٧٧هـ)

تحقيق

ياسر بن حامد المطيري

مكتبة دار المنهاج
للنشر والتوزيع بالرياض



أصول الإنشاء والخطابة

ⓗ مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع، ١٤٣٣هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

ابن عاشور، محمد الطاهر

أصول الإنشاء والخطابة ويليه الخطابة عند العرب. / محمد الطاهر ابن عاشور ؛ ياسر بن حامد المطيري ؛ محمد الخضر حسين .- الرياض، ١٤٣٣هـ

٢١٦ص؛ ١٧×٢٤سم. - (منشورات مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع ؛ ١١٦)

ردمك: ٧ _ ٤٧ _ ٨٠٣٤ _ ٦٠٣ _ ٩٧٨

١ ـ الخطابة العربية ٢ ـ الإنشاء الأدبي ٣ ـ الخطب الدينية

أ. المطيري ، ياسر بن حامد (محقق) ب. حسين ، محمد الخضر (مؤلف مشارك) ج. العنوان د. السلسلة

ديوي ٦٨١ ١٤٣٣/١٦١٣

الطبعة الأولى

١٤٣٣هـ

مكتبة دار المنهاج

للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية ـ الرياض

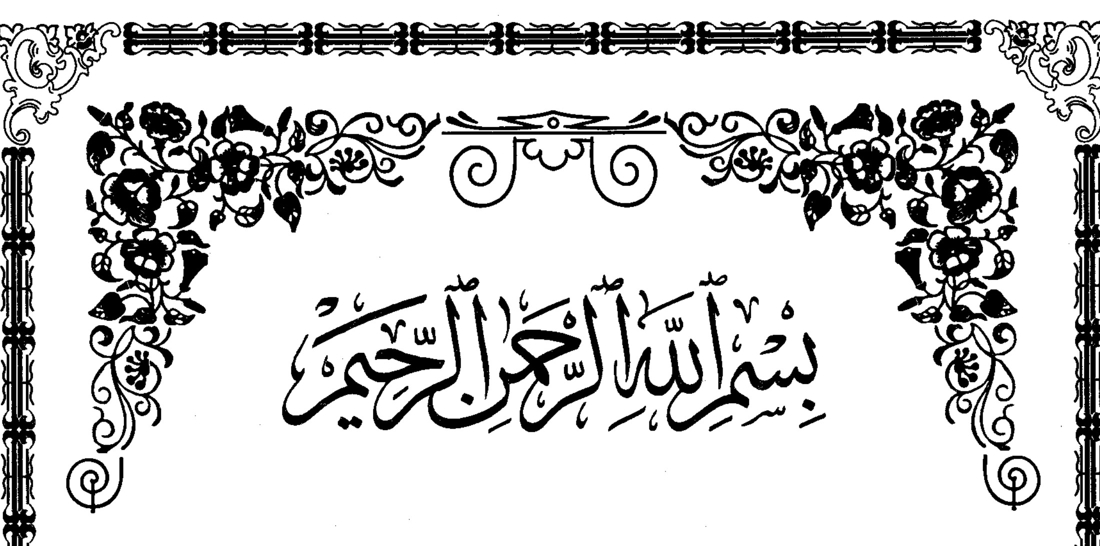
المركز الرئيسي ـ طريق الملك فهد ـ شمال الجوازات

هاتف ٤٠٦٥٥٥٣ ـ فاكس ٤٠٨٣٦٩٨ ـ ص ب: ٥١٩٢٩ ـ الرياض ١١٥٥٣

الفروع ـ طريق خالد بن الوليد (إنكاس سابقاً) ت: ٢٣٢٢٠٩٥

المدينة النبوية ـ طريق سلطانة ـ ت: ٠٤/٨٤٦٧٩٩٩

مكة المكرمة ـ الجميزة ـ الطريق النازل للحرم ـ ت ٠٢/٥٧٦١٣٧٧



الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه، **أما بعد:**

فقد امتن الله على عباده بتمكينهم من الإفصاح عما في ضمائرهم، فقال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾ [الرحمٰن]. والبيان هنا يشمل البيان بالنطق والخط، بل امتنَّ سبحانه على الإنسان بأن جعل له آلات البيان التي هي القلم واللسان والشفتان، فقال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العلق]. وقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾﴾ [البلد]. وأقسم بالقلم وما يكتب تنبيهًا على شرف الكتابة فقال سبحانه: ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾﴾ [القلم].

ولذا كان اللفظ والخط أهم طرق الدلالة على المعنى وأجداها، فالأول باللسان، والثاني بالقلم، وقد قالت العرب: القلم أحد اللسانين[1].

---

(١) المراد باللسانين: الجارحة والقلم، فهو من استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه؛ كقولهم: (الخال أحد الأبوين).

يريدان، فمن الخطباء من إذا تحدث ملك أَزِمَّة القلوب، ورد شارد الأهواء، ومنهم من هو كليل الخاطر، إذا تكلم انقبضت منه القلوب، وانصرفت عنه الوجوه، وملَّت سماعَه الآذان. كما أنَّ من الكُتَّاب المترسِّل المجيد، المطلع على العلوم، ومنهم من لم يطأ عتبة العلم، ولم يصافح راحة الأدب، **فصدق فيه قول ابن بسام:**

وأتى بكُتَّابٍ لو انبسطَتْ يدي فيهمْ رَدَدْتُهُمُ إلى الكُتَّابِ

من هنا كان جديرًا بذي الهمة أن يتعلَّم آداب الكتابة والخطابة وأصولهما، وكيفية التأثير في السامعين، وهذا ما أتى عليه ابن عاشور في كتابه هذا «أصول الإنشاء والخطابة»، فقد أحكم قواعد علمي الخطابة والإنشاء، واستوعب أصولهما، ولخَّصهما وخلَّصهما مما ليس منهما.

وصاحب الكتاب ـ ابن عاشور ـ لا يخفى مكانه من العلم والفهم.

شمسُ الضُّحى أبرعُ مِنْ أن تُطْمَسَا

فهو خير من يكتب في هذا الباب من العلم، لدقة نظره، وغوصه على المعاني، وسعة اطلاعه على علوم العربية وغيرها.

فدونك أيها القارئ هذا المؤلَّف الفريد، نِجَارُه نارُه، وعينُه فِرارُه، أنفقت في خدمته المستطاع، مع قِصَر الباع، و:

قد يصيبُ الفَتى المُشيرُ ولم يَجـ ـهدْ ويُشوِي الصَّوابَ بعد اجتهادِ

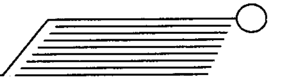
راجيًا مَنْ وجد خطأً أن يبصِّر أخاه، فبالقوادم والخَوافي قوة الجَناح، وبالأسِنَّة والعوالي عملُ الرِّماح. والحمد لله أولًا وآخرًا.

وكتب

ياسر بن حامد المطيري

الرياض

yh1131@hotmail.com



مَضْمونُ الكتابِ ومنهجُ مؤلِّفِه

حرص المؤلف أن يميز هذين الفنين (الإنشاء والخطابة) عن غيرهما، وأن يتجنب طريقة بعض المؤلفين الذين يستدعون مسائل بلاغية وأدبية يكررونها على مسمع الطالب، وقد أفصح عن ذلك بقوله: «تجنبتُ فيها طريقة جمهور المؤلفين في هذا الفن؛ إذ ملؤوا كتبهم بمسائل علم المعاني والبيان، وربما تجاوزوا إلى بقية علوم اللسان، وتركوا جانب المسائل الخاصة بهذا الفن ظِهْريًّا، إلا قليلًا منها لا يفيد المطالع كمالًا أدبيًّا»[1]. وأصبح الطلاب إن هم شرعوا في دراستهما «نُقِلت لهم المسائلُ التي قرؤوها في علم البلاغة فلم يجدوا فائدةً يستزيدونها، ولا مُهِمَّةً ينقلونها، فربما أُدخِلَ على أذهانهم بذلك شيءٌ من التَّهويس، زيادةً على ما أُضِيعَ من وقتهم النفيس»[2].

فكان المؤلف يشير إلى المسائل البلاغية المهمة ويحيل إليها، دون الإمعان في شرحها؛ لئلا يطول الفنُّ بلا طائل؛ كقوله عند الحديث عن مقامات الكلام: «قد عَرَفْتَ من علم البلاغة أنَّ مقاماتِ الكلام متفاوتةٌ، وليس هذا جلَّ غَرَضِنا هنا؛ لأننا لا نحبُّ أن ننقُلَ عِلْمًا إلى آخَر»[3]. وقوله عند الحديث عن تناسب الجمل: «فأما تناسب بعض الجمل مع بعض: وهو المعبر عنه بالفصل والوصل فموضع القول فيه في علم البلاغة»[4].

(١) **ينظر**: ص (٤٥).
(٢) **ينظر**: ص (٤٦).
(٣) **ينظر**: ص (٨٠).
(٤) **ينظر**: ص (١٠١).

وكما هو واضح من عنوان الكتاب فقد طُوِيَ على قسمين:

القسم الأول: فن الإنشاء:

صدَّره المؤلف بمقدمة عن أهمية الإنشاء، وتقصير المتأخرين في تخصيصه بالتأليف، ثم بين غرضه من هذا الكتاب وما اختصَّ به من بيَّن سائر المؤلفات فقال: «وجاء أولَ إملاءٍ فيما علمتُ ظهر به فنُّ الإنشاء مهذَّبًا ممتازًا عما سواه، ومَنْ خَبرَ ما سلف من كُتبه عَلِمَ قيمةَ ما صنعنا، وكيف تتبَّعنا مواقعَ القطر فانتجَعْنا»[1].

وشرع بعد ذلك في تعريف الإنشاء تعريفًا مختارًا، وكشف عن غايته وتاريخه وفضله، ثم أبان عن كيفية إنشاء المعاني، متبعًا ذلك بـ(تمرين) لتطبيق ما قرر من قواعد.

ثم عقد حديثًا في أساليب الإنشاء وأنواعه، وأسباب تأخره.

وقسم الإنشاء إلى قسمين:

القسم الأول: المعنوي. أبان فيه عن المعاني وأحوالها، فعرَّف المعنى وأوضح صفاتِه وطرق أخذه، وتحدث عن ترتيب المعاني وتنسيقها وتهذيبها، وأخذ النتائج منها، وختم هذا القسم بذكر مقامات الكلام.

القسم الثاني: اللفظي. بحث فيه عن أحوال اللفظ، وفيه توفيق بين قولي العلماء في تفضيل اللفظ على المعنى وعكسه.

ثم عقد فصلًا عن أحوال الألفاظ المفردة، أعقبه بالتنبيه على أغلاط كثرت عند المنشئين المتأخرين. فحديثًا عن أحوال الألفاظ عند تركيبها.

ثم أفصح عن أهمية اتصال جمل الكلام والأمور التي يعتمد عليها.

---

(١) **ينظر**: ص (٤٦).

وتلاه بالكشف عن مناسبة الكلام للغرض في الجزالة والرقة والبساطة والصنعة.

وختم فن الإنشاء بذكر السجع والترسُّل وموقع كلٍّ منهما.

القسم الثاني: فن الخطابة:

افتتحه بتعريف الخطابة تعريفًا مبتكرًا، وجلا الفرق بين الخطابة الأدبية والخطابة عند المناطقة.

وخلص إلى بيان منافع الخطابة في الإصلاح العام ووجه الحاجة إليها، واستطرد في ذكر غلبة الشعر على العرب.

وبيَّن إثر ذلك أصول الخطابة، وأفاض في الحديث عن الخطيب مبينًا شروطه وعيوبه.

وخصص القول بعدُ في الخطبة وذكر لها سبعة أركان.

ثم أتى على كيفية تنسيق الخطبة واختيار مقامات الكلام.

وختم الكتاب بالوصية في التدرج في الخطابة.

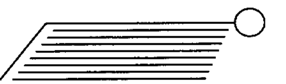
وأتى على ذلك كله مستفيدًا مما كتبه السابقون كأرسطو والجاحظ وابن الأثير وغيرهم، عارضًا أقوالهم على فكره الثاقب، مستخرجًا بدقيق النظر ما غفل عنه غيره.

وإذا تكلَّم لم يَكُنْ — في القَوْلِ مَنْطِقُه عِيَالا

وكان يحرص على حسن التقسيم، وانسجام التبويب، واطراد الفصول، ويسلك القصد في طرق المسائل وتوضيحها، ويتبعها بذكر الشواهد من الكتاب والسُّنَّة وشعر العرب ونثرها، وربما تَمَّم الحديث عن بعض المسائل في الحاشية إن اقتضت الحاجة.

❁ ❁ ❁





ترجمةُ المؤلِّف
مُحمَّدٍ الطَّاهرِ ابنِ عَاشور(١)

۞ نسبه وولادته:

محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن محمد بن محمد الشاذلي بن عبد القادر بن محمد بن عاشور. وأمُّهُ فاطمة بنت الشيخ الوزير محمد العزيز بن محمد الحبيب بن محمد الطيب بن محمد بن محمد بوعتور.

ولد الشيخ ابن عاشور بقصر جدِّه للأم بالمرسى في جمادى الأولى سنة ١٢٩٦هـ.

ونشأ برعاية والده الشيخ محمد، الزيتوني التعليم والتأهيل ورئيس دائرة الأوقاف، كما كان لجده للأم محمد العزيز بوعتور الأثر الكبير في سلوكه وتعلمه وتربيته.

۞ طلبه للعلم:

في تلك البيئة العلمية الأصيلة أقبل الفتى منذ السنة السادسة من

---

(١) **مصادر ترجمته**: الأعلام (٦/ ١٧٤)، مشاهير القرن العشرين للأستاذ محمد بوذينة، تونس وجامع الزيتونة للعلامة محمد الخضر حسين، عنوان الأريب لمحمد النيفر، تراجم المؤلفين التونسيين لمحمد محفوظ (٣/ ٣٠٤)، أعلام: الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور للأستاذ الدكتور محمد العزيز ابن عاشور ـ دائرة المعارف التونسية ـ الكراس الأول (٤٠ ـ ٤٦)، محمد الطاهر ابن عاشور لإياد الطباع، شيخ الإسلام محمد الطاهر ابن عاشور للشيخ محمد الحبيب ابن الخوجة. وهو أجل ما كتب عنه.

عمره على مسجد سيدي أبي حديد المجاور لبيتهم بنهج الباشا بمدينة تونس، فحفظ القرآن الكريم ورتّله على الشيخ المقرئ محمد الخياري، وحفظ مجموعةً من المتون العلمية كابن عاشر، والرسالة، والقطر، ونحوها مما كان يُعنى المؤدبون بتلقينه لتلامذتهم الصغار. ودرَس في المسجد نفسِه شرحَ الشيخ خالد الأزهري على الآجُرُّوميَّة[١]. وفي سنة ١٣١٠هـ التحق الشاب محمد الطاهر ابن عاشور بجامع الزيتونة لطلب العلم، وكانت المواد التي تدرّس بهذا المعهد الديني متنوعة بين مقاصد ووسائل. وعلى هذا الأساس درس علوم الوسائل من النحو، والصرف، والبلاغة، وأصول الفقه، والمنطق، وعلوم المقاصد؛ كتفسير القرآن، والقراءات، والحديث ومصطلحه، والعقيدة، والفقه وغيرها[٢].

۞ شيوخه:

تخرَّج ابن عاشور على طائفةٍ من المشايخ، **منهم:**

الشيخ عبد القادر التميمي في تجويد القرآن وعلم القراءات.

والشيخ محمد النخلي، درس عليه القطر، والمكودي على ألفية ابن مالك، ومختصر السعد في البلاغة، والتهذيب في المنطق، ودرس عليه الحطّاب على الورقات، والتنقيح للقَرَافي في أصول الفقه، وكتاب ميارة على المرشد، وكفاية الطالب على الرسالة في الفقه المالكي.

وقرأ على الشيخ محمد الشريف كتاب الشيخ خالد الأزهري، والقَطْر لابن هشام، والسُّلَّم في المنطق، ومختصر السعد على العقائد النسفية، والتاودي على التحفة في الفقه.

وأخذ عن الشيخ عمر ابن عاشور لاميَّةَ الأفعال وشروحها في

---

(١) تراجم المؤلفين التونسيين لمحمد محفوظ (٣/ ٣٠٤).

(٢) شيخ الإسلام ابن عاشور للشيخ محمد الحبيب ابن الخوجة (١/ ١٥٤) بتصرف يسير.

الصرف، وتعليق الدَّمَاميني على مغني اللبيب لابن هشام في النحو، والدَّرْدِير في الفقه، والدُّرَّة في الفرائض.

وأعاد على الشيخ محمد النجار الشريف بعض ما أخذ من الكتب، وكذا كتاب المواقف في علم الكلام، والبَيْقونيَّة في مصطلح الحديث.

وتلقّى من الشيخ محمد طاهر جعفر شرحَ المحلِّي على جمع الجوامع في أصول الفقه، والشهاب الخَفَاجي على الشِّفَاء للقاضي عياض في السيرة النبوية[1].

أعماله:

تقلَّد الشيخ ابن عاشور كثيرًا من الأعمال الإدارية الكبار، وتقلّب في درجات التدريس[2].

ومن أبرز تلك الأعمال:

سمي نائب الدولة لدى النظارة العلمية سنة ١٣٢٥هـ.

وعُيِّن عضوًا بمجلس الأوقاف الأعلى سنة ١٣٢٨هـ.

ثم شيخًا للجامع الأعظم سنة ١٣٥١هـ.

وإثر استقلال البلاد عيّن عميدًا للجامعة الزيتونية سنة ١٣٧٥هـ.

ومن أعماله الشرعية:

عُيِّن قاضيًا مالكيًّا بالمجلس الشرعي سنة ١٣٣٢هـ.

ثم مفتيًا في رجب سنة ١٣٤١هـ.

فشيخ الإسلام المالكي سنة ١٣٥١هـ[3].

---

(١) دفتر دروس الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور (١ ـ ٣٩) بواسطة: شيخ الإسلام بن عاشور للشيخ محمد الحبيب ابن الخوجة (١/ ١٥٥، ١٥٦).

(٢) **ينظر**: شيخ الإسلام ابن عاشور للشيخ محمد الحبيب ابن الخوجة (١/ ١٦٤).

(٣) تراجم المؤلفين التونسيين (٣/ ٣٠٤).

وقد انتخب عضوًا في مجمعي اللغة العربية بالقاهرة ودمشق.

وله مشاركة في الموسوعة الفقهية في الكويت.

وله الكثير من المقالات في مجلة الهداية الإسلامية وغيرها.

۞ آثاره العلمية:

- تفسير «التحرير والتنوير» من أهم تصانيفه في ثلاثين مجلدًا.
- أليس الصبح بقريب.
- أصول النظام الاجتماعي في الإسلام.
- مقاصد الشريعة الإسلامية.
- تحقيقات وأنظار في القرآن والسُّنَّة.
- كشف المغطى من المعاني والألفاظ الواقعة في الموطّأ.
- حاشية التوضيح والتصحيح لمشكلات كتاب التنقيح. (في الأصول).
- نقد علمي لكتاب الإسلام وأصول الحكم.
- قصة المولد.
- النظر الفسيح عند مضايق الأنظار في الجامع الصحيح.
- أصول الإنشاء والخطابة.
- شرح قصيدة الأعشى الأكبر في مدح المحلّق.
- موجز البلاغة.
- شرح المقدمة الأدبية.
- تحقيق الواضح في مشكلات شعر المتنبي ومشكل معانيه لابن بسام النحوي.
- شرح ديوان بشار بن برد في أربعة أجزاء.
- شرح ديوان النابغة الذبياني.

۞ ومن آثاره المخطوطة:

- أصول التقدم في الإسلام.
- أمالٍ على دلائل الإعجاز للجرجاني.
- أمالٍ على مختصر خليل.
- قطع من شرح ديوان الحماسة.
- شرح معلقة امرئ القيس.
- تعليقات على المطول وحاشية السيالكوتي.
- تعليقات وتحقيقات على حديث أم زرع.
- تحقيق وتصحيح وتعليق على كتاب الاقتضاب للبطليوسي.
- تحقيق وتعليق على الكتاب المنسوب إلى أبي محرز خلف الأحمر (مقدمة في النحو).
- آراء اجتهادية.
- فهرس في التعريف بعلماء أعلام.
- تاريخ العرب.
- شرح ديوان سحيم.
- تصحيح وتعليق على كتاب الانتصار لجالينوس للطبيب ابن زهر.
- مجموعة فتاوى.
- قضايا وأحكام شرعية.
- تحقيق شرح القرشي على ديوان المتنبي.
- مراجعات تتعلق بكتابي (معجز أحمد) و(اللامع العزيزي).
- شرح قلائد العقيان للفتح ابن خاقان، وشرح على شرح ابن زاكور.
- مجموعة مسائل فقهية وعلمية تكثر الحاجة إليها ويعوَّل في الأحكام عليها.
- غرائب الاستعمال.

۞ وفاته:

توفي رَحِمَهُ اللَّهُ بعد علة يسيرة ألمت به، حيث أدى صلاة العصر، والتحق بجوار ربه قبل صلاة المغرب من يوم الأحد ٣ رجب ١٣٩٣هـ[(١)].

۞ ثناء العلماء عليه:

قال صديقه العلامة محمد الخضر حسين: «وللأستاذ فصاحة منطق، وبراعة بيان. ويضيف إلى غزارة العلم وقوةِ النظر، صفاءَ الذوق، وسعة الاطلاع في آداب اللغة... كنت أرى فيه لسانًا لهجته الصدق، وسريرة نقية من كل خاطر سيئ، وهمة طمّاحة إلى المعالي، وجدًّا في العمل لا يمسه كلل، ومحافظة على واجبات الدين وآدابه... وبالإجمال ليس إعجابي بوضاءة أخلاقه وسماحة آدابه بأقل من إعجابي بعبقريته في العلم». وقال: «هو من رجال العلم الذين لا تجود بهم الأيام إلا قليلًا»[(٢)].

ويضم ديوان «خواطر الحياة» للشيخ محمد الخضر حسين، مقطوعاتٍ وقصائدَ خصَّ بها صديقه الشيخ ابن عاشور، **فمن ذلك قوله**:

أَحْبَبْتُهُ مِلْءَ الفُؤَادِ وَإِنَّمَا ... أَحْبَبْتُ مَنْ مَلأَ الوِدَادُ فُؤَادَه
فَظَفِرْتُ منه بِصَاحِبٍ إنْ يَدْرِ ما ... أَشْكُوهُ جافى ما شَكَوْتُ رُقَادَهُ
وَدَرَيْتُ منه كما دَرَى مِنِّي فَتًى ... عَرَفَ الوَفَاءُ نجَادَهُ وَوِهَادَهُ[(٣)]

وقال العلامة محمد البشير الإبراهيمي: «علم من الأعلام الذين يعدهم التاريخ الحاضر من ذخائره؛ فهو إمامٌ متبحر في العلوم

---

(١) لمحة من حياة سماحة الأستاذ الإمام محمد الطاهر ابن عاشور لابنه عبد الملك ص (٩). نقلًا عن: ابن عاشور ومنهجه في التفسير لعبد الله الريس (١٠٥).
(٢) تونس وجامع الزيتونة للخضر حسين (١٢٥).
(٣) ديوان خواطر الحياة (٩٠). **وينظر**: الصفحات (٦٠، ٦٥، ٩٣، ٢٢٦، ٢٣١).

الإسلامية، مستقل في الاستدلال، واسع الثراء من كنوزها، فسيح الذرع بتحملها، نافذ البصيرة في معقولها، وافر الاطلاع على المنقول منها. أقرأ وأفاد، وتخرجت عليه طبقاتٌ ممتازة في التحقيق العلمي.

وهذه لمحات دالَّة في الجملة على منزلته العلمية، وخلاصتها أنه إمام في العلميات لا ينازعه أحد»[1].

۞ أسباب نشر الكتاب:

طُبع الكتاب في حياة مؤلفه عن مطبعة النهضة بتونس، عام ١٣٣٦هـ، **وقد أعدت نشره لأمورٍ منها:**

١ ـ ندرته وقدم العهد به.

٢ ـ أنه فريد في بابه، فهو من أحسن ما كتب في الخطابة، ولا غرو أن كان مؤلفه ابن عاشور.

٣ ـ الحاجة إلى خدمته، من حيث تصحيحه، وشَكْل مُشْكِلِه، وبيان غامضه، والتعليق على نصوصه، وإخراجه في حُلَّة قشيبة.

۞ منهج التحقيق:

سلكتُ في تحقيق الرسالة الخطوات الآتية:

١ ـ عزو الآيات القرآنية إلى سُوَرها، مُثْبَتَةً بالرَّسْمِ العُثماني، وذكر أرقامها في الصلب.

٢ ـ تخريج الأحاديث النبوية، مع نقل أحكام العلماء عليها.

٣ ـ نسبة الأبيات الشعرية إلى أصحابها.

٤ ـ كتابة النص وَفق القواعد الإملائية الحديثة، وضبط ما يُشْكِل.

٥ ـ ترجمة الأعلام المغمورين بإيجاز.

---

(١) آثار البشير الإبراهيمي (عيون البصائر ٣/ ٥٤٩).

٦ ـ التعليق على كلام المؤلف إن اقتضى الأمر ذلك.

٧ ـ توثيق النقول، وعرضها على مصادرها، وإثبات الفرق إن كان ذا بالٍ.

٨ ـ إثبات الحواشي التي وضعها المؤلف كما هي، وتذييلها بلفظة (المؤلف). وإذا أردت الإضافة صدَّرْتُها بقولي: (قال المعتني).

٩ ـ رمزت إلى المطبوع بـ(الأصل)، وإن صوبت خطأً بينته في الحاشية، وإن أضفت ما يقتضيه السياق جعلته بين معكوفين وأشرت إليه في الحاشية.

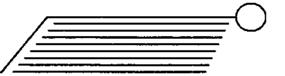
١٠ ـ بيان الاصطلاحات وغريب المفردات باختصار.

هذا وقد صدّرتُ الكتاب بعرضٍ إجماليٍّ للأبواب والمباحث التي تضمنها لتكون أعون على فهمه والإحاطة بجزئياته.

أسأل الله أن ينفع بهذا العمل، ويتجاوز عما فيه من سهو وخطأ.







الأفكار الرئيسة لكتاب (أصول الإنشاء والخطابة)

هذا الكتاب وإن كان قريب المنال، مترابط الأبواب، إلا أنه كثير التقاسيم، فربما أنسى آخرُه أولَه، ولذا رأيت أن ألخِّص مباحثه، وأسوقها في صعيدٍ واحدٍ مجرَّدَةً عن الشرح والتمثيل والاستشهاد، لتكون مَثَابةً للقارئ يبتدئ بها، ويؤوب إليها، تعينه على استيعاب أغراض الكتاب ومقاصده، فهي على طريقة الإجمال الذي يعقبه التفصيل(١).

وقد أوردتُ عبارة المؤلف دون تغييرٍ إلا في مواضع يسيرةٍ اقتضاها السياق.

قال ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ:

فن الإنشاء

تعريفه: علمٌ تُعرَف به كيفيَّةُ أداء المعاني التي تخطُر بالذِّهْن أو تُلقَى إليه، على وَجْهٍ تتمكَّنُ به من نفوس المخاطبين، من حيث حُسْنُ رَبْطِ أجزاء الكلام، واشتماله على ما يُستَجَاد من الألفاظ ويحسن من الأساليب، مع بلاغته.

موضوعُه: الكلامُ العربي من حيث رَبْط جُمَلِه ومحاسن كَلِمِه.

---

(١) والتفصيل بعد الإجمال من بدائع الأساليب، وهو دأب القرآن العظيم كما يقول البقاعي في نظم الدرر (١/ ٤٠).

استمدادُه: من كلام البُلَغَاء وخُطَبهم، ورسائلهم، وأشعارهم، وآداب العرب وعوائدهم، ومشهور أحوال الأمم المعروفة وأمثالها.

واضعه: كان مِنْ جُمْلَة فنون آداب اللغة العربية، فتوجَد مسائلُه متناثرةً في كتب العربية.

فضله: أنه لم يَخْلُ عَصْرٌ من رجالٍ تمكَّنوا من سَوْقِ غيرهم بعِصِيِّ آرائهم، وقد اختار الله تعالى المعجزةَ لأصحاب اللسان العربي بلاغةَ القرآن.

ثمرته: إبلاغ المتعلم إلى الإفصاح عن مراده، كتابة أو قولًا مِن أقرب طريق، وسلوكِ سبل الإفهام بأحسن ما يُستطاع من التعبير.

كيفية إنشاء المعنى

اعلم أنه قَلَّمَا يستطيع الكاتب أو الخطيب أن يتناول موضوعًا من أوله إلى نهايته دَفْعَةً واحدة، ولاسِيَّمَا عند تَشَعُّبِ الموضوع وكثرة المعاني فيه؛ إذ تلوح له معانٍ كثيرةٌ فَيَرُوعُه انتشارُها ولا يدري كيف يبتدئُها، **والذي ييسر ذلك أن يسير وَفق ثلاثة أمور:**

الأول: المعنى الأساسي: وهو غَرَضٌ إجماليٌّ يجب إحضارُه على إجماله، ثم يُشرَعُ في بيانه وإقناع السامعين به. وهو في اصطلاح الكُتَّاب: ما تُتَرْجَمُ به الرِّسَالة أو تُعَنْوَنُ به المقالة، مثل قولنا: العِلْمُ أساس العُمْران، والاتِّحَاد سبب القوة.

الثاني: تفصيل المعنى: وهو التَّبَصُّرُ في تقاسيمه وفروعِه، وتفكيكُه بإطالة النَّظَر فيه؛ للتنبُّهِ إلى ما ينحَلُّ إليه من الحقائق والأدلَّة والمُرغِّبَات أو المُنفِّرات.

الثالث: الإيضاح: وهو شرح تلك المعاني وذِكْرُ أدلتِها وفروعها، ليمكن حينئذٍ التعبير عنها بوجه سَهْلِ التصوُّر للسامعين.

أساليبُ الإنشاء

للإنشاء أساليبُ متنوعةٌ باختلاف الأغراض، وذلك راجع إلى اختلافُ مستعمَل الألفاظ، واختلافُ كيفيَّةِ رَبْط الجمل تَبَعًا لاختلاف الأغراض، ولهذا لا نجد مشابَهةً بين كلامِ المتكلِّفين من الأُدَباء، وبين كلام العرب ومَنْ يليهم من البلغاء أهلِ اللِّسان، وطريق علم ذلك: هو عَرْضُ الأساليب المختلفة من كلام البلغاء على المتعلِّمين؛ ليحصلَ لهم من اختلاف أمثلتها صُوَرٌ متنوعةٌ، يَلُوحُ لأذهانِهم منها وقتَ مُحَاولةِ الإنشاء أُنْمُوذجٌ فيما يصلح له من الأغراض.

ومن الغَلَط أن يَقتصِرَ متعلِّم الإنشاء على أسلوبٍ واحدٍ يعكُف عليه. كما أنه لا يحسن أن يَقتصِر على نوعٍ من أنواع الإنشاء الأدبي، كالرسائل فقط، أو الخطابة، أو المقامات أوْ غيرها؛ فإنَّ للإنشاء أنواعًا كثيرة، ولكلٍّ منها أسلوبٌ يُخَالِفُ غيره، فلا بد من ممارسة طرق البلغاء في هاتِه الأنواع؛ ليستطيع المُمَارِس أن يَعرِف ما يجب في كلٍّ مَقَامٍ من هاتِه المقامات، بحسب العُصُور والعَوَائد.

أقسام الإنشاء

للإنشاء قسمان:

القسم الأول: المعنوي: [وهو الذي يبحث فيه عن أحوال المعاني]:

مادة الإنشاء هو المعنى واللفظ ظَرْفٌ له، فإذا ابتكرَ الكاتبُ شريفَ المعاني أطاعَتْهُ الألفاظُ، وجاء إنشاؤُه متينًا واضحًا

فيجب على المتعلِّم الاهتمامُ أول الأمر بإيجاد المعاني، والبحث عن الحَسَن منها، فبها تفاوت البلغاء والشعراء.

ولا ينبغي للمتعلِّم أن يجعل جُلَّ عِنَايته باقتباس آثار الكاتبين ونَقْل معانيهم؛ لأنَّ اعتماد ذلك يُصَيِّره غيرَ قادرٍ على مجاوزة معاني السَّالفين،

نعم، يجوزُ له ذلك في ابتداء التعلُّم، إذا لم يستطع في وقتٍ من الأوقات إحضارَ معنى، أن يأخذَ رسالةً أو شِعْرًا فيحوي معانيه دون ألفاظِه، ثم يكلِّف نفسَه التعبيرَ عنه.

- **تعريف المعنى وتقسيمُه:**

المعنى: الصُّورة الذهنيَّةُ من حيث تُقْصَد من اللفظ فهمًا أو إفهامًا».

وهو قسمان: بسيط، ومُكَيَّف:

فالبسيط: هو الخالي عن التَّحسين، ويسمَّى (الخاطر).

والمكيَّف: هو الذي زِيدَ فيه تنميقٌ من خُصُوصِيَّاتِ الكلام؛ لتقرير المعنى، وإفادة محاسن له، كالاستعارة، والتقديم لإفادة الحَصْر، ونحو ذلك.

وقد يسمَّى بالشُّعُور ما كان دقيقًا خفيًّا، كالمعاني الشِّعْريَّة.

- **صِفَاتُ المعنى:**

لحسن المعنى ثلاث صفات يجب توخِّيها:

الأولى: الوضوح: وهو سُهُولة مَأْخَذِه من قول صاحبِه، بأن يخلو عن اللَّبْس، وعن التَّعقيد المعنوي، وعن الكنايات الخَفِيَّة. وقد تَكَفَّل ببيانها علمُ البلاغة، إلا إذا كان في مَقَامٍ يُرَادُ فيه الإخفاءُ أو التَّشكيك، فيجوز من اللَّبْسِ والكناية ما هو خَفِيف.

ومن ذلك مقام المَزْح أو الاستخفاف، أو الإلغاز؛ لاختبار تنبُّه السامع، أو للإخفاء عن الغير.

الثاني: السَّدَاد: وهو الموافَقَة للواقع، والمطابقة لمقتضى الحال من غير زيادة. وقد يخرج عن ذلك إلى المبالغة إذا اقتضاها الحال، فيُقبَلُ منها ما اقتُصِدَ فيه. كما تقرَّر في علم البلاغة.

الثالث: **الشَّرَف**: وهو أن لا يكون المعنى سخيفًا، ولا مشتملًا على فُضُول، سواء كان سابقًا للذهن أم مبتكَرًا.

ـ طرق أخذ المعنى:

لأخذ المعنى ثلاثة طرق:

الأول: **الابتكار**: وهو استنباط المعنى بفِكْرٍ ونَظَرٍ، وهذا الاستنباط إما أن يَعرِضَ للمعنى من أَصْلِه، وإما أن يكون بالأَخْذِ من الغير مع حُسْن التَّصَرُّف.

ويسمَّى المعنى الحاصل بالابتكار: عزيزًا وغريبًا.

الثاني: **البَدَاهَة**: وهي أَخْذُ المعنى الواضح للعقل من وِجْدَانٍ ومشاهدَة، ولا فضل فيه إلا لحُسْن التعبير، ونَبَاهَة المعنى في إحاطته بملاحظةِ مَا تَجِبُ ملاحظتُه. وقد يبلُغ المعنى من دِقَّةِ الوجدان ما يُلحِقُه بالمعاني المبتكَرة.

ويسمَّى المعنى الحاصل بذلك بسيطًا؛ إذ الفضل كما قلنا للتعبير.

الثالث: **الشُّهْرَة**: وهي عِبَارةٌ عن شُيُوع المعنى، حتى لا يكاد يتكلَّف المتكلِّمُ في استحضاره شيئًا من عَمَل الفِكْر، **ويسمَّى**: (المعنى المبتذَل)، ويدعو البليغَ إليه إما تَعيُّنُه، وإما لِكَوْنِ المقامِ مقامَه، كخطاب العَوامِّ والصِّغَار، وينبغي أن تُجَنَّبَ عنه مقاماتُ الإبداع والصَّنْعَة.

ـ ترتيبُ المعاني وتنسيقُها وتهذيبُها وتقسيمها والموازنة بينها:

لا يحصُل **ترتيبُ المعاني** إلا بتقريرها في الذِّهْن ابتداءً، ثم رَعْيُ التَّنَاسبِ بينها بتفكيكِها وتقسيمِها والموازنةِ بينها.

والخطيبُ أحوجُ إلى هذا من الكاتب ـ كما يأتي في الخطابة ـ لأنه يقولُ ولا يكتبُ، فلا يُعِينُه إلا الاعتمادُ على الترتيبِ الطبيعيِّ للكلام، حتى يعتاد ذهنُه ذلك، ويصير له دُرْبَةً وسَجِيَّةً، كي لا يُرتَجَ عليه إن لم يقرِّر المعاني في ذهنِه.

وأما التناسب بين المعاني: ففيه يَبْحَثُ بابُ (الفَصْل والوَصْل) من علم البلاغة، وكذلك (المطابقة) و(المزاوجة) المبحوث عنهما في علم البديع.

وأما التفكيك: عبارةٌ عن استقلال كلِّ معنى بنفسه، وعدمِ تراكم المعاني المسمَّى بـ(المعاظلة)، المعدود قديمًا من عيوب الكلام.

وأما التقسيم: فهو جمعُ طائفةٍ من المعاني في شِقٍّ من الكلام لارتباطها ببعض، واتفاقها في نَوْعٍ أو غايةٍ أو نحوِهما. وأكملُ التقسيم ما استوعب الأقسام كلَّها؛ فإذا شَذَّت بعض الأقسام عُدَّ الكلام معيبًا.

وأما الموازنة بين المعاني: فهي من ضروب النقد المعنوي، وإنما تعرِض بين طريقي أداء المعنى الواحد، وطريقُ الموازنة في هذا النَّظَرُ إلى أنزه الأشياء وأقربِها لمحاسن الموصوف.

وكذلك تعرض بين المعنيين المتشابهين فصاعدًا، عند قصد التخيير لما يناسب منها، كالموازَنة بين أداء المعنى بالحقيقة أو بالمجاز، وبالتَّصْريح أو بالكناية، فيعرف مقامات العدول عن الحقيقة إلى المجاز. وغير ذلك.

وأما تنسيق المعاني وتهذيبها: فهو تنقيحُها عن كلِّ ما يَعْلَقُ بها مما يكون غريبًا عنها، ولا مناسبةَ له بها من خطأٍ أو صواب. وأظهرُ مواقع الحاجة إليه مقاماتُ الاستطراد، لكن يجب أن فإن المتكلِّم أو الكاتب أو الخطيب قد تدعوه إلى الاستطراد دواعٍ كثيرة، ليلقي من المعاني التي يرى الداعي لإلقائها موجودًا، ويخشى أن لا يجد لها مناسبةً غير ذكرِها عند نظيرها، وذلك كاستطراد الدعاء في طوالع الرسائل، أو استطراد قِصَّة أو حادثة أو شِعْر في أثناء رسالة أو خطبة، وتلك سُنَّةٌ قديمة شائعة بين الكُتَّاب والخطباء، فيجب أن يكون ذلك الاستطرادُ شديدَ التعلق بالموضوع، إما لثناءٍ أو بيانٍ أو تحسينٍ أو إظهارِ إمكانِه أو تنظيرِه

أو تذكيرٍ بسابقٍ أو نحو ذلك، فإن عري الاستطرادُ عن شيءٍ من العلاقات المقبولة الواضحة صار أشبه بالهَذَيان.

ـ أخذ النتائج من المعاني:

كما أن المنشئ قد يستطرد الشيء لمناسبةٍ وتعلُّقٍ بالغرض، كذلك يلزمه سَوْقُ معانٍ غير مقصودة بالذات، ولكنَّ المقصود هو ما تعطيه من النتيجة، وتسمَّى حينئذٍ بـ(المقدِّمَات)، فقد لا يُفضِي المتكلِّمُ إلى غَرَضِه من أول وَهْلَةٍ خشيةَ نفورِ النَّفْس، أو عدم اتضاح المقصود، وعندي أنَّ هذا من جملة ما يُفَرَّقُ به بين مقامات الإطناب والإيجاز، ومنه ما يسمَّى في فن البديع بـ(حُسْنِ التعليل)، وبـ(حُسْنِ الاعتذار).

وقد تُقَدَّم النتيجة على مقدِّماتها، فَيُؤتَى بها حينئذٍ كالأدلة، وذلك إذا كان المخاطَب غير متوقَّعٍ نُفُورُه، إما لإنصافه أو لطاعته للمتكلِّم أو نحو ذلك.

مقامات الكلام

مقاماتِ الكلامِ متفاوتةٌ، ومِلاكُ ذلك يرجع إلى نَبَاهَة المتكلِّم في ترتيب أداء المعنى بحسب حال المخاطَب وعلاقته بالواقع. ويشبه أن يكون حالُ المخاطَب وارتباطُه بالخارج مَرْجِعَ اختلافِ مقامات الكلام كلِّها، **وذلك ينضبط فيما يظهر لنا في أربع جهات:**

الأولى: ترتيب المعاني المدلولة. **الثانية**: طرق الاحتجاج. **الثالثة**: طرق الدلالة. **الرابعة**: كيفية المعنى من جزالة أو رقة أو سهولة.

فأما ترتيبُ المدلولاتِ: فالأصل أن يكون على حسب حصولِها، وتفرُّع بِعضِها عن بعض، فإن كان الكلامُ خبرًا فالنَّظَرُ إلى الحصول في الخارج، فيُحكَى على ترتيبه الطبيعي.

وإن كان إنشاءً فالنظر إلى ترتيبِه بحسب حصولِ مدلولِه عند الامتثال، وقد يتعيَّنُ هذا كما في حكاية الأخبار المحزِنة.

وقد يخالَف مقتضى الظاهر، كتقديم ما شأنُه التأخير لِغَرَضٍ، مثل تعجيل المسرَّة، أو قطع نزاع المنازِع قبل أن يلَجَّ في الخصومة فيكابرُ ولا يرجع إلى الحقِّ، أو للتنبيه على المقصود، مثل الافتتاح بدعاء مناسب، أو نحوه، ويسمَّى: (براعة الاستهلال)، وغير ذلك من مناسبات التقديم المبينة في علم البلاغة.

وقد تَتبَّعْتُ السَّبب في تقديم ما حقُّه التأخير وعكسه من جُمَل الكلام، **فرأيتُ أنَّ مِلاكَ ذلك:**

• إما استبقاءُ الذِّهْن لما هو أولى بالإيعَاء، وتهيئة السمع لما هو أجدر بالإصغاء.

• وإما الاستراحة من غَرَضٍ خفيف يُقَدَّمُ، ليُفضِي إلى غَرَضٍ مهمٍّ يؤخَّر.

• وإما لأنَّ أحد الغَرَضَيْنِ إن كان حقُّه التقديم أو عكسه لكنه كان من المعاني المتولِّدة أو المستطردة، واتصل بغيره مما قُدِّم أو أُخِّرَ اتصالًا يمنع من التفرقة بينها وبينه؛ لأنها إن فُرِّقَت تَشَتَّتَ الذِّهْنُ في استيعابها، وتَحَيَّر في جمعها وترتيبها.

وأما ترتيب الخبر مع الإنشاء: فالأصل فيه تقديمُ المقدِّمات على النتائج، ولا يُعكَس إلا لغرضٍ.

وأما الجَزَالةُ والسُّهولَة والرِّقَّـةُ: فهي مراتب للمعاني المستفادة من الكلام:

فالجزالة شِدَّةٌ في المعنى تَقْرُبُ من حَدِّ الإرهاب، أو تبلُغُه، بحيث تُؤْذِنُ بعدم مبالاة المتكلِّم باستعطاف المخاطَب ولا بِمُلايَنَتِه، ولها مواقع: الغَضَبُ، والحَمَاسَة، والوَعْظُ، والعِتَاب، ونحوها.

وأما السُّهُولة فهي دونَها، وهي لينُ المعنى وتجريدُه من شوائب الإرهاب، واشتمالُه على إيضاحِ بَسَاطَةِ حال المتكلِّم، ومُلايَنِة المخاطَب، ولها مواقع: الأمور العادية، والعلوم، والمخاطَبات بين الأكفاء.

وأما الرِّقَّة فهي غَايَةُ إيضاحِ لَطِيفِ الوجدان من المتكلِّم، أو التلطُّفُ مع السَّامع، ولها مواقع: الشَّوْقُ، والرِّثَاء، والاعتذار، والتأديب.

ثم إنَّ للكلام مقاماتٍ متنوعة: منها: مقام تحقيق، **ومنها**: مقام مسامحة، ففي الأول يُؤتَى بالبرهان، والحِكْمة، والجِدِّ. وفي الثاني يُؤتَى بالخَطَابة، والشِّعْر، والتَّمْليح، والمَزْح.

ومن المقامات: مقام تبيينٍ، ومقام تنميق، ففي الأول: الحقيقة، والتَّصْريح، واللفظ المتعارف. وفي الثاني: المجازُ، والكناية، والتعريض، والتَّمليح، والتَّوجيه، والإبهام، والخصوصيُّ من الألفاظ.

وباعتبارٍ آخر: إلى مقام اقتصادٍ، ومقام إفراط، ففي الأول: حكاية الواقع. وفي الثاني: المبالغة وفروعُها.

وباعتبارٍ آخر: إلى مقام إطنابٍ، ومقام إيجازٍ؛ لضيق المجال، أو المبادرة خشيةَ الفَوَات، فإنَّ التطويلَ قد يُشَتِّتُ الذِّهْنَ. أو لِقَصْد الوعي، مثل مقام الوصاية.

وهنا ينتهي القسم المعنوي.

القسم الثاني: اللفظي: [ويبحث فيه عن أحوال الألفاظ]:

إن للفظ حظًّا كبيرًا في الإنشاء، فإنَّ بحسنِه يظهرُ رَوْنَقُ الإنشاء ويترقرق ماؤُه، وإنك لترى المعنى الشريفَ إذا لم يُمنَح من الألفاظ ما يناسبُه أصبح لفظُه له قبرًا، ولم يَطْرُقْ لسامعه فكرًا، وبالعكس قد تغطِّي الألفاظُ الحسنة في حال تركيبها بَسَائِطَ المعاني ومبتذَلَها، فإنَّ الشاعر

أو الكاتب أو الخطيب قد يُضطَرُّ إلى أن يَذكُر من المعاني ما ليس له كبيرُ أهميةٍ، إما لكونه على قَدْرِ إفهام مخاطَبيه، وإما لكون ذلك المعنى لا يَقبَلُ تنميقًا فيلزمُه حينئذٍ أن يكسوَ المعنى من حِلْيَةِ الألفاظ ما يُنَبِّهُ مقدارَه، ويُعلِي مَنارَه.

والنَّظَرُ في أحوال اللفظِ ينحصرُ في: أحوال الألفاظ المفردة، وأحوال الألفاظ في حال تركيبها، والتدرُّب على كيفية التعبير.

أحوال الألفاظ المفردة

للألفاظ أربعة أحوال:

الأولى: الفَصَاحة: وهي وصفُ الكلمة، وهي خُلوصُهَا مما يُكَدِّرُها ويثقلها في السَّمْع ويبعدها عن سلامة الذَّوْقِ العربي، وقد بُيِّنت في علم المعاني.

الثانية: الصَّرَاحة: وهي دلالة اللفظ على كمال المعنى المراد، بأن يتعيَّن المرادُ منه.

ويحصل ذلك بأمور كثيرة:

منها: توخِّي الألفاظ الموضوعة للمقيَّدات.

ومنها: تجنُّب استعمال المشترَك بدون قرينة.

وقد يدعو المَقَامُ للعدول عن الصَّرَاحة لأغراضٍ، مثل التَّوْرِيَة، والتَّوجِيه، والمُوَارَبة، ويحسن ذلك في التخلُّص من المضايق.

ويدخل تحت هذا الشرط ـ **أي**: الصراحة ـ: التنبيه إلى كلماتٍ كثيرةٍ يستعملُها الكُتَّاب والمنشئون غَلَطًا، إما في معناها وإما في اشتقاقها، فعلى المنشئ أن لا يتابعَهم في استعمال لفظٍ إلا بعد تحقيقِ معناه لغةً.

الثالثة: العِزَّة: وهي سلامة الكلمة من الابتذال. **والابتذال يقع على وجوه:**

أحدها: نَقْلُ العامَّة الكلمةَ من معنى، واستعمالها في معنى غيرِ حَسَن. وكثيرٌ من أسماء الأضداد نَشَأ من مثل هذا.

الثاني: أن تكون الكلمة من موضوعات العامة المفقودة أو المَنْسِيَّة في فصيح الكلام.

الثالث: أن يحصل من بعضِ صِيَغِ الاشتقاق ما يُوهِمُ معنًى مُسْتَبْشَعًا.

الرابع: أن يكون معنى الكلمةِ سخيفًا، فيجب على الكاتب إن اضطُرَّ إلى التعبير عن مدلولها أن يتَنكَّبَ عنها إلى مسالك الكناية تنزيهًا للِّسان. ويُغتفَرُ استعمال المبتذل في مقام الهَزْل أو الحِكَاية أو المشاتَمة.

الرابعة: الرَّشَاقة: وهي مناسبةُ حالِ اللفظ لمقام الكلام، فإنَّ الألفاظ منها جَزْلٌ ومنها سَهْلٌ، فالجَزْل يُستعمَل في ذكر الحروب والحَمَاسة والتوبيخ ونحوها، والسَّهْلُ في مقام الملاطَفَة والغَزَل والمديح، ومنها ما لا يوجِبُ شيئًا من الأمرين، والتحقيق أنَّ كُلَّ هذا لا يَتبَعُ وَصْفَ الألفاظ في ذاتِها؛ إذ ليس وصفُها مختلفًا، ولكنه يتبع جَلْبَ بعض الألفاظ وتركَ البعض بحسب المقام.

أحوال الألفاظ المركبة

وللألفاظ في حال تركيبها ستة أحوال:

الأول: فصاحة الكلام: وقد عُرِّفَتْ في علم المعاني.

الثاني: النَّزَاهَةُ: وهي الخُلُوُّ من الألفاظ المُستهجَنَة والشَّنيعَة، ولو باعتبار ما يَسْبِقُ الكلمة أو يَلْحَقُهَا.

الثالث: الانسِجَام: وهو سهولة الكلام في حال تركيبه، بحيث لا يَثْقُلُ على اللسان.

ويندرج تحت الانسجام سلامةُ الكلام من التكلُّف والتصنُّع، بحيث لا تَعرِف منه كدَّ الذهن، ولا تلفيق المعاني لأجل الألفاظ، ولا البحث

عن الألفاظ المستغرَبة، وكذا الإكثار من المحسِّنات البديعية المتكلَّفة، التي يُعبَّر عنها بالصَّنْعة، ويُسمَّى الكلام المستكثِر منها: مصنوعًا، وغير المتكلف لها: مطبوعًا.

وفَنُّ الشِّعْر أشدُّ تحمُّلًا للصَّنْعَةِ من النثر.

الرابـــع: الاقتصاد: وهو بطرح الفُضُول في اللفظ، وحذفِ المكرَّر من القول، والاستغناء عن كثرة المؤكِّدَات.

وقد شمل قولنا: (الاقتصاد) ما يقابل ما وصفناه من الفُضُول، وذلك هو الإخلال بما يلزم من اللفظ لأداء المعنى، وهو عيبٌ إلا إذا كان مقصودًا لغرضٍ، كالألغاز، والمحاورات العلمية المشتملة على اصطلاحاتٍ لا يَفهَمها غيرُ أهل ذلك العلم. وقد حصر الماورديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ الأسبابَ المانعةَ من فهم الكلام لعلَّة فيه في ثلاثة:

تقصير اللفظ على المعنى، وزيادة اللفظ على المعنى، والمواضعة: **أي**: الاصطلاحات.

الخامس: اتصال جمل الكلام: وهو فُسْطَاط علم الإنشاء، وحَلْبَة استباق همم المُتَضَلِّعين فيه، وقد تتبَّعتُ كلام أئمة الفن فوجدتُ غايةَ ما تبلغ إليه الضوابطُ في اتِّصال جُمَل الكلام ـ على كثرة الأسماء والألقاب المتناثرة في كتب الأدب ـ **أربعة أشياء**:

أحدها: تناسب بعض الجمل مع بعض: وهو المعبَّر عنه بـ(الفَصْل والوَصْل) فموضع القول فيه في علم البلاغة.

ثانيها: ارتباط الجُمَل وعدمُ انفكاك بعضِها عن بعض: وهو أن تتصل الجُمَل، ولا يَفْصِلَ بينها إلا بشيءٍ مناسِبٍ لها، ويَعرِفُ كيف يكون الرُّجوع عما فُصِلَتْ به إلى ما فُصِلَتْ عنه.

فإذا عَلِم المتكلِّم أين يضعُ أجزاء الكلام جاء كلامُه مرتبطًا، وإذا لم يُحْسِن ذلك اختلط عليه، وخَرَج من غَرَض إلى غَرَض، فإذا استطردَ

أو قَدَّم أو ذَيَّل فليَقتصِر على قَدْر الحاجة، فإنه إن زاد عن ذلك سَمُج.

وربما طال الاستطراد لاقتضاء المقام ذلك فيناسب عند الرجوع إلى الغرض المقصود أن ينبه السامع لذلك بإعادة الكلمة التي تربط الغرض.

ثالثها: الانتقال من غرضٍ إلى غرضٍ ومن أسلوب إلى أسلوب: وهو زينةُ الكلام للكاتب والشاعر والخطيب، وهو أحسن تَطْرِيَةً لنشاط السامع، وأكثر إيقاظًا للإصغاء إليه، ويختصُّ من اللطافة بمثل ما قرره علماء المعاني للالتفات، ولا بد فيه من مراعاة المناسبة.

رابعها: حُسْن الابتداء، والتَّخَلُّصُ، والخِتَامُ: وإنما خُصَّت بالبحث وإن كان جميع الكلام مشروطًا بالحسن، لأنَّ الإجادةَ فيها أعسر؛ إذ الابتداء هو أول ما يَقْرَع السمع، وأول ما يبتدئ به المتكلم، وهو مفتاح الكلام، فإن هو أتقنَه كان إتقانُه مُعِينًا على النَّسْج على منواله. وكذلك التخلُّص من المقدمة إلى الغرض؛ فإنه يحتاج إلى فضلِ براعةٍ في الارتباط بينهما، وكذلك الختام؛ لأنه يجب أن يكون قد استوعب ما تكلَّم لأجله. ولا جرم أن يكون ما يتخلَّلُ بين هذه الثلاثة رشيقًا بليغًا متى سَهُلت على المتكلم الإجادة في هذه الثلاثة.

السادس: مناسبة الكلام للغرض: وذلك بأن يناسبه في الرِّقَّة والجَزَالة، وبأن تناسبَه كيفيَّةُ انتظامِه من سَجْعٍ وتَرَسُّلٍ وإيجاز وإطناب وبَسَاطَةٍ وصَنْعَة، وهذا أهمُّ شيءٍ في الإنشاء بعد ما تقدَّم وأصعبُه.

ولا بأس أن نمثِّل هنا لشيءٍ من أغراض الكلام وما يناسبُها من أحوال الألفاظ المركبة، فيقال: **الرِّقَّة والصَّنْعَة** تُسْتَحْسَنان في الأغراض الهَزَليَّة، والتَّهَاني، والمقامات، والمواعظ الترغيبيَّة، ومخاطَبات الأصدقاء في المودَّة ونحوها. **والجَزَالة وما يقرُب منها** تُستحسَن في المراثي، والتَّرْهِيبات، والحروب، والمخاطَبات مِن العظماء، والأدعية، والتآليف العِلْمية **والسَّجْع** يحسُن وَقْعُه في المقامات، والتَّهَاني،

والوِدَادِيَّات، والغَرَاميَّات، لِقُرْبِه من الشِّعْر وديباجات التآليف، ومقدمات التَّحْلية في المخاطَبات والأمثال والحِكَم؛ لأنَّ المراد تعلُّقها بالحِفْظ، والسَّجْعُ يُعين على ذلك مثل النظم. **والتَّرَسُّل** يحسُن في الأدعية، والخُطَب، والمواعظ، والعِلْميات، والتاريخ، والتَّراجِم، ومخاطَبات العموم، والمراسلات الدَّوْلية، والصُّكوك والشروط ونحوها.

ومتى وُضِع فَنٌّ من فنون أحوال الألفاظ المركَّبة في غير موضعِه المناسب جاء سَمِجًا.

السَّجْعُ والتَّرَسُّلُ

لما كان السَّجْعُ من أشهر طرق الإنشاء، وجب أن نُشير إلى حقيقته، وشيءٍ من أقسامه ومحامده ومعايبه، والمفاضلة بينه وبين التَّرَسُّل، قال ابن الأثير: «السَّجْعُ: تواطؤ الفواصل في الكلام المنثور على حَرْفٍ واحد، والأصلُ فيه الاعتدال في مقاطع الكلام، ولكن لا يكمُل السَّجْع إلا إذا كانت ألفاظُه غيرَ غَثَّةٍ ولا باردة، والمعنيُّ بـ(الغَثَّة الباردة) أنَّ صاحبَها يصرِف نظرَه إلى السَّجْع من غيرِ نظرٍ إلى المفردات وما يُشترَط لها من الحسن، وإلا لكان كلُّ أديبٍ سَجَّاعًا، بل هناك مطلوبٌ آخر وهو أن يكون اللفظُ فيه تابعًا للمعنى، فإنك إذا صَوَّرْتَ في نفسك معنى، ثم أردت أن تَصُوغَه بلفظٍ مسجوعٍ ولم يُوَاتِكَ إلا بزيادة في اللفظِ أو نقصانٍ منه، فإذا فعلتَ ذلك فهو الذي يُذَمُّ من السَّجْع، لِمَا فيه من التكلُّف، وأما إذا كان محمولًا على الطَّبْع غير متكلَّف فإنه يجيءُ في غاية الحُسْن».

وأحسنُه ما تساوت فواصِلُه أو تقاربت في طُولٍ لا يَقْطَعُ النَّفَس.

وهو يدلُّ على مقدرةِ الكاتب إذا جاء غير متكلَّف، وكان في مواقعه.

التَّمَرُّنُ على الإِجَادَةِ

معالجةُ المتكلِّم أداءَ ما قَرَّره وهَذَّبَه من المعاني بما يُنَاسِبُها من اللفظ، وما يناسب غَرَضَ الكلام ومَقَامَه هو غايةُ علم الإنشاء؛ لأنَّ تلك المعالجةَ تصير دُرْبَةً وبيانًا، ويحصل ذلك بمطالعة كلامِ البلغاء، وتتبُّع اختيارهم، وسَبْر أذواقهم في انتقاء الألفاظ وابتكار المعاني، لتنطبع في الذهن صُوَرٌ مناسبةٌ - كما تقدم في أساليب الإنشاء - فيحصل من ذلك ما لا يحصل من دراسة قواعد الفصاحة والبلاغة، وقد قالوا: «إنَّ السَّمْعَ أبو الملكات اللِّسَانية».

ولهذه المعالجة طرائق:

إحداها: المطالعة.

ثانيها: الحفظ.

ثالثها: حَلُّ الشعر وعَقْدُ النثر.

انتهى القسم اللفظي، وبه انتهى فن الإنشاء

فن الخطابة

ما هي الخطابة؟

يمكن أن نعرِّفها بأنها: كلامٌ يحاوَلُ به إقناعُ أصناف السامعين بصحَّة غَرَضٍ يقصِدُه المتكلِّم لفِعْلِه أو الانفعالِ به.

منافع الخطابة

إن الخطابة ركنٌ عظيمٌ من آداب الاجتماع البشري، فبها يحصل تهذيب الجمهور وحملُهم على ما فيه صلاحهم، وتسكين جَأْشِهم عند الرَّوْع، وبثُّ حماسهم عند اللقاء، وبها تحصل مُحَاجَّة المموِّهين عليهم والمعنِّتين لهم.

وحسبك من منفعة الخطابة أن الله تعالى شرع لنا الخطبة عند كلِّ اجتماع مهم من جُمُعة وعيد وحج.

أصول الخطابة

اعلم أن أصول الخطابة من حيث إنها كلامٌ مُنشَأ لا تفارق الأحوالَ الثلاثة التي شرحناها في فن الإنشاء في (كيفية إنشاء المعنى) **وهي**:

المعنى الأصلي، وتفصيله، وإيضاحه:

ولكن الذي يختلف هو كيفية التفصيل والتنسيق، وكيفيةُ الإيضاح والتعبير:

فأما كيفية التفصيل: فسيأتي جلُّها في معرفة أركان الخطبة.

وأما كيفية التنسيق: فهو في الخطابة: أن يتمكن الخطيب من الموضوع الذي يتصدَّى للتكلُّم فيه، ويجمعَ أصولَه ويستحضر غايته والغرضَ الذي يرمي إليه، ويتصوَّر ذلك بوجه مجمل، ثم يأخذ في تفريعه قبل التكلُّم لكيلا يُرْتَجَ عند الشروع، ثم إنه يُحسِنُ ربطَه ويناسب في الانتقال لكيلا يَشِذَّ عليه وقتَ الاشتغال بالتكلم بعضُ ما كان أعدَّه. ثم يَعقُب ذلك تقريرُ المعنى ـ على حسب ما تقدم في نقد المعاني ـ ثم الاستدلال عليه.

ولا بد للخطيب من التنبُّه إلى مواقع النقد والاعتراض، وهي الأشياء التي يظنُّ أنَّ في السامعين من ينكرها؛ لمخالفة اعتقادٍ أو مخالفة هوى، فيَعُدُّ ذِهْنَه للجواب عنها. **وأما كيفية الإيضاح والتعبير**: فكما تقدم في فن الإنشاء، لكن تلاحظ الفروق بين الرسالة والخطبة، **ومنها**:

أولًا: أن الخطابة يشافَه بها جمعٌ من الناس، فهي من هذا الوجه أولى باستعمال الألفاظ السهلة التناول للجمهور، مع بَسَاطة المعاني وقلة تركيبها والإغراب فيها.

ثانيًا: أنها لذلك يجب أن تكون جُمَلها شديدةَ الارتباط قريبةَ التآخي، بحيث لا يحسُن فيها تطويلُ الاستطراد ولا بُعْدُ مَعَاد الضمائر والإشارات ونحوها؛ إذ ليس لذهن سامعِها من التمكُّن في التفهم ما لذهن قارئ الرسالة.

ثالثًا: أن السجع الذي هو فنٌّ من فنون الإنشاء لا يحسُن كلَّ الحُسْنِ في الخطابة، خصوصًا الخطابة التي تُقَال لجماهير الناس وعامتهم؛ لأنَّ السجع لا يخلو عن تكلُّف ألفاظٍ تحجُب ذهن السامعين عن كمال فَهْم المعاني، فإن اغتُفِر فيها السجعُ فإنما هو ما يقع عَفْوًا بلا تكلُّف.

رابعًا: أن الخطابة لَمَّا كان شأنَها الارتجالُ كانت جديرةً بطرح كلِّ ما تُشَمُّ منه رائحةُ التصنُّع.

ولتمام الاستعانة على التنسيق والتعبير اللذين هما ملاك أصول الخطابة تعيَّن على الخطيب **التملِّي من رواية أقوال الخطباء**؛ فإنَّ في ذلك معرفةً لمعانٍ جامعةٍ وألفاظ بارعةٍ، وذلك ليعتادَ سهولةَ التعبير.

كما لا غُنْيَة له عن **معرفة أحوالِ الأمم** ومحامِدهم ومَذَامِّهم؛ فإن ذلك مما يعرِض للخطيب، ويُعِينُه على التكلُّم في المجامع؛ ليأخذ من ذلك أمثالًا صالحةً أو تحذيراتٍ نافعةً. وكذلك **معرفة ما يكثُرُ الدعاء إليه** مثل منافع المَدَنِيَّة ومنافع التعليم، ومثل استحضار الخطيب السِّيَاسيِّ لعلائق الأمم وتواريخ حوادثها، ولذِكْرِ مفاخر أمته ودولتها، واستحضار ما يَذُبُّ به عن سياستِه ممن يَنتقِدُهَا.

الخطيب

يتعلق الكلام على الخطيب بأمرين:

أحدهما: شروطه. **وثانيهما**: عيوبُه. لتحصل من معرفتِهما ما يجبُ اتِّبَاعه، وما يتعين عليه تركُه.

ـ **شروطُ الخطيب**: وهي كثيرةٌ: **منها**: ما يَرجِعُ إلى ذِهْنِه. **ومنها**: ما يرجع إلى ذاته.

فأما شروط الخطيب الراجعة إلى ذِهْنِه:

فقد أرجعها أرسطو إلى ثلاثة أشياء:

أولهـــا: معرفة الأقوال التي يحصل بها الإقناع. **وثانيها**: معرفة الأخلاق والفضائل الذاتية. **وثالثها**: معرفة الانفعالات، ومِنْ أيِّ شيءٍ تكون. ونحن نزيدها. **رابعًا**: وهو قُوَّة البَدَاهة في استحضار المعاني.

أما معرفة الأقوالِ المُقْنِعَة فالمراد بها معرفة الأَقْيِسَة الخطابيَّة، وذلك يحصل بمَلَكَة التمييز بين الأقيسة الصحيحة، والكُلِّيات وجزئياتها، والصادق والكاذب، ومراتب أنواع الحُجَّة، سواء أحصلت تلك المَلَكَة من سلامة الفِطْرة وأصَالة الرَّأي، أم من مُزَاولة الفنون الحِكْمِيَّة، ويُلحَق بذلك معرفةُ الحقِّ والباطل، والمقبول والمردود، والصَّريح والخفي، والظاهر والمُؤَوَّل.

وأما معرفة الأخلاق والفضائل: فالقصدُ من ذلك التمييزُ بين ما هو فضيلةٌ وضدِّه من الأفعال، ومعرفة محاسِن الأخلاق ومساوئها، **فإن بمعرفة ذلك تحصيل غرضين مهمين:**

أحدهما: رياضة الخطيبِ نفسَه على التَّحَلِّي بتلك الفضائل.

وثانيهما: معرفتُه ذلك من حال المخاطَبين؛ ليلقي لهم الكلام على قَدْر احتياجهم وبقدر ما تَهيَّأت له نفوسُهم.

ولا غِنَى له عن معرفة أضداد الفضائل أيضًا؛ إذ قد يدعوه الحالُ إلى بيانها إما لِذَمِّ ما تشتملُ عليه وتُؤثِره، وإما لمعرفة ما فيها من منافع قليلة؛ لئلا يَبْهَتَه بها مَنْ يريدُ التَّضليلَ بترويجها.

وأما معرفة الانفعالات ومَنْشَئِها: فهي من أكبر ما يعتمدُ عليه خطيبُ

القوم؛ إذ به يُمَيِّزُ بين ما تنفعلُ به نفوس العامة، وما تنفعلُ به نفوس الخاصة، وما هو مُشتَرَكٌ بينهما، وبين أنواعِ الانفعالات خيرِها وشَرِّها، وقوَّتِها وضعفِها، وما هو مقبولٌ وما هو مردود.

وكذلك القولُ في حَمْلِ المخالفين على الشيء بالرَّغبة والرَّهبة، فإذا كان الخطيب معتمِدًا على قُوَّة، وعَلِم أنَّ للمخاطَبين من الحِدَّة والعصيان ما يُحبِط سعيَ الخطيب، فعليه أن يتَظاهرَ بقُوَّتِه بَادِئَ الأمر؛ ليَفُلَّ من تلك الحِدَّة.

هذا وقد يجهل المتكلِّمُ في غرضٍ ضمائرَ الناس، ولا يَزِنُ مراتبَ عقولهم، فينبغي له أن يتفطَّن لِمَا يلوحُ عليهم من الانفعال، ولا بد في هذه المُفَاتَحة من جَلْب التَّوْرِيَات والتَّوجيهات ونحوها، مما يمكن تأويلُه ويتيسَّرُ له عند إجفالِهم تحويلُه.

وإنما تظهرُ مَواهِب الخطيب وحِكْمتُه وبلاغتُه في هذا المقام؛ لأنَّ مَنْ تكلَّم عن احتراسٍ وسوءِ ظَنٍّ بسامعيه حَاطَ لِنَفْسِه من الغَلَط؛ لأنَّ شِدَّة الثِّقَةِ بالنَّفْس تُغَطِّي على عَوارِها فلا يَتَّقِيه ربُّها.

وأما الأمر الرابع وهو قوَّة البَدَاهَة في استحضار المعاني وسماه أبو هلال بـ(انتهاز الفرصة) فهي من أهمِّ ما يلزم الخطيب؛ إذ ليس يخلو من سامعٍ يدافع عن هواه، أو عدوٍّ يترصَّدُ سَقَطات الخطيب ليُري الحاضرين أنه ليس على حقٍّ فيما قال، أو مُجيبٌ يُجيبُ عن تَقْريع الموعظة.

وأما شروطُ الخطيب في ذاتِه:

فمنها: جَوْدَةُ القَرِيحة، وهي أمرٌ غيرُ مُكتَسَب.

ومنها: أن يكون رابط الجَأْش؛ **أي:** غير مُضطَرِبٍ في فَهْمِه ولا مندَهِش.

ومنها: أن يكون مرموقًا من السَّامعين بعين الإجلال؛ لِتُمْتَثَلَ أوامرُه، ويحصلُ ذلك بأمور كثيرة منها: شَرَفُ المَحْتِد، وحفظ العِرْض؛

بحيث لا تُحفَظ له هَنَةٌ أو زَلَّةٌ، ورَجَاحَة الرأي وقوَّة العِلْم والحكمة.

هذه أهم الشروط الذاتية.

ويَعُدُّ علماء الأدب تارةً صفاتٍ أخرى هي بالمحاسن أشبه:

مثل: سكون البَدَن وقت الكلام؛ لأنه دليلٌ على سكون النَّفْس.

ومثل: ما سماه أرسطو بـ(السَّمْت) وهو أن يكون على هيئة مُعْتَبَرَةٍ في نفوس الجمهور من لُبْسِه وحَرَكتِه ونحو ذلك.

ومثل: مناسبة طَبَقَةِ الصَّوْت لموضوع الخطبة. وغير ذلك.

وأما شروط الخطيب في نفسه فأهمها:

اعتقادُه أنه على صواب وحقٍّ؛ لأنَّ ذلك يودِع كلامَه تأثيرًا في نفوس السامعين، وأقوى له في الدعوة إليه والدفاع عنه، ويحصُلُ ذلك بالتزامه متابعةَ الحقِّ، وبكونه على نحو ما يطلبُه من الناس.

ومنها: عِفَّتُه ونزاهتُه.

ومنها: الوَقَار والصَّون عن الابتذال في معاشرة القوم، وعدم الإكثار من الهَزْل والسُّخْف والفُحْش والخِفَّة والطَّيْش.

ومنها: النَّزَاهة عن الطَّمَع في جَرِّ نَفْعٍ من كلامه؛ فإنَّ في ذلك نُفْرَةً عن اتِّعَاظ الناس بقوله، وظِنَّةً في صِدْق دَعْوتِه.

ـ عيوب الخطيب:

العيوب التي يكثُر عُروضُها للخُطَباء تنقسم **إلى فطري وإلى مكتسب**:

فأما الفِطْريُّ: فمنه ما يمكن تجنُّبه بكثرة الممارسة، نحو: الحُبْسَة عند التكلُّم، وسقوط الأسنان.

ومن العيب الفِطْري ما لا يمكن تجنُّبه كبُحَّةِ الصوت، والفَهَاهَةِ، واللُّثْغَةِ ببعض الحروف، وضِيق النَّفَس فجديرٌ بصاحبها أن يتجنَّب هذه الصِّنَاعة.

وأما المكتسب: فهو أشياء تعرِض للخطباء في أول اشتغالهم بالخطابة من أفعالٍ تصدُر عن غير اختيار، فإن هم غفلوا عن مراقبة أنفسهم لإزالتها صارت لهم عوائدَ سيئةً، وقد نَهى الأدباءُ عن أمورٍ من ذلك، كالتَّنَحْنُح، ومَسْح اللِّحْية في أثناء الخطبة لا عند الشروع ـ على أنه يُغتفَر منه ما لا يَكثُرُ، إذا طال الكلامُ جدًّا ـ وحكُّ الجِلْد، وفَتْلُ الأصابع، وكثرةُ حَرَكة الأيدي والبَدَن، والتمخُّط، وغيرُه.

الخُطْـبَة

قد عَرَفْتَ حقيقتَها مما تقدَّم، وليس لمقدارِها حَدٌّ محدودٌ، ولكنها تكون بحسب الغرض الذي دعا الخطيبَ للكلام، ثم تكون بحسب ذلك الغرضِ بَيْنَ موجَزةٍ ومُطْنَبَةٍ ومتوسطة بحسب ما يأتي في المقامات، ولذلك تكلَّم الفقهاء على أقلِّ مقدار خطبة الجمعة والعيدين.

أركان الخطبة

متى نظرنا إلى أغراض الخطباء في تركيب الخُطَب نجد الخطبة تعتمد على أركان سبعة:

الركن الأول: الدِّيبَاجة: وهي فاتحة الخطبة المشتملة على حَمْدٍ وثناءٍ على الله تعالى، وصلاةٍ على رسوله، وما هو من ذلك القبيل.

ويُستحسَن في الدِّيبَاجة الإيجازُ والارتباطُ بالمقصود، ويسمى ذلك بـ(براعة الاستهلال). كما يُستحسَن فيها الاعتناءُ بالبلاغة والصِّنَاعة، ويحسُن وَقْعُ السَّجع فيها لأنه يُضَارِع الشِّعْر فينشِّط النَّفْس، ويُهَيِّئُ الأذهان إلى ما سَيُلقَى إليها.

الثاني: التَّخَلُّصُ: وهو مَوْقِعُ (أمَّا بعدُ) ونحوها، مثل: (أيُّها الناس)، والشرط فيه أن تكون الدِّيبَاجَة قد هيَّأت النفوس، وأشعرت بالغَرَض المطلوب.

الثالث: المقدِّمة: وهي مَبْدَأ الخطبة في الحقيقة، ونعني بها الكلام الذي يُقصَد منه تهيئة نفوس السامعين لتلقِّي ما سَيُلقَى إليهم بالتَّسليم.

وطريقة ذلك: أن يستعين الخطيب بما يَعْلَمُ من سَجَايا الأقوام ومقادير انفعالاتهم، على اختلاف الطبقات والعصور والعقائد، فيأتي لكل فريق بمقدِّماتٍ تهيئ لقَبول الغرض، ولذلك لم يلزم أن تكون المقدمة صحيحةً، بل يكفي أن تكون مقبولةً مسلَّمة، ولو كانت وَهْميَّةً.

وقَصْدُ الخطيبِ قَمْعُ الهوى ومحاولةُ الصَّلاح، والهوى حائلٌ قويٌّ دون الحق، فإذا أُرِيد الإقناعُ بشيءٍ فمن الواجب ألا يَنْقَضَّ عليه، بل يحومُ حوله وينتهزُ الفرصة لتحصيله، وبمقدار الظن بِبُعْدِ نفوس السامعين عن الاعتراف بالحقِّ ينبغي للخطيب الإبعادُ بالمقدِّمات.

ويتوصَّل الخطيب إلى انتهاز الفرصة التي تقوم مقام تطويل المقدِّمة بالاستعانة بأمور:

أحدهـــا: المعتقَدات الثابتة في النفوس، ولو كانت غير صحيحة.

ثانيهـــا: القضايا الكُلِّية والمُسَلَّمة.

ثالثهـــا: النَّوازل الحادثة، فإنها فُرَصٌ للموعظة، والنُّفوسُ عند نزولها سريعةُ الانفعال رقيقةُ الوِجْدَان.

الرابـــع: **الغَرَضُ**: وهو الذي من أجله انتصب الخطيبُ ليخطب.

الخامس: **البيان**: أي بيانَ الغرض وإيضاحَه، وذلك **إما بالاستدلال، أو التمثيل، أو الاستطراد، أو الإشارة**:

فالبيان بالاستدلال كثيرٌ بإقامة الدليل على صِحَّة الغَرَض والنِّضَال عنه.

وأما التمثيل فبابٌ واسعٌ من البيان للعامة؛ لأنه أخصر من الدليل، والأذهانُ إلى إدراكه أسرع. ويكون التمثيلُ بذِكْر الأمثال، ويكون بالبناء على اعتقادٍ أو قصَّة.

وأما الاستطراد فيكون بمدحٍ أو ذَمٍّ أو ثوابٍ، وأحسنُه ما اشتدَّت فيه المشابَهةُ.

وأما الإشارة فكالإشارة باليد.

السادس: الغاية: وهي التَّحريضُ أو التحذير، وشأنُها أن تقع آخر الخطبة بعد ما تقدم، وقد يقدِّمُها الخطيب ثم يأتي بعدها بغيرها فتصير المقدمةُ دليلًا إذا تَأَخَّرَتْ، وتَعْرَى الخطبةُ عن المقدمة حينئذٍ.

السابع: خاتمة الخطبة: ويحسن فيها أن تكون كلامًا جامعًا لِمَا تَقَدَّمه، أو إشارةً إلى أنه قد أتى على المقصود وانتهى منه، أو أَمْرًا بالتثبيت أو دعاءً أو نحو ذلك، وإنما يكون ذلك عند إتيان الكلام المتقدِّم على الغَرَض المقصود واستيفائِه. وقد يكون ذِكْرُ الشِّعْر في الخطبة إشارةً إلى نهايتها كما سيأتي.

فإذا خطب الخطيب في العامَّة فعليه بِسَهْلِ المعاني ويستدعي ذلك سهولة دِلالة الألفاظ.

وإذا خَطَب في الخاصَّة فليأت بالمعاني الرَّائقة، والحِكَم العالية، والألفاظ العَزِيزة المُعَبَّر عنها بـ(السَّهْل الممتنع)؛ لأنه إذا أتى بما دون ذلك لا يُثير انفعالهم، ولا يَرُوقُ كلامُه في أسماعهم فلا يحفلون به.

ومثل ذلك يقال في أساليب تنسيق الخطب على حسب الأغراض، فلكلِّ غَرَضٍ لهجةٌ ونَسَقٌ، ولذلك يحسُن التأنُّق في بعضها والبَسَاطة في بعض، كما أنَّه يحسن الإرسال في بعضها ويحسن السجع في بعض. وقد تتبعت ما استطعت مواقع السجع في الخطب النبوية، وخطب فصحاء العرب في الجاهلية والإسلام، فرأيت مواقع السجع عندهم في حيث يُراد الحفظ للقول، كالوصايا والآداب والخطب الأدبية والعلمية.

هذا ومما يلتحق بالكلام على نَسْج الخطب: اشتمالُها على شيء من الشِّعْر، وكان ذلك قليلًا عند العرب.

التدرُّب بالخَطابة

أصول التدرب على الخطابة خمسة أمور:

أولهـــا: ضَبْطُ الغَرَض المرادُ التكلُّم فيه، وذلك بتصوُّرِه وتصوُّرِ الغاية منه، وحسن تفهُّمِه، وإتقانه، والإحاطة بِمُهِمِّ ما ينبغي أن يقال فيه من المعاني، ولا يهتم بالألفاظ إلا بعد ذلك؛ لأنَّه إن ابتدأ بانتقاء الألفاظ ضاعت عنه المعاني.

ثانيهـا: التَّكرير؛ ليرسخ، إما بإعادة الفكرة فيه المرَّة بعد الأخرى، وإما بمذاكرة الغير فيه، والتنبُّه لِمَا عسى أن يكون قد أغفله.

ثالثهـــا: اختيار ساعة نشاط البال.

رابعهـا: تدريبُ القُوَّة الذاكرة، وذلك بتجنُّبِ الاعتماد على الكتابة بقدر الاستطاعة.

خامسها: المواظبَة، فيُشترَط في الخطيب أن يكون غيرَ هَيَّابٍ ولا وَجِلٍ من تكرير التكلُّم، وعَدَمُ الاكتراث في أول الأمر بالإِجَادَة.

هذا غايةُ ما تعيَّن تحريرُه من فَنِّ الخطابة.

انتهى المقصود من إجمال مباحث الكتاب





النصُّ محققًا



بسم الله الرحمٰن الرحيم

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الحمد لله منشئ الخلق ومعيده، وواهب البيان لراغبه ومستزيده، والصلاة والسلام على رسوله الذي أيده بمعجزِ القرآن، وأرسله بالبينات وأنزل معه الكتاب والميزان، وعلى آله وأصحابه أفضلَ مَنْ فَرَعَ[(١)] المنابر، وسطَّرت فخرَه الأقلامُ في الدفاتر، أما بعد:

فإن مزية فن الإنشاء قد ترجَمَتْ عنها كثرةُ طالبيه، ونباهة شأن النابغين فيه، كيف وهو الذي يُفصِحُ به المرءُ عما يريد من المقصِد، وطالما كفى قلمُ الكاتب مُهِمَّهُ فما ضرَّه أن لا يُهَزَّ المهنَّدُ[(٢)].

وقد كنت أمليتُ على بعض المتعلمين عُجَالةً تُلِمُّ بالمهم من أغراضه إلماما، وتَرِيشُ[(٣)] لقُنَّاصِ شوارده سِهَاما، وتمكِّنُ بأيديهم لصِعَابه زِمَاما، تجنبتُ فيها طريقة جمهور المؤلفين في هذا الفن؛ إذ ملؤوا كتبهم بمسائل علم المعاني والبيان، وربما تجاوزوا إلى بقية علوم اللسان، وتركوا جانب المسائل الخاصة بهذا الفن ظِهْرِيًّا، إلا قليلًا منها لا يفيد المطالع كمالًا أدبيًّا، وقد تلقَّفوا ذلك الصنيع، فتابع المتأخرُ المتقدمَ وتشبَّه فيه الظالعُ بالضَّليع[(٤)]، والعذرُ للمتقدِّمين منهم: أنَّ علم الأدب لم يكن في عصرهم منخولًا بعضُ فنونه من بعض، أما المتأخرون فإنما

---

(١) **فرع**: صعد، من باب منع.

(٢) **قوله**: (فما ضره أن لا يُهَزَّ المهنَّد) شطر بيت من الطويل، وقد يكون جرى على قلم المؤلف دون قصد فيكون من (الانسجام). قال ابن منقذ: «الانسجام: أن يأتي كلامُ المتكلِّم شعرًا من غير أن يقصد إليه، وهو يدل على فور الطبع والغريزة». البديع في نقد الشعر (١٣١).

(٣) **راش السهمَ**: أصلح حالَه. وبابُه باع.

(٤) **الظالع**: الذي يعرج في مشيته. **والضليع**: قوي الأضلاع. وهو مأخوذ عن الحريري في المقامات (٤).

اتبعوا طريقة المتقدمين بعد أن تمايزت الفنون، حتى أصبح طَلبَة هذا الفن إن هم شرعوا فيه نُقِلت لهم المسائلُ التي قرؤوها في علم البلاغة فلم يجدوا فائدةً يستزيدونها، ولا مُهِمَّةً ينقلونها، فربما أُدخِلَ على أذهانهم بذلك شيءٌ من التَّهويس[١]، زيادةً على ما أُضِيعَ من وقتهم النفيس، ولذلك جَعَلْنا بعض مسائل فنون البلاغة لهذا الفنِّ كالأصول نُحِيل عليها المتعلِّم، ونكتفي فيها بتوقيف المعلِّم؛ لئلا يطول الفنُّ بلا طائل، وأخذنا من كلام أئمة الفن المتناثر، ما جعلنا له قواعدَ وكلياتٍ وأدرجناه تحتها كالشواهد، فجاء شبيهًا بقطارٍ نُظِمَ مِنْ مُرْتَاضِ الشَّوارد[٢]، وجاء أولَ إملاءٍ فيما علمتُ ظهر به فنُّ الإنشاء مهذَّبًا ممتازًا عما سواه، ومَنْ خَبرَ ما سلف من كُتبه عَلِمَ قيمةَ ما صنعنا، وكيف تتبَّعنا مواقعَ القطر فانتجَعْنا[٣].

وكان العزمُ معقودًا على أن نعود إلى تلك الأمالي فنهذِّبَ ديباجَها، ونعالجَ مِزَاجَها[٤]، فحالت دون ذلك شواغل، وصَرَفت الذهنَ خصومٌ ونوازل، إلى أن اشتدت حاجة الراغبين في تعلم الإنشاء إلى كتاب يبيِّنُ طرائقه، ويُدنِي لِجَانِيه حدائقَه، فرأيتُ من اختلاف طرقِ المزاولين، وتعطُّشِهم إلى كتابٍ مُذَكِّرٍ أو معين، ما حداني إلى أن نفضتُ منها عُثَّ[٥] الهِجْران، وأَمَطْتُ عنها عناكب النِّسْيان، ورجائي من أهل الأدب ورواته، وأطبَّاء اللسان وأُسَاته، أن يتلقَّوْها تلقَّيَ الجيش للرَّبيئة[٦]، ويضموا إليها ما تُوضِحُه شمسُ أفهامهم المضيئة.

---

(١) **التهويس**: الاختلاط والفساد. مصدر الفعل هوَّس.

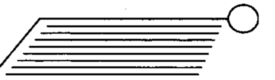
(٢) **القطار**: صف الإبل يكون بعضها خلف بعض على نَسَقٍ واحد. ومرتاض الشوارد: ما صار مروضاً من نوافر الإبل. **والمعنى**: أن الكتاب قد جمع من مسائل الفن ما تناثر، وألَّف ما تنافر.

(٣) **الانتجاع**: طلب الكلأ في موضعه.

(٤) **مزاج الشراب**: ما يُمزَج به.

(٥) **العُثُّ**: جمع عُثَّة، وهي أَرَضَةٌ تأكل الصُّوف.

(٦) **الربيئة**: الطليعة التي تأتي بخبر العدو، ويتلقَّاها الجيش بالاهتمام والإصغاء والتشوُّف لما عندها.



مقدمة

الغرض من تدريس الإنشاء: هو إبلاغ المتعلم إلى الإفصاح عن مراده، كتابة أو قولًا مِن أقرب طريق، وسلوكِ سبل الإفهام بأحسن ما يُستطاع من التعبير، ومن الواضح أن ذلك لا يحصل بقواعد مطردة، بل الأصل فيه هو الممارسة، ومزاولة مآثر نوابغ الكُتَّاب في ألفاظهم ومعانيهم، لتحصل منها في ذِهْن المُطالِع قوالبُ غيرُ جُزْئِيَّة تُفرَغُ فيها أمثالُها[1]، وإنما القواعد التي تُدرَس في هذا الفَنِّ ليست غير أُنموذجٍ من طرق التعبير، أو كليات في حُسْن التنسيق واختلاف أغراض الكلام ونحو ذلك، مما يجعلُ بصيرةَ المتعلِّم قادرةً على الحكم والتمييز بين ما يجب أن يأخذَه وما يجب أن يتركَه.

إذن، **فالإنشاء: علمٌ تُعرَف به كيفيَّةُ أداء المعاني التي تخطِر بالذِّهْن أو تُلقَى إليه، على وَجْهٍ تتمكَّنُ به من نفوس المخاطبين، من حيث حُسْنُ رَبْطِ أجزاء الكلام، واشتماله على ما يُستَجَاد من الألفاظ ويحسن من الأساليب، مع بلاغته.**

فقولنا: (تُعرَفُ به كيفيَّة أداء المعاني) يدخل فيه علوم اللغة كلُّها.

---

(١) أردت بقولي: (قوالب غير جزئية) أنَّ النتائج التي يزاولها المتعلمون هي أمور خاصة جزئية، وليس المراد حفظَها فقط، كما يتوهَّم كثيرٌ ممن يَرُومُ تعلُّم الإنشاء، حتى إذا دعا أحدَهم داعٍ إلى تحرير شيء لم يجد من نفسِه قُدْرةً على غير السرقة والأخذ مما حَفِظَه سواء ناسَب المقام أم لم يناسب، فيجيء إنشاؤه مسلوبَ الرُّوح مغسولًا، بل المراد من المتعلِّم أن يعلَم تلك الأمثلة الجزئية؛ لتحصلَ منها صُورٌ في ذهنه من كيفية التعبير واختلاف الأساليب، وذلك هو المعبَّر عنه بالذَّوْق المعرَّف عندهم بأنه: قوةٌ إدراكيَّةٌ لها اختصاصٌ بإدراك لطائف الكلام ووجوه محاسنه الخفية. (المؤلف).

وقولنا: (التي تخطِر بالذهن أو تُلقَى إليه) لقَصْد التعميم؛ لأنَّ من الناس من لا يحسن التعبير عن غير المعاني التي تخطر بذهنه، فإذا كُلِّفَ إنشاءَ شيءٍ اقترِحَ عليه لم يستطع، حتى قيل: إنَّ الأفضل للكاتب أن يكتب كما يريد ويُرَادُ منه[١]. وقيل[٢]: إنَّ الحريريَّ صاحب المقامات لَمَّا أُحضِر من العراق لديوان الإنشاء ببغداد، وكُلِّفَ كتابةَ كتابٍ أُفْحِمَ حتى قيل فيه:

شَيْخٌ لنَا مِنْ رَبيعَةِ الفَرَسِ ... يَنْتِفُ عُثْنُونَهُ مِنَ الهَوَسِ
أنطقَه اللَّه بالعراق كمَا ... أَلْجَمَهُ في بغدادَ بالخَرَسِ[٣]

وقولنا: (على وَجْهٍ تتمكَّن به من نفوس المخاطبين بها) خرج به علم اللغة، والنحو، والصرف، إذ لا يشترط فيها ذلك.

وقولنا: (من حيث حسن ربط أجزاء الكلام. . . إلخ) لإخراج علم

---

(١) وقد قالوا ذلك في المفاضلة بين أبي إسحاق الصابئ والصاحب بن عباد، فإنَّ الصاحب يكتب كما يريد، والصابئ يكتب كما يراد منه، وبين الحالين بَوْنٌ بعيد. **انظر**: معاهد التنصيص في ترجمة الصابئ. (المؤلف). قال المعتني: ألا ترى إلى الصاحب بن عبَّاد فإنه طلب أن يجانس بين (قم) الذي هو فعل أمر، وبين (قم) الذي هو اسم مدينة، فلما لم يتيسَّر له معنى مطابق لمقتضى الحال يكون اللفظ فيه بليغًا، أنشأ العزل بلا سببٍ لقاضي تلك البلدة، فكتب إليه: (أيها القاضي بِـ(قُمْ) قد عزلناك فَقُمْ)، فتفطَّن القاضي بأنه لا غَرَضَ له في المعنى، فقال: والله ما عزلني إلا هذه السَّجْعة. **ينظر**: يتيمة الدهر (٢/ ٢٤٦)، الشفا للقاضي عياض (١/ ٣٦٢)، معاهد التنصيص (٢/ ٦١).

(٢) المثل السائر (١/ ٥٥). وتعقبه الصفدي في نصرة الثائر (٥٦).

(٣) البيتان نسبا إلى ابن حِكِّينا الحَرِيمي في وفيات الأعيان (٤/ ٦٥)، وإلى علي بن أفلح في سير أعلام النبلاء (١٩/ ٤٦٤). وربيعة الفرس: هو ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان أخو مضر، لقب بـ(ربيعة الفرس)؛ لأنه أُعطِي من ميراث أبيه الخيل، قال ابن عبد البر: «إن العرب وجميع أهل العلم بالنسب أجمعوا على أن اللباب والصريح من ولد إسماعيل بن إبراهيم ﷺ، ربيعة ومضر ابنا نزار بن معد بن عدنان، لا خلاف في ذلك». الإنباه على قبائل الرواة (٨٢). والعثنون: طرف اللحية. والهوس: طرف من الجنون وخفة العقل.

البلاغة؛ لأنه لا تشترط فيه تلك الحيثيَّة، وبذلك فارق هذا الفنُّ بقيةَ فنون الأدب اللساني.

وقولنا: (ما يُستَجاد من الألفاظ، ويحسن من الأساليب) إشارةٌ إلى أنَّ من أخصِّ وظائف المنشئين التَّدَرُّبَ على اختيار أخفِّ الألفاظ استعمالًا و[أحسنها][1] رَوْنَقًا، وتحسين أسلوب الخطاب واختيار ما يناسب المقام منها وسيأتي الكلام على اختيار الألفاظ في القسم اللفظي والكلام على الأساليب بعد هذا.

وقولنا: (مع بلاغته) لإخراج ما ليس ببليغ، فليس من الإنشاء المبحوث عنه عُرفًا، وإنما هو التعبير عن المعاني كيفما اتفق، وذلك لا يَتوقَّف إلا على معرفة المفردات، وكيفية رَبْط الكَلِم بعضها ببعض، والبحثُ عنه في أُولَيَات علمي النَّحْو والصَّرف.

وموضوعُه: الكلامُ العربي من حيث رَبْط جُمَلِه ومحاسن كَلِمِه، وبذلك فارق موضوع البلاغة؛ إذ الإنشاء لا يتعلَّق إلا بالكلام المشتمل على جُمَلٍ كثيرة، ولا يدخُلُ الجملةَ الواحدة المفيدة، إلا أنَّ بعض أبوابٍ من البلاغة لا تخلو من شديدِ انتسابٍ بمسائل الإنشاء، كالفَصْل والوَصْل[2]، والإيجاز والإطناب، وبعض المحسِّنَات البديعيَّة[3].

واستمدادُه: من كلام البُلَغَاء وخُطَبهم، ورسائلهم، وأشعارهم، وآداب العرب وعوائدهم، ومشهور أحوال الأمم المعروفة وأمثالها، قال ابن الأثير في المثل السائر: «قد قيل: ينبغي للكاتب أن يتعلَّقَ بكلِّ عِلْم، وأهمُّ ما يَفتقِر إليه أنواع ثمانية: علم العربية، وأمثال العرب العَارِبَة ومَنْ

---

(١) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق. وليست في الأصل.

(٢) **الفصل**: ترك عطف بعض الجمل على بعض. **والوصل**: عطف بعضها على بعض. الإيضاح (٢٤٦).

(٣) كالجناس، والسجع، وحسن التخلص، والاقتضاب، وبراعة الاستهلال، وحسن الانتهاء، وغيرها.

بَعدَهم وأيامُهم ووقائعُهم، والاطلاعُ على كلام المتقدِّمين من الكُتَّاب في النَّظم والنَّثر، وحفظ كثيرٍ منه، ومعرفةُ الأحكام السُّلْطَانية، وحفظُ القرآن والتدرُّب به، ومشهورِ[(١)] الأخبار النبوية»[(٢)].

ولم يكن فنُّ الإنشاء مخصوصًا بالتأليف، ولكنه كان مِنْ جُمْلَة فنون آداب اللغة العربية، فيوجَد بعضُ مسائلِه متناثرًا في كتب البلاغة، ومختارات خُطَب العَرَب، ومُلَحِهم، وبَدَاهَة[(٣)] أجوبتِهم، وأمثالِهم، فتكون مسائلُه مشمولةً بالرِّوَاية من أواخر عصر الدولة الأموية؛ إذ كان ابن القِرِّيَّة[(٤)] قد عُنِي بنوادر العرب ومُلَحِهم، ثم شُمِلت بالتدوين في أوائل الدولة العباسية، ضِمْنَ كتب أدب العرب، مثل كتب أبي عبيدة[(٥)] وأضرابه، ثم كان بَعْدُ مُدرَجًا في كتب بلاغة العربية إلى أن شَبَّ شباب ديوان الإنشاء في الدولة العباسية وما تفرَّع عنها، فأصبح بُلَغَاء الكُتَّاب

---

(١) **أي**: وحفظ مشهور الأخبار النبوية.

(٢) المثل السائر (١/ ٥٧). قال ابن أبي الحديد: «هذا من أُبَّهَات الكُتَّاب وتزويقاتهم، ولا يعوِّل عليه محصِّل، وهذه الفنون التي يزعمون افتقار الكتابة إليها، إن أرادوا بها ضرورتها فهذا باطل؛ لأنَّ سحبانَ وقُسًّا ومعاوية وزيادًا وغيرَهم من خطباء العرب ما كانوا يعرفونها، وإن أرادوا أنها متمِّمةٌ ومكمِّلةٌ فهذا حق، ولكنَّ عدمَها لا يقتضي سَلْب مسمَّى الكتابة». الفلك الدائر (٣٧). **وينظر**: شرح المقدمة الأدبية لابن عاشور (١٩٠).

(٣) كذا في الأصل. والأنسب: بدائه. وهي البدائع؛ إذ بدائع الأجوبة هي الخليقة بالتدوين.

(٤) **هو**: أيوب بن زيد بن قيس الهلالي، يضرب به المثل في البلاغة، يقال: (أبلغ من ابن القرية) والقرية جَدَّتُه. وفد على الحجَّاج واتصل بعبد الملك بن مروان، ثم التحق بابن الأشعث، وأسره الحجاج في وقعة (دير الجماجم)، وقال له: والله لأَزِيرَنَّك جهنم! فقال: فأرحني فإني أجدُ حَرَّها!، فأمر به فضُرِبت عنقُه، وكان ذلك سنة ٨٤هـ. ولما رآه قتيلًا ندم، وقال: لو تركناه حتى نسمع من كلامه!. وفيات الأعيان (١/ ٢٥٠)، الأعلام (٢/ ٣٧).

(٥) **هو**: معمر بن المثنى، ومصنفاته كثيرة أحصى منها عبد السلام هارون أكثر من مئة مصنف. **ينظر**: مقدمة العققة والبررة لأبي عبيدة (ضمن نوادر المخطوطات ٢/ ٣٦٥).

يُميِّزُون مسائل هذا الفن بالتدوين، وذلك من منتصَف القرن الثالث، فمنهم من جَمَع ما صَدَر عنه من بديع المراسلات أو الخطب أو المقامات، ومنهم من جَمَع أفضل ما يُؤثَر عن العرب ومَنْ يليهم من غُرَرِ الخطب وبدائع الجُمَل، كما صنع الجاحظ في بيانه (توفي سنة ٢٥٥هـ)، ومنهم من جَمَع أمثال العرب ومُوجَزَ أقوالِهم، كما فعل أبو منصور الثعالبي في جُلِّ كتبه[١] (توفي سنة ٤٣٠هـ)، ثم جاء الذين حاموا حول ضبط الأصول وتدوين القواعد، فمزجوا الفَنَّ بمسائل علوم البلاغة والمحسِّنات، وأكثروا فيما عدا ذلك بالوصايا على تَتَبُّع مُنْشَآت البُلَغَاء من الكُتَّاب، وأتوا بجُملة منها ووازنوا بينها؛ لتحصلَ للمتعلِّم مَلَكَةٌ يقتدِر بها على تمييز الحَسَن من غيره، والنَّسْج[٢] على مِنوال ما يراه حسنًا، وفي هذه الطريقة ظهرت أفضلُ كتب الفنِّ وأقربُها إلى الطريقة التعليمية، كما فعل ابن الأثير في «المثل السائر»، وسبقه في ذلك أبو هلال العسكري في «كتاب الصناعتين» (توفي سنة ٣٩٥هـ)، وعلى وَقْع خُطَاهم اقتفى السَّالكون، المطوِّلون كتبَهم والمقصِّرون.

ومَلَكَةُ الإنشاء تُكتَسب من جهة المعنى، ومن جهة ما يُعبِّر عن المعنى وهو اللفظ والكتابة[٣]، فالأول ينحصر في معرفة إيجاد المعنى في الفِكْر، وترتيبِه، والاستنتاج منه. والثاني يبحث عن حال اللفظ ومناسبتِه للمعنى مُفرَدًا أو مركَّبًا، وذلك أصول أساليب الكتابة.

هذا وللإنشاء فضيلةٌ واضحةٌ، فإنه لم يَخْلُ عَصْرٌ من رجالٍ تمكَّنوا

---

(١) وأهم كتبه في هذا: ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، خاص الخاص، سحر البلاغة، التمثيل والمحاضرة. وهي مطبوعة.

(٢) الأصل: الشيخ. وهو غلط.

(٣) اعلم أن مقام الكتابة في فن الإنشاء غير مقام القول؛ فقد يحسن في الكتابة ما لا يحسن في الخطابة أو في المحادثة والعكس، فلا يصح أن يكتب المرء كما يقول ولا العكس. (المؤلف).

من سَوْقِ غيرهم بعِصِيِّ آرائهم، ففي الحديث: **(إنَّ من البيان لَسِحْرًا)**[١]، وقد اختار الله تعالى المعجزةَ لأصحاب اللسان العربي بلاغةَ القرآن، وقديمًا ما عالج ديموستين[٢] ـ الخطيب اليوناني ـ من العَنَاء لِيَتدَرَّبَ على الخطابة التي تَمَكَّن بها بَعْدُ على قهر فيليبوس[٣] مَلِك مقدونيا ووالد الإسكندر[٤]، وسمع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ زياد بن أبي سفيان ـ وكان يومئذٍ لا يُدعَى لأبيه ـ يخطُب في زمن عمر ﷺ فقال:

---

(١) رواه البخاري (٥١٤٦) عن ابن عمر ﷺ. ومسلم (٢٠٤٦) عن عمار بن ياسر ﷺ. وقد حمله الجمهور على المدح، واحتجوا لذلك بسياق الخبر، وبقوله ﷺ: **(وإنَّ من الشِّعْر لحكمة)**. قال الخطابي: «مما لا ريب فيه أنه جاء على وجه المدح له، وكذلك مِصْراعه الذي بإزائه؛ لأنَّ عادة البيان غالبًا أنَّ القرينين نظمًا لا يفترقان حُكْمًا». معالم السنن (٤/١٣٧).

(٢) ولد عام ٣٨٤ (ق. م) ووالده صانع سكاكين ثري توفي عام ٣٩١ (ق. م) وترك ثروة تقاسمها أولياء ولده، وحين شب ديموستين اضطرَّ للمرافعة ضدهم ليحصِّل مالَه، وكان ذلك داعيًا له لإتقان الفصاحة والخطابة فأتقنها، واستمر في المرافعات الخاصة والعامة، حتى آل أمره إلى أن أصبح خطيب اليونان المقدَّم، وُتذكر عنه قصص في معاناته الخطابة. **ينظر**: الأدب اليوناني لفرنان روبير (١٢٤).

(٣) من أمهر قادة الجيوش في العصور القديمة قبل نبوغ ابنه الإسكندر، وذكر مترجموه أنه كان سياسيًّا محنَّكًا، لكنه خلوٌ من الخلق، متهتك في المجون وشرب الخمر. وصفه ديموستين بالرجل الدائم التطلع والطموح للاستيلاء على بلاد جيرانه. وكان بعيد الرؤية، صبورًا على تحقيق مآربه، بارعًا في زرع بذور التفرقة بين أعدائه. وكان يقول: (لم أر قطُّ حصنًا ـ مهما كانت مناعته ـ إلا وتمكَّن حمارٌ حُمِّل ذهبًا من اختراقه). الإسكندر الكبير لمتوديوس زهيراتي (٢٣).

(٤) من أكبر قواد التاريخ، خَلَفَ أباه في الحكم، تتلمذ على أرسطو، ثم استوزره بعدما تولى الحكم، وهو الذي بنى الإسكندرية، مات وعمره ٣٣ سنة، وأخباره كثيرة. وليس هو ذا القرنين المذكور في القرآن، فذاك عبدٌ صالح بلغ أقصى المشرق والمغرب وبنى سد يأجوج ومأجوج كما ذكر الله في كتابه، وهو متقدم على زمن الإسكندر بمدة عظيمة. أما الإسكندر بن فيليبوس المقدوني فهو مشرك يعبد الأصنام والكواكب، ولم يصل إلا إلى أرض الفرس، وهو قبل المسيح بثلاثمائة سنة. **ينظر**: الرد على المنطقيين (١٨٢، ٢٨٣)، الإسكندر الكبير (٦٣).

«لو كان هذا الفتى قُرَشِيًّا لسَاقَ العَرَب بعَصَاه»[١]. ولولا مكانةُ عبد الله بن المقفَّع الشهير في الكتابة لَمَا سَلِم عبدُ الله بن علي بن عبد الله بن عباس ـ أخو السَّفاح ـ من غَدْر ابن أخيه أبي جعفر المنصور، فإنَّ ابن المقفع كتب له على المنصور عَهْدًا لم يترك للمنصور فيه مدخلًا للخيانة إلا سدَّه عليه[٢].



(١) المشهور أنَّ القائل عمرو بن العاص بحضور علي رضي الله عنهما. **ينظر**: وفيات الأعيان (٦/ ٣٥٧)، نهاية الأرب (٢٠/ ١٨٩).

(٢) كان ابن المقفع كاتبًا لعيسى بن علي ـ أخي عبد الله المذكور ـ وكان عبد الله قد وقعت بينه وبين أبي جعفر المنصور إِحَنٌ هَزَمَه فيها أبو جعفر المنصور فَفَرَّ إلى البصرة مُتَوارِيًا عند أخيه عيسى، ثم سأل الأمَانَ من المنصور فبذل له الأمان ناويًا الغَدْرَ به، فسأل عبدُ الله مِن ابن المقفَّع أن يكتب له عهدًا وثيقًا على المنصور ليمضيه له، فكتب له عهدًا لم يُبْقِ للمنصور به مدخلًا إلى الغَدْر إلا سدَّه عليه. وابن المقفع هو عبد الله بن داذ جنشنش، أصله من خراسان، ولما أسلم سُمِّي عبد الله، ولُقِّب أبوه بالمقفع لأنَّ الحجَّاجَ ضَرَبَه حتى تقفَّعَت ـ **أي**: تشنَّجَت يدُه ـ. توفي عبد الله سنة ١٣٧هـ مُغتالًا في دار أمير البصرة المعزول سفيان بن عيينة المهلَّبي، وشَهِد له الخليل بالعلم والأدب. (المؤلف). **ينظر**: سير أعلام النبلاء (٦/ ٢٠٨)، الأعلام (٤/ ١٤٠).



كيفيةُ الإنشاءِ للمعنَى

الإنشاء كاسمه إحداثُ معانٍ منسَّقَةٍ ومُفْرَغَةٍ في غَرَضٍ مطلوب، فإذا أُحسِن وصلُها وجمعُها جاء الإنشاء كاملًا.

وأساس ذلك ثلاثة أمور: المعنى الأساسي، وتفصيله، وإيضاحه.

أما المعنى الأساسي: فهو الموضوع الذي يجول في الفِكْر ويجيش به الخاطِر[1]، وهو غَرَضٌ إجماليٌّ يجب إحضارُه على إجماله، ثم يَشرَعُ في بيانه وإقناع السامعين به، فهو نظير (المطلوب) في اصطلاح المناطقة؛ **أعني**: ما يُقَامُ عليه البُرْهَان. وهو في اصطلاح الكُتَّاب: ما تُتَرْجَمُ به الرِّسَالة أو تُعَنْوَنُ به المقالة، مثل قولنا: العِلْمُ أساس العُمْران، والاتِّحَاد سبب القوة. ولا نريد من إجماله كونه بسيطًا، وإنما نريد أنه غيرُ ملحوظٍ فيه التَّفريعُ ابتداء.

وأما تفصيل المعنى: فهو التَّبَصُّرُ في تقاسيمه وفروعِه، وتفكيكُه بإطالة النَّظَر فيه؛ للتنبُّهِ إلى ما ينحَلُّ إليه من الحقائق والأدلَّة والمُرغِّبَات أو المُنفِّرات.

وأما الإيضاح: فهو شرح تلك المعاني وذِكْرُ أدلتِها وفروعها، ليمكن حينئذٍ التعبير عنها بوجه سَهْلِ التصوُّر للسامعين، فإذا حصل ذلك لم يبق إلا كَسْوُ تلك المعاني بالألفاظ، فتسهُل الإفاضة في إنشاء الموضوع المرادِ، **على حَدِّ ما قيل**:

فإن وَجَدْتَ لسانًا قائلًا فَقُلِ[2]

---

(١) الأصل: ويجيش في به الخاطر. والأنسب ما أثبت، فمعنى جاش: تدفَّق وجَرَى.

(٢) عجز بيت للمتنبي صدره: وقد وجدتَ مكان القولِ ذا سَعَةٍ. ديوانه (٣/ ٨١).

نُقِل عن عبد الله بن المعتز أنه قال: «البلاغة بثلاثة أمور: أن تغوصَ لحظةُ القلب في أعماق الفِكْر، وتجمعَ بين ما غاب وما حَضَر، ثم يعود القلبُ على ما أُعمِلَ فيه الفِكْرُ فَيُحكِمُ سياق المعاني، ويُحسِن تنضيدَها، ثم يبديها[1] بألفاظٍ رشيقةٍ مع تزيين مَعارِضِهَا[2]، واستكمال محاسنِها»[3].

واعلم أنه قَلَّمَا يستطيع الكاتب أو الخطيب أن يتناول الموضوعَ من أوله إلى نهايته دَفْعَةً واحدة، فإن هو كَلَّف عَقْلَه ذلك أرهقه ضَجَرًا، ولا سِيَّمَا عند تَشَعُّبِ الموضوع وكثرة المعاني فيه، فيكادُ ييأسُ من المقدرة عليه؛ إذ تلوح له معانٍ كثيرةٌ فَيَرُوعُه انتشارُها ولا يدري كيف يبتدئُها، ولكنه إن اتَّبَع هاتِه الطريقةَ المشروحةَ، ورَتَّبَ المعاني الأساسية، وآخَى بين المعاني الفرعِيَّة التي هي من نَوْعٍ واحدٍ، وأحسنَ ترتيبَها، فذلك وقتُ رَفْعِ القَلَم من الدَّوَاة للكتابة، أو وقت الانتصاب للخَطابة؛ لأنَّ ثِمَار الفِكْر قد أينعت وآن قِطَافُها.

* **مِثالٌ للتمرين:**

كتب ابن الأثير في الزُّهْد في الدنيا ما يأتي:

«الناس في الدنيا أبناء السَّاعة الرَّاهنة، وكما أنَّ النفوسَ ليست بقاطنة[4]، فالأحوال ليست بقاطنة، ولا شبيه لها إلا الأحلامُ التي يتلاشَى خيالُها عاجلًا، وتجعَلُ اليَقَظَةُ حقَّها باطلًا، وما ينبغي حينئذٍ أن يُفرَح بها مقبلة، ولا يؤسى عليها مُدْبِرَة، وكلُّ ما تراه العَيْنُ منها ثم

---

(١) الأصل: يبديه.

(٢) **المعارض**: جمع مِعْرَض ـ كمنبر ـ وهو الثوب الذي تُجْلَى فيه الجارية حين تُعرَض للبيع. فشبَّه الألفاظ بالجواري على سبيل الاستعارة المكنية.

(٣) زهر الآداب (١/ ١٠٩).

(٤) **قاطنة**: **أي**: مقيمة، من قطن من باب قعد. وقد تحرَّفت هذه الجملة عند الصفدي في نصرة الثائر (١١٨)، فكان اعتراضه مردودًا.

يذهب فكأنها لم تَرَهُ، وغاية مطلوب الإنسان منها أن يُمَدَّ له في عُمُره، ويُمْلَى له في امتداد كُثْرِه. أمَّا تعميرُه فيعترضُه المشيب الذي هو عدمٌ في وجود، وهو أخو الموت في كلِّ شيءٍ إلا في سُكْنَى اللُّحُود. وأمَّا مالُه فإن أمسَكَه فهو عُرْضَةٌ لوارث يأكلُه، أو حادثٍ يستأصلُه، وإن أنفقَه كان عليه في الحلال حِسَابًا، وفي الحرام عِقَابًا، فهذه زَهْرَةُ الدنيا النَّاضِرة، وهذه عُقْبَاها الخاسرة»[1].

فقوله: (وما ينبغي حينئذٍ أن يُفرَح بها مقبلة، ولا يؤسَى عليها مدبرة) هو المعنى الأساسي.

وقوله في الدنيا: (ولا شبيهَ لها إلا الأحلامُ...) إلخ الفِقْرات. وقوله: (وهو أخو الموت في كلِّ شيءٍ...) إلخ الفِقْرة. من قبيل إيضاح المعنى.

وقوله: (الناس في الدنيا). وقوله: (وكل ما تراه العين) مع بقية الكلام، ذلك كلُّه من قبيل تفصيل المعنى، وقد خَلَط ترتيبَها خلطًا تظهرُ به مقدرةُ المتعلِّم عند تمييز بعضها من بعض، بحسب المراتب الثلاثة المذكورة.



(١) المثل السائر (١/ ١٩٥).



أساليبُ الإنشاءِ

للإنشاء أساليبُ متنوعةٌ باختلاف الأغراض، والمَعْنِيُّ باختلاف أساليب الإنشاء اختلافُ مستعمَل الألفاظ، واختلافُ كيفيَّةِ رَبْط الجمل تَبَعًا لاختلاف الأغراض، وذلك أمرٌ وراء **اختلاف المعاني، واختلاف مقتضيات الأحوال**، المدوَّن لأولِها علم اللغة والنحو والصرف، ولثانيها علمُ البلاغة، وهو الأمر الذي إذا حَصَل جاء الكلامُ عربيًّا، وبضَيَاعِه تضيع اللَّهْجَةُ العربيةُ مع بقاء المفردات اللغوية، وبقاء قواعد فنِّ البلاغة[^١]، ولهذا لا تجد مشابَهةً بين كلام المتكلِّفين من الأُدَباء، وبين

[^١]: (١) لأنَّ اللغة ألفاظ مفردة، وجمل مركبة، وكيفية نظم الجمل. فإذا عرف الإنسان المفردات من علم اللغة والتصريف، وعرف التركيب من علم النحو، وعرف ما يجب تقديمه وتأخيره وحذفه ونحوه من علم البلاغة، استطاع أن يأتي بكلام مفيد، كما نَقَل الجاحظ في البيان (٤/ ٢٦): «أنَّ رجلًا يُدعَى نفيسًا قال لغلام الجاحظ: الناس ويلك أنت حياء كلهم أقل. يريد: أنت أقلُّ حياءً من جميع الناس. ويلك». فهذا عَرَف المفردات ولم يعرف ترتيب التركيب، ويسمى هذا بـ(التعقيد)، فبمعرفة قواعد النحو والبلاغة يُحتَرَز عن هذا. ويبقى النظر في نظم الكلام وربط بعض جمله ببعض وهو فن الإنشاء، وليس في علم البلاغة من قواعد ذلك إلا مسائل غير كثيرة؛ كمسائل الفصل والوصل، والإيجاز والإطناب، ومسائل التخلُّص، والاقتضاب، وبعض المحسنات المعنوية، ومع ذلك فإن الإحاطة بقواعد البلاغة لا تُفيد وحدَها إنشاءَ كلام عربي بليغ، ألا ترى أنه قلَّما وجَدْنَا مشابهةً بين كلام المولَّدين وكلام العرب، وذلك لقلة حفظ النَّثْر العربي، وترى الشِّعْرَ أشبه بالشِّعْر العربي من النثر بالنثر العربي، وما سبب ذلك إلا كثرةُ ما حُفِظَ من الشعر العربي، وقِلَّة ما حُفِظ من النثر، ولولا القرآنُ لما بقي مَنْ يستطيع أن يُنشِئ إنشاءً عربيًّا نثريًّا، غير أنَّ ذلك لا يكفي في استيعاب جميع الأساليب. (المؤلف). قال المعتني: إنما جُعِل النظمُ مادةً للنثر؛ لأنَّه جلُّ ما بَلَغَنا من كلام العرب، ولم يصل إلينا من نثرهم إلا القليل. ويمكن أن يَسلُك =

كلام العرب ومَنْ يليهم من البلغاء أهلِ اللِّسان، وأحسنُ قولٍ يُفْصِح عن هذا قولُ الشيخ عبد القاهر رَحِمَهُ اللهُ في «دلائل الإعجاز»: «إنَّ النَّظْمَ هو تَوَخِّي معاني النحو فيما بين الكَلِم على حسب الأغراض»[١]. وطريق علم ذلك: هو عَرْضُ الأساليب المختلفة من كلام البلغاء على المتعلِّمين؛ ليحصلَ لهم من اختلاف أمثلتها صُوَرٌ متنوعةٌ، يَلُوحُ لأذهانِهم منها وقتَ مُحَاولةِ الإنشاء أُنْمُوذجٌ فيما يصلح له من الأغراض، وهو الذي سمَّيْنَاه فيما مضى بـ«القوالب غير الجُزْئِيَّة».

ألا ترى أن النبي ﷺ لَمَّا راجَعَه بعضُ المسلمين[٢] في دِيَة الجَنِين بقوله: «كيف نَدِي[٣] من لا شرب ولا أكل، ولا نطق ولا اسْتَهَلَّ، فَمِثْلُ ذلك بَطَل[٤]»، قال له على وجه التوبيخ: **(أَسَجْعًا كَسَجْعِ الكُهَّان؟)**[٥]، فعاب منه الأسلوبَ، وإن كان كلامُه عربيًّا بليغًا. وقد جادل عتبةُ بن ربيعة[٦] قريشًا حين أجمعوا على أن يعتذروا لوفود العرب عامَ

= المنشئُ سبيلَ حَلِّ النظم ـ كما سيأتي ـ ويسبك معانيه في أثناء الكتابة، ومع الدُّرْبة يُقَامُ أَوَدُها، ويُقَاد صعبُها.

(١) دلائل الإعجاز (٨١). **وينظر**: عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده (٥١ ـ ٩٠).

(٢) **هو**: حَمَل بن النابغة الهُذَلي كما في رواية مسلم (٤٤٨٥) وهو زوج المرأة المقتولة. وحملها الحافظ ابن حجر في الفتح (١٢/ ٢٤٩) على تعدُّد القائلين وهم أبوها وأخوها وزوجها، جمعًا بين الروايات.

(٣) الأصل: نودي. والصواب ما أثبت من وَدَى يَدِي دِيَةً.

(٤) روي في الصحيحين **بوجهين**: **أحدهما**: بَطَل ـ بالباء الموحدة ـ. **وثانيهما**: يُطَلُّ ـ بالياء المثناة ـ. قال القرطبي: «والمعنيان يرجعان إلى شيء واحد؛ **أي**: هذا لا ينبغي أن يكون فيه شيء». المفهم (٥/ ٦٤).

(٥) لم أجد هذه اللفظة في شيء من كتب السُّنَّة، وقد ذكرها أبو هلال في الصناعتين (٢٦١)، وابن الأثير في المثل السائر (١/ ٣١٠). وأصل الخبر في الصحيحين بلفظ: **(إنما هذا من إخوان الكُهَّان، من أَجْل سَجْعِه الذي سجع)**. البخاري (٥٤٢٦)، ومسلم (٤٤٨٥). وإنما أنكره ﷺ لما فيه من التكلُّف، مع مدافعته حُكْمَ الشرع، وما عدا ذلك فليس بمذموم، بل هو حَسَنٌ، كيف وقد ورد في الكتاب والسُّنَّة.

(٦) الصواب: الوليد بن المغيرة.

ظهورِ دعوةِ النبي ﷺ إلى الله بالقرآن بأن يقولوا: هو شِعْرٌ، أو كَهانةٌ، أو سِحْرٌ. فقال لهم: «والله ما هو بِزَمْزَمَةِ[١] الكاهن، ولقد عرفت الشِّعْرَ ورَجَزَهُ وقَصِيدَهُ فما هو بشيءٍ من ذلك، وما هو بكلامِ بَشَرٍ»[٢]. فَفَرَّقَ بين القرآن وبين غيره باختلاف الأسلوب.

ومن الغَلَط أن يَقتصِرَ متعلِّم الإنشاء على أسلوبٍ واحدٍ يعكُف عليه، مثل أن يَقتصِر على أسلوب «مقامات الحريري»[٣]، أو «رسائل ابن الخطيب»[٤] أو غيرهما، فلا يَرتَسِمُ في ذِهْنِه إلا ذلك، حتى إذا أراد أن ينشئ لم يستطع أن يعدو ذلك الأسلوب، مع أنه لا يحسن في جميع مواقع الإنشاء، كما أنه لا يحسن أن يَقتصِر على نوعٍ من أنواع الإنشاء الأدبي كالرسائل فقط، **فإنَّ للإنشاء أنواعًا كثيرة:**

فمن أنواعه: المُرَاسَلَة، والخطابة، والمُحَادَثة، والتَّصْنِيف،

---

(١) **الزَّمْزَمَة**: الكلام الذي لا يُفهَم.

(٢) رواه ابن إسحاق في السيرة (١٥٠) عن شيخه محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت، عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما. وإسناده صحيح، لكن شيخ ابن إسحاق قال عنه الذهبي: «لا يعرف». وقال ابن حجر: «مجهول». ميزان الاعتدال (٥/ ١٥١)، التقريب (٢٠٥). وذكره البخاري في التاريخ الكبير (١/ ٢٢٥)، ولم يذكر فيه جرحًا. وذكره ابن حبان في الثقات (٧/ ٣٩٢). قال الشيخ أحمد شاكر: «وكفى بذلك معرفةً وتوثيقًا». حواشي الطبري (١/ ٢١٩).

(٣) قال البغدادي: «اشتملت ـ **أي**: مقامات الحريري ـ على كثيرٍ من كلام العرب من لغاتها وأمثالها، ورموز أسرار كلامها، ومن عرفها حق معرفتها، استدلَّ بها على فضله، وكثرة اطلاعه، وغزارة مادته». خزانة الأدب (٣/ ١١٧).

(٤) **هو**: محمد بن عبد الله بن سعيد الغرناطي الأندلسي، الشهير بلسان الدين ابن الخطيب: وزير، مؤرخ، أديب، كان يلقب بذي الوزارتين: القلم والسيف، ويقال له: (ذو العُمْرين) لاشتغاله بالتصنيف في ليله، وبتدبير المملكة في نهاره. وعلى اسمه صنف المقري كتابه العظيم: (نفح الطيب، من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب). توفي سنة ٧٧٦هـ. نفح الطيب (٥/ ٩)، الأعلام (٦/ ٢٣٥). ومن رسائله: ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب (ط) في مجلدين. خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف (ط).

والمقامات، والوَصْف. وكلُّها فنونٌ كثيرة، ويجيء الإنشاء فيها نظمًا ونثرًا، ولكلٍّ منها لهجةٌ وأسلوبٌ يُخَالِفُ ما[1] لغيرِه، فلا بد من ممارسة طرق البلغاء في هاتِه الأنواع وفنونِها ليحصل للمُمَارِس ذَوْقٌ ومَلَكةٌ يستطيع به[2] أن يَعرِف ما يجب في كلِّ مَقَام من هاتِه المقامات، بحسب العُصُور والعَوَائد[3]، فليس ما يحسن للشاعر أو الخطيب يحسن للمؤرِّخ، فلو أنَّ أبا نصرٍ العتبيَّ وَهَب محاسن إنشائه لغير كتابِ «التاريخ اليميني» لَمَا قَصُرت شهرتُه عن شهرة الحريري[4]، ولكنه غلط في الوَضْع.

قال بشر بن المعتمر: «ينبغي للمتكلِّم أن يعرفَ أقدارَ المعاني، ويُوازنَ بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعلَ لكلِّ

---

(١) (ما) هنا موصولة؛ **أي**: يخالف الذي لغيره.

(٢) **أي**: بالذوق. أو بذلك الأمر المتقدم فيشمل الذوق والملكة، على غرار قوله تعالى: ﴿لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٦٨].

(٣) لهذا نرى الكُتَّاب والشعراء من أهل العصور الإسلامية الأولى قد ابتدعوا في الإنشاء، وابتكروا المعاني، وفاقوا إنشاء العربِ الأولين بالرِّقَّة وحُسْن الصِّفات، ونرى مَنْ جاء بعدهم يكتبون كلامًا حسنًا، ولكن قلَّما وجدنا منهم من يُشبِه إنشاؤه الإنشاء العربي، وذلك لأنَّ كُتَّاب العصور الأولى لَمَّا اتسعت لديهم دائرة المكاتبات، ولم يكن أسلوبُ المُرَاسَلَة فاشيًا فيما قَبْلَ الإسلام، تَمَكَّنوا لكونهم من العرب أن يمنحوه أسلوبًا يناسبُه، ويفارق أسلوبَ الخَطَابة والمحادثة، مثل ما تراه في كتب الخلفاء الراشدين والأمويين، وترى مُخَالَفتَها لكيفية الكتب التي كانت تصدُر من النبي ﷺ. وكذلك يجب الاقتداءُ بهم، مهما حدث فنٌّ جديد، فَيَسُنُّ بُلَغَاء الكُتَّاب لذلك الفنِّ أسلوبًا يناسبه ويخالف أسلوبَ غيرِه من الفنون، مع الاحتفاظ على الخصائص العربية. وسيأتي تفصيل هذا وبيان خصائص كلِّ فنٍّ من فنون الإنشاء. (المؤلف).

(٤) **أبو نَصْر العتبي**: محمد بن عبد الجبار، أَلَّفَ «التاريخ اليميني» نسبةً إلى يمين الدين محمود بن سُبُكْتَكِين الغَزْنَوِيِّ فاتحِ بلاد الهند. (المؤلف). قال المعتني: الكتاب طبع في بولاق سنة ١٢٩٠هـ، ثم صدر سنة ٢٠٠٤م، عن دار الطليعة. وشرحه الشيخ أحمد بن علي الحنفي المنيني (ت١١٧٢هـ) في كتابه: «الفتح الوهبي على تاريخ أبي نصر العتبي»، وطبع بمصر سنة ١٢٨٦هـ.

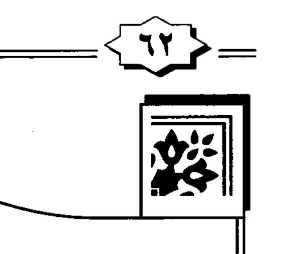
طبقةٍ من ذلك كلامًا، ولكلِّ حالةٍ من ذلك مَقَامًا، حتى يَقسِم أقدار الكلام على أقدار المعاني، وأقدارَ المعاني على أقدار المقامات، وأقدارَ المستمعين على أقدار تلك الحالات. فإن كان [الخطيبُ متكلِّمًا][1] تجنَّبَ ألفاظ المتكلِّمين (علماء الكلام)، [كما أنه إن عبَّر عن شيءٍ من صناعة الكلام][2] واصفًا أو مجيبًا أو سائلًا كان الأَوْلى به ألفاظُ المتكلِّمين»[3].



(١) ما بين المعكوفين مستدرك من البيان والتبيين. ووقع في الأصل: (فإن كان خطيبًا تجنَّب..).

(٢) ما بين المعكوفين زيادة لازمة من البيان والتبيين.

(٣) البيان والتبيين (١/ ١٣٨).



القسم الأول

المعنَوي[١]

إنما ينشئ المنشئ معاني يعبَّر عنها بألفاظ، فمادة الإنشاء هو المعنى واللفظ ظَرْفٌ له، فإذا حاول الكاتبُ حتى ابتكرَ شريفَ المعاني أطاعَتْهُ الألفاظُ وجاء إنشاؤه متينًا واضحًا ولأمرٍ مَّا تفاوت البلغاء والشعراء من العرب في الإجادة، مع أنهم ينطِقون بِلُغَةٍ واحدة، لا يتفاوتون في العلم بها وبخصائصها، وإنما تفاوتُهم في ابتكار المعاني والنَّباهة في التعبير عنها، وكذلك الأمر فيمن بعدهم من المولَّدين، فقد تجد الإمامَ في اللغة لا يستطيع إنشاء رسالةٍ ينشئُها مَنْ هو دونَه عِلْمًا، كما قيل: «إنَّ ابنَ دُرَيْدٍ[٢] شاعرُ العلماء»، مع أنَّ كثيرًا ممن هو دونه أجودُ منه شِعْرًا بكثيرٍ[٣].

قال الشيخ عبد القاهر في «دلائل الإعجاز»: «إنَّ الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظٌ مجرَّدَةٌ، ولا من حيث هي كَلِمٌ مفردةٌ، وإنما الفضيلة وخِلافُها في مُلاءَمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها، وما أشبه ذلك»[٤].

---

(١) قسَّم ابن الأثير وغيرُه كتبَهم في الإنشاء إلى قسمين: معنويٍّ، ولفظيٍّ، تَبَعًا لتقسيم علماء البديع، وهو تقسيمٌ وجيهٌ، ولذلك اتبعناهم. (المؤلف).

(٢) هو: أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد، من أجلِّ تلاميذ الأصمعي، كان نابغة في اللغة والأدب والأنساب، وبرع في الشعر، وله الجمهرة في اللغة، وديوان شعر، وله المقصورة الذائعة، وهي من أحسن شعره. توفي ببغداد سنة ٣٢١هـ. البداية والنهاية (١١/ ٢٠٠)، الأعلام (٦/ ٨٠).

(٣) كذا قال ابن الأثير في المثل السائر (١/ ٢٨٣) (المؤلف).

(٤) دلائل الإعجاز (٤٦).

فيدخل في قوله: (وما أشبه ذلك) ما ذكرناه هنا. وقد بَسَط هذا وكرَّرَه في مواضع من «دلائل الإعجاز»[١]. وقال التفتازاني في شرح قول المفتاح: (وأصل الحُسْنِ في جميع ذلك[٢] أن لا تكون المعاني توابعَ الألفاظ)[٣] ما نَصُّه: «إن المعاني إذا تُرِكت على سَجِيَّتِها طَلَبت لأنفسها ألفاظًا تليق بها، فيحسن اللفظ والمعنى جميعًا، وإذا أتي بالألفاظ متكلَّفةً وجُعِلت المعاني تابعةً لها فات الحُسْنُ لفوات ما هو المقصِد الأصلي والغَرَض الأوَّلي، بل ربما صارت جِهَةُ حُسْنِ الكلام جِهَةَ قبحٍ لكون الكلام كظاهرٍ مُمَوَّه على باطن مُشَوَّه»[٤].

فيجب على المتعلِّم الاهتمامُ أول الأمر بإيجاد المعاني، والبحث عن الحَسَن منها، ومحاولةُ التعبير عن الحوادث والصِّفَات ومظاهر المخلوقات، فإنَّ ذلك أسهلُ تناولًا، ثم يرتقي إلى التعبير عن الوجدانيَّات النفسيَّة، ثم إلى التعبير عن الحقائق الحِكْمَيَّة ونحوها. ولا ينبغي للمتعلِّم أن يجعل جُلَّ عِنَايته باقتباس آثار الكاتبين ونَقْل معانيهم؛ لأنَّ اعتماد ذلك يُصَيِّرُه غيرَ قادرٍ على مجاوزة معاني السَّالفين، نعم، يجوزُ له ذلك في ابتداء التعلُّم، إذا لم يستطع في وقتٍ من الأوقات إحضارَ معنى، أن يأخذَ رسالةً أو شِعْرًا فيحوي معانيه دون ألفاظِه، ثم يكلِّف نفسَه التعبيرَ عنه، ولا بد أن يكون ذلك مرادَ ابنِ الأثير في كتابه «الجامع الكبير» إذ قال: «يجب على المبتدئ في هذا الفنِّ أن يأخذَ رسالةً من الرَّسائل، أو قصيدةً من الشِّعْر، ويقفَ على معانيها، ويتدبَّر أوائلَها وأواخرها، ويقرِّر ذلك في قلبه، ثم يكلِّف نفسَه عمل مثلِها

(١) **ينظر**: عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده (٩٥ ـ ١١٨)، قضية اللفظ والمعنى وأثرها في تدوين البلاغة العربية (٣٦٤ ـ ٣٧٧).

(٢) **أي**: في جميع ما ذَكَره السكاكي من المحسِّنات.

(٣) مفتاح العلوم (٤٣٢). وفيه: (للألفاظ). والمؤدى واحد، واللام لام التقوية.

(٤) شرح المفتاح (ل/ ١٩٠/ب). **وينظر**: مفتاح المفتاح للشيرازي (٢/ ١٣٦١).

مما هو في معناها، ويأخذ تلك الألفاظ، ويُقيم عِوَض كلِّ لفظةٍ منها لفظةً من عنده تَسُدُّ مَسَدَّها»[١].

والنظرُ في تعيين هاته المواضيع لمدرِّس فنِّ الإنشاء.



(١) سيأتي أنَّ هذه الطريقة نافعةٌ في الارتياض والتمرُّن، وما حكي عن القاضي الفاضل هنالك. (المؤلف). قال المعتني: **ينظر**: الجامع الكبير (١٤٧). وقد كرر ابن الأثير هذا القول في المثل السائر (١٥٩ ـ ١٦٠)، وبنى عليه كتابه: «الوشي المرقوم في حل المنظوم». وانتقد الصفديُّ إكثارَ ابنِ الأثير من حل المنظوم وتضمين الأمثال. **ينظر**: نصرة الثائر (٩٠).



تعريفُ المعنى وتقسيمُه

عرَّف السيد الجُرْجَانيُّ المعنى بأنه «الصُّورة الذهنيَّةُ من حيث تُقْصَد من اللفظ فهمًا أو إفهامًا»[١]. وفوائد القيود ظاهرة.

ثم إن المعنى ينقسم إلى بسيط، ومُكَيَّف[٢]:

فالبسيط: هو الخالي عن التَّحسين، ويسمَّى (الخاطر)، سواء كان مشهورًا نحو: العلم نافعٌ، أم كان عزيزًا نحو: الصَّمْتُ حِكْمَة، والجِدَةُ عَوْنٌ على المروءة[٣].

والمكيَّف: هو الذي زِيدَ فيه تنميقٌ من خُصُوصِيَّاتِ الكلام؛ لإفادة محاسنَ للمعنى، وتقرير له؛ كالاستعارة في مثل: (**لا يُلدَغ المؤمن من جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ**)[٤]، و(الإحسان سلاح النَّصْر). وكذلك التقديُم لإفادة الحَصْر، ونحو ذلك. وقد يسمَّى بالشُّعُور ما كان دقيقًا خفيًّا، كالمعاني الشِّعْرِيَّة.



---

(١) التعريفات (٣٠٧) بتصرف.

(٢) لم أقف على هذا التقسيم.

(٣) تاريخ دمشق (٥٠/ ٢٩٢). **الجِدَة**: الغنى واليَسَار. قال ابن عاشور: «وقديمًا قال المثل العربي: نِعْمَ العَوْنُ على المروءة الجِدَة». التحرير والتنوير (١٤/ ٦٤).

(٤) رواه البخاري (٥٧٨٢)، ومسلم (٥٣١٧)، عن أبي هريرة رضي الله عنه. ونوع الاستعارة: مكنية، مرشحة بقوله: (جُحْر).





صِفَاتُ المعنَى

للمعنى ثلاث صفات لِحُسْنِه يجب توخِّيها، **وهي: الوضوح، والسَّدَاد، والشَّرَف.**

أما الوضوح: فهو سُهُولة مَأْخَذِه من قول صاحبِه، بأن يخلو عن اللَّبْس، وعن التَّعقيد المعنوي، وعن الكنايات الخَفِيَّة. وقد تَكَفَّل ببيانها علمُ البلاغة، إلا إذا كان في مَقَامٍ يُرَادُ فيه الإخفاءُ أو التَّشكيك، فيجوز من اللَّبْسِ والكناية ما هو خَفِيفٌ.

والأحسنُ أن يكون المعنى المطلوب أظهرَ من الآخر، **فمن هذا قول المتنبي في كافور:**

وَمَا طَرَبي لَمَّا رأيتُك بِدْعَةً   لقد كنتُ أرجو أن أَرَاك فَأَطْرَبُ

قال أبو الفتح ابن جني: «قرأتُ على أبي الطيِّب ديوانَه إلى أن وصلتُ إلى هذا البيت، فقلت له: يا أبا الطيب: ما زِدْتَ على أن جَعَلْتَه (أبا زَنَّة)[١] فضَحِك لقولي»[٢].

وكذلك في مقام المَزْح أو الاستخفاف، مثل ما ذُكِر عن إياس[٣] القاضي مع الذي قال له: أين القاضي؟ فقال: بينَك وبين الحَائِط.

---

(١) أبو زَنَّة: كُنْيَةُ القِرْد. ووقع في الأصل: أبا رنة. بالراء المهملة، وهو تصحيف.

(٢) الفَسْر لابن جني (٢/ ٥٨٣). ثم قال: «وهذا مذهبه في أكثر شعره؛ لأنه يطوي المديح على هجاء حذقًا منه بصنعة الشعر، وتداهيًا في القول». وللشيخ عبد الرحمٰن الرومي ـ مفتي الدولة العثمانية ـ رسالةٌ مطبوعةٌ في قَلْب كافوريَّات المتنبي من المديح إلى الهجاء.

(٣) المشهور أنَّ الخبر لشريح القاضي، مع عديٍّ بن أرطاة.

إلى أن قال له: اقضِ بَيْنَنَا. قال: قد فعلتُ. قال: على من؟ قال: على ابنِ أخت خالتك[١]. وقال النبي ﷺ للذي تأوّل الخيطَ الأبيض والأسود على حقيقتِهما: **(إنَّك لَعَريضُ القَفَا)**[٢].

ومن هذا القبيل: الإلغاز؛ لاختبار تنبُّه السامع، أو للإخفاء عن الغير[٣]، كما حُكِيَ أنَّ أعرابيًّا[٤] أوصى إلى قومه ينذرُهم عُدوَّهم ـ وكان أسيرًا بِيَدِ العدو ـ: «إنَّ العَوْسَجَ قد أَوْرَقَ، واشتكت النِّسَاء. واتركوا ناقتي الحَمْرَاء فلطَالَما رَكِبْتُمُوها، واركبوا جَمَلي الأسود، واسألوا الحارث عن خبري»[٥].

---

(١) مفتاح العلوم (١٨١). وابن أخت خالتك: الرجل نفسُه. قال السكاكي: «والعدول عن التصريح بابٌ من البلاغة يُصَار إليه كثيرًا وإن أورث تطويلًا». هذا وروى عبد الرزاق في المصنف (١٥٣٠١) عن ابن سيرين قال: «اعترف رجلٌ عند شريح بأمْرٍ ثم أنكره، فقضى عليه باعترافه، فقال: أتقضي عليَّ بغير بيِّنَة. فقال: شَهِد عليك ابنُ أخت خالتك». قال ابن حجر في الفتح (١٣/ ١٦١): «إسناده صحيح».

(٢) رواه البخاري (٤٥١٠) عن عدي بن حاتم رضي الله عنه. وقد حمله بعض الناس على الذمِّ لعديٍّ رضي الله عنه على ذلك الفَهْم، وكأنه فَهِم منه أنَّ النبي ﷺ نَسَبه إلى الجهل والجفاء وعدم الفقه. وليس الأمر كذلك؛ فإنَّ عديًّا رضي الله عنه حَمَل اللفظ على حقيقته الذي هو الأصل؛ إذ لم يتبين له دليل التجوُّز، ومن تمسَّك بهذا الطريق لم يستحق الذمّ، ولا يُنسَب إلى جهلٍ، وإنما معنى: **(إنك لعريض القفا)**: **أي**: إن الوساد الذي يغطي الليل والنهار لا يَرقُد عليه إلا قفًا عريضٌ مناسبٌ له. بتصرف من المفهم للقرطبي (٣/ ١٤٧). والمؤلف يريد بهذا مقام المزح لا الاستخفاف.

(٣) الفصيح أن تُجرَّد من الألف واللام، فهي موغلة في الإبهام، ونبه سيبويه في الكتاب (٣/ ٤٧٩) إلى أن (غير) لا تدخلها الألف واللام، وإن كان قد استعملها في كتابه (١/ ٥١). وفي حاشية الصبان (٢/ ٢٤٤): أن دخولها من كلام المولدين وهذا ما قرره المؤلف في كتابه «موجز البلاغة» (٩). **وينظر**: عبث الوليد لأبي العلاء (٣١٢).

(٤) **هو**: الأعور ناشب بن بشامة العنبري.

(٥) أراد من (العَوْسَج) الذي هو شجرٌ ذو شوك: أنَّ الناسِ أخذت السِّلاح لقتال قومِه. ومعنى (اشتكت النساء): اتخذت الشَّكَوَات لِمَخْضِ اللَّبَن. وأراد بـ(الناقة الحمراء): الأرضَ السَّهْلة. وبـ(الجَمَل): الجَبَل. (المؤلف). قال المعتني: **ينظر**: نهاية الأرب (١٥/ ٢٩٠). ويسمَّى هذا: اللَّحْن، وهو أن تريد شيئًا وتورِّي عنه، وعليه بنى ابن دريد =

قال ابن الأثير في المثل: «إنَّ الكاتب أو الشاعر ينظرُ إلى الحال الحاضِرَة، ثم يستنبِطُ لها ما يُنَاسِبُها من المعاني»[(١)].

وأما السَّدَاد: فهو الموافَقَة للواقع، والمطابقة لمقتضى الحال من غير زيادة؛ **كقول لبيد**:

ألا كلُّ شيءٍ مَا خَلا اللَّهَ بَاطِلُ ... وكلُّ نعيمٍ لا مَحَالةَ زَائِلُ[(٢)]

وقول الآخر:

إذا امتحنَ الدُّنيا لبيبٌ تكشَّفَتْ ... له عن عَدُوٍّ في ثياب صَدِيقِ[(٣)]

وقد يخرج عن ذلك إلى المبالغة إذا اقتضاها الحال، فيُقبَلُ منها ما اقتُصِدَ فيه. كما تقرَّر في البيان[(٤)].

وأما الشَّرَف: فهو أن لا يكون المعنى سخيفًا، ولا مشتملًا على فُضُول، سواء كان سابقًا للذهن أم مبتكَرًا، وكلاهما يُجتنَبُ إذا كان سخيفًا مُبتذَلًا، ومن المبتكَر السَّخيف **قولُ المعرِّي**:

فَيَا وطَنِي إن فاتَنِي بك سَابقٌ ... مِنَ الدَّهْرِ فَلْيَنْعَمْ لِسَاكنِك البَالُ

فإن أَسْتَطِعْ في الحَشْرِ آتِك زَائِرًا ... وهيهاتَ لي يومَ القيامةِ أشغالُ[(٥)]

وقوله في مرثيَّةٍ لوالد الشَّريف الرَّضي:

إن زارَه الموتى كَسَاهُمْ في البِلَى ... أَكْفَانَ أَبْلَجَ مُكْرِمِ الأضيافِ

واللَّهُ إنْ يَخْلَعْ عليهم[(٦)] **حُلَّةً ... يَبْعَثْ إليه بمثلِها أَضْعَافِ**[(٧)]

ومن غير المبتكر وهو سخيفٌ ما خَطَب به والٍ من ولاة اليَمَامة

= كتابه «الملاحن»، وجعلَه مفزَعًا للمجبَر على اليمين، المكرَه عليها؛ ليسلم من عادية الظالم، وجَنَف الغاشم. **ينظر**: ص (٩٢٢).

(١) المثل السائر (٢/ ١٨). (٢) ديوان لبيد (٢٥٦).

(٣) لأبي نواس في ديوانه (٢/ ١٩٣). وهو من أصدق ما قيل في وصف الدنيا.

(٤) **ينظر**: الإيضاح (١٥٤)، شروح التلخيص (١/ ٢٠٩)، موجز البلاغة (٤٢).

(٥) سِقْط الزَّنْد (٣/ ١٢٥٨). (٦) في الديوان: عليه. وهو أحسن.

(٧) سِقْط الزَّنْد (٣/ ١٢٨٨).

يَعِظُ الناس فقال: «إنَّ الله لا يُقَارُّ عبادَه على المعاصي، وقد أهلك الله أُمَّةً عظيمةً في نَاقةٍ ما كانت تساوي مئتي درهم». وفي رواية: «قيمتها مئتا درهم». فلقَّبوه: مُقَوِّمَ النَّاقة. وقد رأيتُ نسبة هذه الخطبة لعبيد الله بن الزبير حين كان والي المدينة، وأنَّ ذلك لَمَّا بَلَغ أخاه عبدَ الله عَزَلَه، وأَوْلَى[1] عِوَضَه مصعبًا[2].

وقد يعرِض للمعنى الشريف سَخَافَةٌ إذا وقع في غير موقعه، **كما قال أبو فِرَاس:**

ولكنَّنِي والحمدُ للَّهِ حَازِمٌ ... أَعِزُّ إذا ذَلَّتْ لَهُنَّ رِقَابُ[3]

فإنَّ ذِكْرَ حَمْدِ اللهِ على حقيقته في مقامِ غَرامٍ وفَخْرٍ لا يخلو من سَمَاجة. **فأين هو من قول الآخر:**

وقد زَعَمَتْ أَنِّي نَذَرْتُ لَهَا دَمِي ... وَمَا لِيْ بِحَمْدِ اللَّهِ لَحْمٌ ولا دَمُ[4]

حيث ورد في مقام الشِّكَايَةِ، وحَسُنَ بكونِه مستعمَلًا مجازًا على طريقة التَّمليح[5].

❁ ❁ ❁

---

(١) أولى بمعنى ولَّى. **ينظر**: القاموس (ولى).

(٢) البيان والتبيين (١/ ٢٣٦)، البداية والنهاية (٨/ ٢٦٢). **وينظر**: شرح المقدمة الأدبية لابن عاشور (١٠٩).

(٣) ديوان أبي فِرَاس (٢٧). ولا تظهر السخافة في البيت، بل الحمد واقعٌ موقعه، كما أنه ليس في القصيدة غرام.

(٤) البيت للمُؤَمَّل بن أُمَيْل المُحَاربي كما في الأغاني (٢٢/ ٢٥٣).

(٥) **التمليح**: من ملَّح، إذا أتى بما فيه ملاحة وظرافة. **ينظر**: مختصر المعاني (٣٠٧).



طرقُ أخذِ المعنَى

هي ثلاثة: **الابتكار، والبَدَاهَة، والشُّهْرَة.**

أما الابتكار: فهو استنباط المعنى بفِكْرٍ ونَظَرٍ، وهذا الاستنباط إما أن يَعرِضَ للمعنى من أَصْلِه، نحو تشبيه ابنِ نُبَاتَةَ اجتماع الفَرَح والأَسَفِ، وجَرَيان دَمْعٍ مع ابتسَام، بِوَابِلِ غَيْثٍ في وقت الضُّحَى(١).

وإما أن يكون بالأَخْذِ من الغير مع حُسْن التَّصَرُّف، **نحو قوله:**

النَّاسُ لِلْمَوْتِ كَخَيْلِ الطِّرَادْ ... فَالسَّابِقُ السَّابِقُ منها(٢) الجَوَادْ(٣)

أَخْذًا من حديث: **(إنما يُعَجِّلُ الله بخِيَارِكُم)(٤).**

أو بتركيبِ شيئين معروفين والجَمْعِ بينهما، **مثل قول مَنْ قال:**

---

(١) **وهو قوله في ديوانه (٤٢٩):**

هَنَاءٌ مَحَا ذاكَ العَزَاءَ المُقَدَّمَا ... فَمَا عَبَسَ المحزونُ حتى تَبَسَّمَا

ثُغُورُ ابتسام في ثُغُورِ مَدَامِعٍ ... شَبِيهَانِ لا يَمْتَازُ ذو السَّبْقِ منهُمَا

نَرُدُّ مَجَارِي الدَّمْعِ والبِشْرُ واضحٌ ... كوابلِ غَيْثٍ في ضُحَى الشَّمسِ قد همَى

سَقَى الغَيْثُ عنَّا تُرْبَةَ المَلِكِ الذي ... عَهِدْنَا سَجَايَاهُ أَبَرَّ وأكرَمَا

وفي هذه الأبيات من البديع: الافتنان، وهو الجمع بين فنَّين، وقد جمع الشاعر هنا في كل بيت بين فنَّين: الهناء والعزاء، فعزى في الملك المؤيد صاحب حماة، وهنأ ولده الأفضل بالسلطنة بعد أبيه.

(٢) الأصل: فيها. والمثبت من الديوان وغيره.

(٣) البيت لابن النبيه في ديوانه (٩).

(٤) لم أقف عليه. ويقرب من معناه حديث مِرْدَاس الأسلمي قال: قال النبي ﷺ: **(يذهب الصَّالحون الأول فالأول ويبقى حُفَالةٌ كحُفَالة الشَّعير أو التَّمر لا يُبَاليهم الله بالَةً).** رواه البخاري (٦٤٣٤). الأول فالأول: **أي:** الأصلح فالأصلح. الحفالة: الرديء من كل شيء. لا يباليهم الله بالة: **أي:** لا يقيم لهم وزنًا.

لا أدخـلُ الـبَـحْـر إنِّـي أخـافُ مـنـه الـمـعـاطِـبْ
طِـيـنٌ أنـا وهـو مَـاءٌ والـطِّـينُ في الـماء ذائِبْ(١)

فقد أَخَذَهُ من كَوْنِ الإنسان طينًا والبَحْرِ ماءً، وذلك واضحٌ مشهور، ولكنَّه تنبَّه إلى الجمع بينهما، وذَكَر أَثَر اجتماعِهما فأحسن الاعتذار.

ويسمَّى المعنى الحاصل بالابتكار: عزيزًا وغريبًا.

وأما البَدَاهَة: فهي أَخْذُ المعنى الواضح للعقل من وِجْدَانٍ ومشاهَدَة، ولا فضل فيه إلا لحُسْن التعبير، ونَبَاهَة المعنى في إحاطته بملاحظةِ مَا تَجِبُ ملاحظتُه. وقد يبلُغ المعنى من دِقَّةِ الوجدان ما يُلحِقُه بالمعاني المبتكَرة، وكلُّ هذا يظهر في الشِّعْر الغَرَاميّ والتَّوصِيفيّ وحكايات الأحوال، **ومثالُه قَوْلُ من اعتذر عن فِرَاره من الزَّحْف:**

ألا لا تَلُمْنِي إنْ فَرَرْتُ فإنني أخافُ على فَخَّارَتِي أن تُحَطَّمَا
فلو أنني في السُّوقِ أَبْتَاعُ مثلَها وَحَقِّكَ ما باليتُ أَنْ أتقَدَّمَا(٢)

وقول الصاحب بن عباد من رسالةٍ في وَصْفِ مُنهَزِمين: «طَارُوا وَاقِينَ بظهورِهم صدورَهم، وبأصلابِهم نُحُورَهم»(٣). فإنَّه لم يزد على حُسْن التعبير عن الحالة المشاهَدة.

وقولُ أبي نواس في وَصْف كؤوسٍ ذهبٍ بها تَصَاوِيرُ:

تُدَارُ علينا الرَّاحُ في عَسْجَدِيَّةٍ حَبَتْهَا بأنواع التَّصَاوِيرِ فَارِسُ
قَرارَتُها كِسْرى وفي جَنَبَاتِهَا مَهًا تُوَرِّتْهَا بالقِسِيِّ الفَوَارِسُ(٤)

ويسمَّى المعنى الحاصل بذلك بسيطًا؛ إذ الفضل كما قلنا للتعبير.

---

(١) البيتان لابن حمديس في نفح الطيب (٤/ ٢٧١)، وليسا في ديوانه. ونسبا إلى أبي علي ابن سينا في الكشكول (١/ ٢٣٠).
(٢) البيتان لأبي دلامة في ديوانه (٨٠).
(٣) المثل السائر (١/ ٣٢١)، الإيضاح (٥٤٨).
(٤) ديوان أبي نواس (٢/ ٨).

وأمَّا الشُّهْرَة: فهي عِبارةٌ عن شُيُوع المعنى، حتى لا يكاد يتكلَّف المتكلِّمُ في استحضاره شيئًا من عَمَل الفِكْر، ويسمَّى المعنى بـ(المبتذَل)، ويدعو البليغَ إليه إما تَعيُّنُه، وإما لِكَوْنِ المقامِ مقامَه، كخطاب العَوامِّ والصِّغَار، وينبغي أن تُجَنَّبَ عنه مقاماتُ الإبداعِ والصَّنْعَة، ولذلك نعيب على ابن الخطيب رَحِمَهُ اللَّهُ قولَه في وصَيَّتِه البديعة: «والطَّهَارةُ التي هي في تحصيلها سببٌ مُوَصِّل، وشَرْطٌ من شروطِها مُحَصِّل، فاستوفوها، والأعضاءَ نظِّفُوها، ومياهَها بغير أوصافها الحميدة فلا تَصِفُوهَا، والحُجُولَ والغُرَّ فأطيلوها. . . إلخ»[١].

فإنَّه ما كان مترقَّبًا من مثل ذلك الوزير العالِم أن يضمِّن وصيَّةَ أبنائه الغُرِّ الأنجاب، ما يتعلَّمُه الصِّبيان في أيام الكُتَّاب، خصوصًا في أضيق أوقات الكلام، وأحوجِه إلى المليء بالمَهَام.

ومن العجائب أنَّ ابن الأثير ذكر في (المثل السائر) فصلًا لنفسه من رسالةٍ قال فيها: «وأَقْبَلَتْ ربائِبُ[٢] الكِنَاس، في مُخْضَرِّ اللباس، فقيل: إنَّما اخترنَ الخُضْرَة من الألوان، ليَصِحَّ تشبيهُهُنَّ بالأغصان»[٣]. فَعَدَّ هذا معنًى مبتدَعًا وأُعْجِبَ به مع أنَّه معنًى مبتذَلٌ شائعٌ.



(١) نفح الطيب (٧/ ٣٩٨).
(٢) الأصل: رباب. والتصويب من المثل السائر.
(٣) المثل السائر (٢/ ٢٠).



ترتيبُ المعَاني وتنسيقُها وتهذيبُها

اعلم أنه لا سبيلَ إلى الاستنتاج إلا الترتيبُ، ولا يحصُل ترتيبُ المعاني إلا بتقريرها في الذِّهْن ابتداءً، ثم رَعْي التَّنَاسبِ بينها بتفكيكِها وتقسيمِها والموازنةِ بينها.

والخطيبُ أحوجُ إلى هذا من الكاتب ـ كما يأتي في الخطابة ـ لأنه يقولُ ولا يكتبُ، فلا يُعِينُه إلا الاعتمادُ على الترتيبِ الطبيعيِّ للكلام، حتى يعتاد ذهنُه ذلك، ويصير له دُرْبَةً وسَجِيَّةً، كي لا يُرتَجَ عليه إن لم يقرِّر المعاني في ذهنِه، ولئلا يلعنَ بعضُ كلامِه بعضًا إن لم يرتِّبْهَا ويقسِّمْهَا، ويشهدُ لهذا ما نُقِلَ أنَّ النبي ﷺ قال لعبد الله بن رواحة رضي الله عنه: **(كيف تقولُ الشِّعْرَ؟)** فقال: «أنظرُ ثم أقول»[(١)].

وأما التناسب بين المعاني ففيه يَبْحَثُ بابُ (الفَصْل والوَصْل) من علم البلاغة، وكذلك (المطابقة)[(٢)] المبحوث عنها في البديع، و(المزاوجة)[(٣)] أيضًا.

وأما التفكيك والتقسيم فهما متشابهان، إلا أنَّ التفكيك عبارةٌ عن استقلال كلِّ معنى بنفسه، وعدمِ تراكم المعاني المسمَّى بـ(المعاظلة)، المعدود قديمًا من عيوب الكلام. وقد مدح عمرُ رضي الله عنه زهيرًا بأنه:

---

(١) رواه الطبري في تهذيب الآثار (٩٧٧)، والطبراني في المعجم الكبير (١٨/ ٤٨٠). قال الهيثمي: «رجال الطبراني ثقاتٌ، إلا أن مدرك بن عمارة لم يدرك ابن رواحة». مجمع الزوائد (٤/ ١٢٥).

(٢) **المطابقة**: «الجمع بين المعنى وضِدِّه». كفاية الطالب (١٦١).

(٣) **المزاوجة**: «أن يُزَاوَج بين معنيين في الشرط والجزاء». الإيضاح (٤٩٧).

«لا يعاظل بين الكلامَيْن»[١]، وذلك أنَّ المتكلِّم قد يخطر بباله المعنيان فصاعدًا، فيحاول أن يمزجَهُمَا جميعًا، ويُنزِلُ السامع منزلة المطَّلِع على ضميرِه، **كما قال أبو تمام:**

سَبَقَ المشيبَ إليه حتى ابتَزَّه ... وَطَنَ النُّهَى من مَفْرِقٍ وقَذَالِ[٢]

أراد أنَّ السَّيفَ سَبَقَ المشيبَ إلى رأس القِرْنِ فافتكَّ منه الرأس، ومراده: أنه لو لم يُقتَلوا لشَابوا من هَوْل الحَرْبِ، إلا أنَّ هذا لا يدُلُّ عليه لفظُه، ولكنَّه شيءٌ قدَّرَه في نفسِه وتراكم بعضُه على بعضٍ، فعَبَّر عن الصورة التي حَصَلت في ذِهْنِه دَفْعَةً واحدة.

وأما التقسيم فهو: جمعُ طائفةٍ من المعاني في شِقٍّ من الكلام لارتباطٍ لها ببعضِها، واتفاقٍ في نَوْعٍ أو غايةٍ أو نحوِهما. وقد نُقِل عن بعض الحكماء أنه قال: «الخَطَابة: صِحَّةُ التَّقسِيم»[٣].

وأكملُه ما استوعب الأقسام كلَّها؛ كقول علي ﷺ: «الحقُّ ثقيلٌ مَرِيءٌ، والباطل خفيفٌ وبيءٌ[٤]، وأنت رجلٌ إن صُدِقْتَ سخطتَ، وإن كُذِبْتَ رَضِيتَ»[٥]؛ لأنه إذا شَذَّت بعض الأقسام عُدَّ الكلام معيبًا، كما قيل: إنَّ ابن مَنارة[٦] هَرَب أحدُ عُمَّالِه من صَارِفِه، فكتب ابن منارة إليه: «إنَّك لا تخلو في هروبك من صارفك: أن تكون قدَّمتَ إليه إساءةً خِفْتَه معها، أو خَشِيتَ في عملك خيانةً فلا بد من مطالبتك». فوقَّع العاملُ تحته: «في الأقسام ما لا يدخلُ فيما ذكرتَه، وهو أني خِفْتُ من ظلمِه

(١) المثل السائر (٤٣٣)، جمهرة أشعار العرب (١/ ١٨٨).
(٢) ديوان أبي تمام (٣/ ١٤١). يقول: هذا الصارم سبق إلى هذا الفتى الشيب، فسلبه رأسه وأم دماغه، الذي هو وطن العقل. **ينظر**: شرح مشكلات ديوان أبي تمام للمرزوقي (٢٣). هذا وما ذكره المؤلف في تفسير البيت غير ظاهر، ولا أعلم أحداً سبقه إليه.
(٣) لم أقف على من ذكره.
(٤) **وبيء**: **أي**: لا تُحمَد عاقبتُه.
(٥) المثل السائر (٣/ ١٧٣).
(٦) الأصل: ميادة. وهو تصحيف، والصواب ما أثبت. وابن منارة هو الكاتب صاحب أبي العيناء. **ينظر**: البصائر والذخائر (٦/ ٢٣١).

إيَّاي بالبعد عنك، وتكثيرِه عَلَيَّ الباطلَ عندك، فوجدتُ الهَرَبَ إلى حيث يمكنني فيه دفع ما يتخرَّصُه[١] أَنْفَى للظِّنَّةِ عَنِّي، وبُعْدِي عمَّن لا يُؤمَن ظلمُه أولى بالاحتياط لنفسي»[٢].

وأما الموازنة بين المعاني فهي: من ضروب النقد المعنوي، وإنما تعرِض بين المعنيين المتشابهين فصاعدًا، عند قصد التخيير لما يناسب منها، وكذلك تعرض[٣] بين طريقي أداء المعنى الواحد.

فمن الأول ما يعرض بين تشبيهِ وحيدِ عصرِه فضلًا وعلمًا بالمسك من بين الدِّمَاء، كما صنع أبو الطيب، أو بالذَّهَب من المعادن، كما ورد في الحديث[٤]، أو بالبَيْض من الدِّمَاء كما قيل في انتقاد بيت أبي الطيب[٥]. وطريقُ الموازنة في هذا النَّظَرُ إلى أنزه الأشياء وأقربِها لمحاسن الموصوف.

والثاني كالموازَنة بين أداء المعنى بالحقيقة أو بالمجاز، وبالتَّصْريح أو بالكناية ـ مثلًا ـ فقد ذكر الأصوليون والبيانيون مقاماتِ العدول عن الحقيقة إلى المجاز[٦]، ألا ترى أنَّ المجاز قد يَقبُح في مقام الجِدِّ

---

(١) الأصل: يتحرَّجه. والمثبت من الصناعتين، وسر الفصاحة.

(٢) الصناعتين (٣٤٣)، سر الفصاحة (٣٥٥).

(٣) الأصل: يعرض، والمناسب ما أثبت، بدليل ما تقدم من قوله: (وإنما تعرض)؛ **أي**: الموازنة.

(٤) يشير إلى حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: (**الناسُ معادنُ كمعادن الفضة والذهب، خيارُهم في الجاهلية خيارُهم في الإسلام إذا فَقُهُوا**). رواه مسلم (٦٨٧٧).

(٥) قال أبو الطيب (ديوانه ٣/ ٢٠): (فإن تفق الأنام وأنت منهم * فإنَّ المِسْكَ بعضُ دَم الغَزَالِ) فانتُقِدَت القصيدةُ بأنَّ قولَه قبلُ: (كأنك مستقيمٌ في مُحَالِ) غلطٌ، والصواب: كأنكَ مستقيمٌ في اعوجاج. فقيل: إنَّ ذلك يُفسِد عليه تشبيهَه بالمسك من دم الغزال. فأجيب بأنه يتمكن من أن يقول بأن البيض بعضُ دم الدَّجَاج. وهو كما ترى في الابتذال. (المؤلف).

(٦) **ينظر من كتب الأصول**: شرح العضد على ابن الحاجب وحواشيه (١/ ١٥٩)، البحر المحيط (٢/ ١٨٩)، تشنيف المسامع (١/ ٤٠٣)، شرح الكوكب المنير (١/ ١٥٥)، المحصول (١/ ١/ ٤٦٤). **وينظر من كتب البلاغة**: المثل السائر (٢/ ٧٧، ٩٠)، الفلك الدائر (١٨١)، نهاية الإيجاز (٥٥)، الطراز (١/ ٨٠).

والحُزْن ـ مثلًا ـ مثل ما ترى في قول بعضهم: (دمعةٌ أَمْطَرَتْهَا عيني، فَأَعْشَبَ لها قلبي)[١]؛ إذ لا تناسب بين امتلاء القلب حُزْنًا وبين اعْشِيشَابِ الأرض، بل هو بخلاف المقصود أقرب، **وكذا قول الزمخشري في رثاء شيخه أبي مُضَر**[٢]:

وقائلةٍ ما هَاتِه الدُّرَرُ التي ... تَساقَطُ مِنْ عينيك سِمْطَيْنِ سِمْطَين[٣]

فإنَّ المقامَ ليس مقامَ تشبيهِ دمع الحُزْن بالدُّرَر، وإن كان قصدُه أن يَصِلَ بذلك إلى تشبيه فوائد شيخِه، لكنه جاء بافتتاحٍ تنكرُه النَّفْسُ، **خلافَ قول الآخر**:

فأَمْطَرَتْ لُؤْلُؤًا مِنْ نَرْجِسٍ وَسَقَتْ ... وَرْدًا وَعَضَّتْ عَلَى الْعُنَّابِ بِالبَرَدِ[٤]

وعلى هذا قياسُ غيرِه.

وأما تنسيق المعاني وتهذيبها: فهو تنقيحُها عن كلِّ ما يَعْلَقُ بها مما يكون غريبًا عنها، ولا مناسبةَ له بها من خطأٍ أو صواب.

وأظهرُ مواقع الحاجة إليه مقاماتُ الاستطراد، ويسمَّى: (الاعتراض) فإن المتكلِّم أو الكاتب أو الخطيب قد تدعوه إلى الاستطراد دواعٍ كثيرة، ليلقي من المعاني التي يرى الداعي لإلقائها موجودًا، ويخشى أنْ لا يجد لها مناسبةً غير ذكرِها عند نظيرها، وذلك كاستطراد الدعاء في طوالع الرسائل، أو استطراد قِصَّة أو حادثة أو شِعْر في أثناء رسالة أو خطبة، وتلك سُنَّةٌ قديمة شائعة بين الكُتَّاب والخطباء، فيجب أن يكون ذلك الاستطرادُ شديدَ التعلق بالموضوع، إما لثناءٍ أو بيانٍ أو تحسينٍ أو إظهارِ

---

(١) الصناعتين (٢٨٠).

(٢) **هو**: محمود بن جرير الضبي الأصبهاني، أول من أدخل مذهب المعتزلة إلى خوارزم ونشره فيها. كان عالم عصره باللغة والنحو والطب. توفي بمرو سنة ٥٠٧هـ. بغية الوعاة (٢/٢٧٦)، الأعلام (٧/١٦٧).

(٣) الإيضاح (٥٦٤). **والسمطان**: مثنى سمط، وهو الخيط ما دام اللؤلؤ منظومًا فيه.

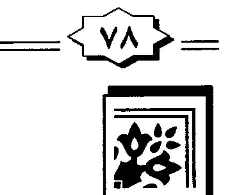
(٤) البيت للوأواء الدمشقي في ديوانه (٨٤).

إمكانِه أو تنظيرِه أو تذكيرٍ بسابقٍ أو نحو ذلك، فإن عري الاستطرادُ عن شيءٍ من العلاقات المقبولة الواضحة صار أشبه بالهَذَيان، مثل ما وقع لأبي العلاء المعري في نَثْرٍ في رسالةٍ كتب بها إلى قاضٍ شافعي: «كتابي ـ أطالَ الله بقاءَ سيدي القاضي ـ، شافي العِيِّ وخليفةِ الشافعيِّ، ما جازَ خِيارُ مجلس، ووجبَ حَجْرٌ على مُفْلِس... إلخ»[1]. فإنَّ هذا الظَّرْفَ[2] الذي استطرده لدعائه، لا مناسبة بينه وبين الموضوع، إلا أنه ذكرَ شيئًا من عَلائقِ القُضَاة فرماه جُزَافًا؛ إذ ليس ذلك بأولى من أن يقول: (ما رُدَّتْ شهادةُ زنديق، وقُبِلَ الشاهدان في التطليق).



(١) رسائل أبي العلاء المعري (٦٢).

(٢) وهو قوله: (ما جاز...).



أَخذُ النتائجِ من المعَاني

كما أن المنشئ قد يستطرد الشيء لمناسبةٍ وتعلُّقٍ بالغرض، كذلك يلزمه سَوْقُ معانٍ[١] غير مقصودة بالذات، ولكنَّ المقصود هو ما تعطيه من النتيجة، وتسمَّى حينئذٍ بـ(المقدِّمَات)، وبيان هذا يأتي عند الكلام على الخَطَابة[٢] لكثرة وقوعه فيها، وإنما تعرضنا له هاهنا؛ لأنه قد يقع في غيرها، بأن لا يُفضِي المتكلِّمُ إلى غَرَضِه من أول وَهْلَةٍ خشيةَ نفورِ النَّفْس، أو عدم اتضاح المقصود، وعندي أنَّ هذا من جملة ما يُفَرَّقُ به بين مقامات الإطناب والإيجاز.

ومنه ما يسمَّى في فن البديع بـ(حُسْنِ التعليل)[٣]، وبـ(حُسْنِ الاعتذار).

ومن الاستنتاج ما وقع في كتابٍ كتب به الجاحظ إلى محمد بن عبد الملك[٤] يستعطفُه ويطلب عفوَه عن زَلَّةٍ، قال: «أما بعد، فإن كنتُ اجترأتُ عليك فلم اجترئ إلا لأنَّ دوامَ تغافلك عني شبيهٌ بالإهمال الذي يورث الإغفال، والعفو المتتابع يُؤمِنُ مِنَ المكافأة،

---

(١) الأصل: (معاني). وما أثبت أولى؛ لأن المنقوص المجرور، تحذف ياؤه عند الجمهور.

(٢) **ينظر**: ص (١٤٢).

(٣) **حسن التعليل**: «أن يُدَّعَى لوصفٍ علةٌ مناسبةٌ له باعتبارٍ لطيفٍ غيرِ حقيقي». الإيضاح (٥١٨).

(٤) الأصل: عبيد الملك. والصواب ما أثبت. وهو المعروف بابن الزيات، وزير المعتصم والواثق العباسيين، وعالم باللغة والأدب، من بلغاء الكُتَّاب والشعراء. توفي سنة ٢٣٣هـ. وفيات الأعيان (٥/ ٩٤)، الأعلام (٦/ ٢٤٨).

فإن كنتَ لا تَهَبُ عقابي لِخِدْمَةٍ فَهَبْهُ لأياديك عندي، وإلا تفعل ذلك فَعُدْ إلى حُسْنِ العادة، وإلا فافعل ذلك لحسن الأُحْدُوثَة، وإلا فأتِ ما أنت أهلُه من العَفْو، دون ما أنا أهلُه من استحقاق العقوبة. . . إلخ»[١].

وقد تُقَدَّم النتيجة على مقدِّماتها، فَيُؤتَى بها حينئذٍ كالأدلة، وذلك إذا كان المخاطَب غير متوقَّعٍ نُفُورُه، إما لإنصافه أو لطاعته للمتكلِّم أو نحو ذلك، كما تراه في كتابٍ كتب به أبو بكر الخُوَارَزْميُّ لتلميذِه يُؤَنِّبُه على المكابَرة، وهو قوله: «بلغني أنك نَاظَرْتَ، فلمَّا تَوجَّهَتْ عليك الحُجَّةُ كَابَرْتَ، ولما وَقَعَ نِيرُ[٢] الحقِّ على عنقك ضَجِرْتَ، وكنت أحسَب أنك أعرفُ بالحقِّ مِنْ أن تَعُقَّه، وأَهْيَبُ لحجابِ العَدْلِ والإنصاف من أن تَشُقَّه، كأنك لم تعلم أن لسان الضَّجَر ناطقٌ بالعَجْز، وأن وجه الظلم مُبَرْقَعٌ بالقبح، وأنك إذا استدركتَ على نقد الصَّيَارِفَة، وتَتَبَّعْتَ غَلَط الحُكَماء والفلاسفة، فقد طَرَّقْتَ[٣] إلى عَيْبِكَ لعائبك، ونَصَرْتَ عدوَّك على صاحبك، وقد عَجِبْتُ من حُسْنِ ظَنِّك بك وأنت إنسانٌ»[٤].

فحَسُنَ في هذا المقام إفضاؤُه إلى الغَرَض، ثم إتيانُه بما مِنْ شأنِه أن يكون مقدِّمَةً بمنزلة الدَّليل كما يظهر بالتأمُّل.

❁ ❁ ❁

---

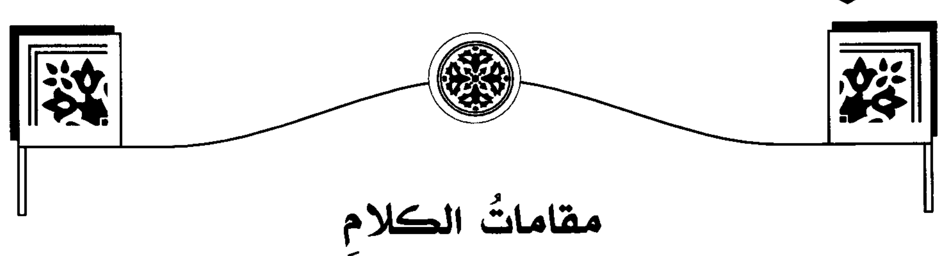
(١) زهر الآداب (١/ ٤٩٧). وهي في التربيع والتدوير (ضمن رسائل الجاحظ ٢/ ٧٥) بسياقٍ آخر.

(٢) **النِّيرُ**: خَشَبَةٌ توضع على عنق الثورين للحراثة. وقوله: (نير الحق) تشبيه بليغ، فقد أضاف المشبه به إلى المشبه، والجامع بين طرفي التشبيه لزوم كلٍّ منهما لصاحبه وتمكنه منه.

(٣) **أي**: جعلتَ طريقًا.

(٤) رسائل الخُوارَزمي (١٢).





مقاماتُ الكلامِ

قد عَرَفْتَ من علم البلاغة أنَّ مقاماتِ الكلام متفاوتةٌ، وليس هذا جلَّ غَرَضِنا هنا؛ لأننا لا نحبُّ أن ننقُلَ عِلْمًا إلى آخَر، وإنما نبحث هنا عن مقامات الكلام التي لها مزيدُ اختصاص باختلاف أساليب الإنشاء، ومِلاكُ ذلك يرجع إلى نَبَاهَة المتكلِّم في ترتيب أداء المعنى بحسب حال المخاطَب وعلاقته بالواقع، فإنَّ مسألة ضروب التراكيب المذكورةِ في البلاغة لا ينظر فيها إلا إلى حال المخاطَب، كما أنَّ أحوالَ التقديم والتأخير، والحذف، والقصر، والإيجاز، يُنظَر فيها إلى حال المخاطَب مع علاقته بالخارج، ويشبه أن يكون حالُ المخاطَب وارتباطُه بالخارج مَرْجِعَ اختلافِ مقامات الكلام كلِّها، **وذلك ينضبط فيما يظهر لنا في أربع جهات:**

ترتيب[١] المعاني المدلولة، وطرق الاحتجاج، وطرق الدلالة، وكيفية المعنى من جزالة أو رقة أو سهولة.

فأما ترتيبُ المدلولاتِ: فالأصلُ فيه أن يكون على حسب حصولِها، وتفرُّع بِعضِها عن بعض، فإن كان الكلامُ خبرًا فالنَّظَرُ إلى الحصول في الخارج، فيُحكَى على ترتيبه الطبيعي، نحو قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ۝٧٧﴾ [هود]. فإنَّ مدلولاتِ هذه الجُمَل تحصل في الخارج على نحو هذا الترتيب؛ إذ أول ما تحصل الإساءة في النفس، ثم فراغ الصبر، ثم

(١) الأصل: ترتب. وهو تحريف، لقوله بعدُ: فأما ترتيب.

التضجُّر بالقول. وإن كان إنشاءً فالنظر إلى ترتيبِه بحسب حصولِ مدلولِه عند الامتثال، وقد يتعيَّنُ هذا كما في حكاية الأخبار المحزِنة؛ فإنَّ حكايتَها على ترتيبها الطبيعي يهيئ النفس لتلقِّيها، كما يهيِّئُها لذلك حصولُها في الواقع تدريجيًّا، فإنك لو رُمْتَ الإخبار بوفاةِ مَنْ تَرُوعُ المخاطَبَ وفاتُه، لَرَأَيْتَ أنَّ حكايةَ مرضِه وأطوارِه، ثم وقوعِ اليأس من شِفَائِه، ثم الخبرِ بموته أهونُ في النفس مما لو فُوجِئَتْ بالإخبار بموته.

وقد يخالَف مقتضى الظاهر، كتقديم ما شأنُه التأخير لِغَرَضٍ، مثل تعجيل المسرَّة، أو قطع نزاع المنازِع قبل أن يلَجَّ في الخصومة فيكابرُ ولا يرجع إلى الحقِّ، أو للتنبيه على المقصود، مثل الافتتاح بدعاء مناسب، أو نحوه، ويسمَّى: (براعة الاستهلال) كقول بعض الكُتَّاب التونسيين يخاطب رئيس ديوان الإنشاء في الدولة الصَّادقية متشكِّيًا من بعض أهل الشَّوْكَة: «سيدي: نفوسُنا تَفْدِيك، والله تعالى مِنْ سُلْطَةِ أهلِ الوَظَائِفِ بدون استحقاقٍ يَقِيك»[١]. **وقول الحريري** ـ في جواب الذي جاوب أبا زيد السَّروجي حين وَقَفَ له موقفَ الزائر المُسْتَرْفِدِ ـ:

وَحُرْمَةِ الشيخِ الذي سَنَّ القِرَى وأَسَّسَ المَحْجُوجَ في أُمِّ القُرَى[٢]

يريد إبراهيمَ عليه السلام.

وقد بُيِّنَ في علم المعاني كثيرٌ من المناسبات الداعية إلى التقديم والتأخير في أجزاء الجملة، فلا نُطيل بها هنا، ولكن يجب أن يُعلَم السَّبب في تقديم ما حقُّه التأخير وعكسه من جُمَل الكلام، وقد تَتَبَّعْتُ ذلك حسب الجهد فرأيتُ أنَّ مِلاكَ ذلك إما استبقاءُ الذِّهْن لما هو أولى بالإيعاء[٣]، وتهيئة السمع لما هو أجدر بالإصغاء، وإما الاستراحة من

---

(١) لم أقف عليها.

(٢) مقامات الحريري (٣٦). وجواب القسم **قوله**:

مـا عـنـدنـا لـطـارقٍ إذا عَـرَى سوى الحديثِ والمُنَاخِ في الذَّرَى

(٣) إيعاء مصدر أوعى؛ كأوصى إيصاءً.

غَرَضٍ خفيف يُقَدَّمُ، ليُفضِي إلى غَرَضٍ مهمٍّ يؤخَّر، وإما لأنَّ أحد الغَرَضَيْنِ إن كان حقُّه التقديم أو عكسه لكنه كان من المعاني المتولِّدة أو المستطردة، واتصل بغيره مما قُدِّم أو أُخِّرَ اتصالًا يمنع من التفرقة بينها وبينه؛ لأنها إن فُرِّقَت تَشَتَّتَ الذِّهْنُ في استيعابها، وتَحَيَّر في جمعها وترتيبها.

فمثال الأول[١]: ما ذُكِر في علم المعاني من التشويق الحاصل من تقديم الخبر في نحو: **(كلمتان حبيبتان إلى الرحمٰن)**[٢]. **ونحو:**

ثلاثةٌ تُشْرِقُ الدنيا بِبَهْجَتِهَا[٣]

ومثال الثاني[٤]: قولُ علي رضي الله عنه - في خطبةٍ له حين بَلَغَه استيلاءُ أصحاب الشام على سائر البلاد، وتثاقلُ أصحابه عن القتال -: «ما هي إلا الكوفةُ أقبضُها وأبسُطُها، إن لم تكوني إلا أنتِ، تَهُبُّ أعاصيرُكِ[٥] فقبَّحَكِ الله. أُنْبِئْتُ بُسْرًا[٦] قد اطَّلَع اليمن[٧]، وإني والله لأظنُّ أنَّ هؤلاء

---

(١) **أي**: استبقاء الذهن لما هو أولى بالإيعاء والإصغاء.

(٢) رواه البخاري (٦٠٤٣)، ومسلم (٧٠٢١)، عن أبي هريرة رضي الله عنه. وهو من شواهد تقديم المسند للتشويق إلى المسند إليه، فإنه لما قال: **(كلمتان حبيبتان إلى الرحمٰن)** تشوفت النفوس وتطلعت إلى تلك الكلمتين؛ لأن في المسند ما يشعر بخطرها وعظيم أثرها، فإذا أتى المسند إليه وقع في النفس موقعًا حسنًا. وهذا التقديم شائع في أسماء الأعداد؛ كقوله ﷺ: **(سبعة يظلهم الله في ظله)**. رواه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (٢٤٢٧).

(٣) صدر بيت لمحمد بن وُهَيب، عجزه: **شمس الضحى وأبو إسحاق والقمرُ**. الأغاني (١٩/٧٣)، تحرير التحبير (١٩١). وأبو إسحاق: المعتصم.

(٤) **أي**: الاستراحة من غرض خفيف يُقدَّم، ليفضي إلى غرض مهم يُؤخَّر.

(٥) **الأعاصير**: جمع إعصار، وهي ريحٌ تمتدُّ من الأرض نحو السماء كالعمود، وهي هنا تمثيلٌ لما في الكوفة من الفتن واختلاف الآراء. (المؤلف).

(٦) **بسر هو**: ابن أبي أرطاة من بني عامر من قواد جيش معاوية رضي الله عنه، وكان بسرٌ ظالمًا قاسيًا. (المؤلف). قال المعتني: قال الدارقطني: بسر له صحبة، ولم تكن له استقامة بعد النبي ﷺ. وأنكر ابن معين أن تكون له صحبة، وقال: «كان رجل سوء». الاستيعاب لابن عبد البر (١/٤٩)، ميزان الاعتدال (١/١٤٤).

(٧) **اطَّلع اليمن**: بلغها وتمكَّن منها، وغشيها بجيشه.

القوم سَيُدَالُونَ منكم[١] باجتماعهم على باطلهم، وتفرُّقِكم عن حقِّكم، وبمعصيتِكم إمامَكم في الحقِّ، وطاعتِهم إمامَهم في الباطل، وبأدائهم الأمانةَ إلى صاحبهم وخيانتِكم، وبصلاحِهم في بلادهم وفسادِكم.. إلخ»[٢].

فتقديم قوله: (إلا الكوفة) وإن كان حقه التأخير؛ لأنه متفرِّعٌ عن حكاية ما بلغه أعداؤُه بخصالهم، وما ملكوه من البلاد، ولكنَّه قدَّمَه للتفرُّغِ منه إلى الإنحاء على جُنْدِه، وذِكْر مثالبهم وأسباب انخذالهم.

ومثال الثالث[٣]: كثيرٌ[٤]، من ذلك قوله ﷺ - في خطبة حين دخل جندُ معاوية ﷺ الأنبار وقتلوا عاملَها حَسَّان -: «أما بعد، فإنَّ الجهاد[٥] بابٌ من أبواب الجنة، فتحه الله لخاصَّة أوليائه، وهو لباس

(١) **سيدالون منكم**: ستكون لهم الدولة بَدَلَكم، بسبب اجتماع كلمتهم وتفرقكم.

(٢) نهج البلاغة (٧٢). وذكر ابن عاشور هذه الخطبة في تفسيره شاهدًا على طريق من طرق الخطابة، وهو تقديم الدليل قبل المستدل عليه لمقاصد، فقول علي: (ما هي إلا الكوفة) موقعُه موقعُ الدليل على قوله: (لأظنُّ هؤلاء القوم...). ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾﴾ [البقرة]. فقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ﴾ وقع موقع الدليل قبل المقصود المستدَلِّ عليه، وهو قوله: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾. **ينظر**: التحرير والتنوير (٢/ ٤٧٥).

(٣) **أي**: إذا كان أحد الغَرَضَيْنِ حقُّه التقديم أو عكسه لكنه كان من المعاني المتولِّدة أو المستطردة، واتصل بغيره مما قُدِّم أو أُخِّرَ اتصالًا يمنع من التفرقة بينها وبينه.

(٤) كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾﴾ [البقرة]. قال ابن عاشور: «في الآية إفضاءٌ إلى المقصود وهو الأمر بالصدقات، بعد أن قدم بين يديه مواعظ وترغيبًا وتحذيرًا. وهي طريقة بلاغية في الخَطَابة والخِطَاب، فربما قدموا المطلوب ثم جاؤوا بما يكسبه قبولًا عند السامعين، وربما قدموا ما يكسب القبول قبل المقصود كما هنا. وهذا من ارتكاب خلاف مقتضى الظاهر في ترتيب الجمل، لنكتةٍ». التحرير والتنوير (٣/ ٥٥).

(٥) هكذا وردت هذه اللفظة في طائفة من المصادر؛ كالبيان والتبيين (٢/ ٥٣)، =

التقوى، ودِرْعُ الله الحصينة، وجُنَّتُه الوثيقة، فَمَنْ تركه رغبةً عنه ألبسه الله ثوبَ الذُّلِّ وشَمِلَهُ البلاء، وَدُيِّثَ[١] بالصَّغَار، وضُرِبَ على قَلْبِه، وأُدِيلَ الحقُّ منه بتضييع الجهاد، وسِيمَ الخَسْفَ[٢]، ومُنِعَ النِّصْفَ[٣]. ألا وإني قد دعوتُكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلًا ونهارًا، وسِرًّا وإعلانًا، وقلتُ لكم: اغزُوهم قبل أن يغزوكم، فوالله ما غُزِيَ قومٌ في عُقْرِ[٤] دارهم إلا ذَلُّوا، فَتَوَاكَلْتُم حتى شُنَّتْ عليكم الغَارَات، ومُلِكَتْ عليكم الأوطان. هذا أخو غامدٍ[٥] قد وردت خيلُه الأنبار، وقَتَلَ حسَّان بن حسَّان[٦]... إلخ»[٧]. فكان الظاهرُ أن يبدأ بذكر دخول خيل[٨] أخي غامد للأنبار، ويبني عليه بيان سببه من تواكلهم وتباطئهم، وأنَّ ذلك شأنُ كلِّ مُتَواكِلٍ، لكنه أَخَّرَه حين دعت المناسبة لتقديم ذكر تواكلهم، وأنه مُسَبَّبٌ عن ذُلِّهم المسبَّبِ عن ترك الجهاد المأمور به، فكان لذلك تعلُّقٌ بطالع الخطبة.

وأما الإنشاء: فمقتضى الظاهر ترتيب المعاني على حسب حصولها كما قلنا، وقد يُعدَل عن ذلك لأغراض.

= والكامل (١/ ٣٠)، ونهج البلاغة (٧٥)، وغيرها. واستراب فيها ابن عاشور فقال في التحرير والتنوير (٣/ ٥٥): «وانظر كلمة (الجهاد) في هذه الخطبة فلعلَّ أصلها (القتال) كما يدل عليه قوله بعده: (إلى قتال هؤلاء) فحَرَّفَها قاصدٌ أو غافلٌ، ولا إخالها تصدُر عن عليٍّ رضي الله عنه».

(١) **دُيِّث** ـ بالبناء للمفعول ـ من دَيَّثَه؛ **أي**: ذَلَّلَه. (المؤلف).

(٢) **أي**: أعطي الذل والكرب. (المؤلف).

(٣) **النِّصْف** ـ بكسر النون وسكون الصاد ـ: العَدْل. (المؤلف).

(٤) **العُقْر** ـ بالضم ـ: الوسط. (المؤلف).

(٥) **أخو غامد هو**: سفيان بن عوف، من بني غامد ـ قبيلة من أَزْدِ شَنُوءَة، سُكَّان اليمن ـ بعَثَه معاوية لشَنِّ الغارات على أطراف العراق. و(الأنبار): بلدةٌ بالشاطئ الشرقي للفرات، مقابلةٌ (هيت) على الشاطئ الغربي. وهذه الخطبة الثانية ذكرها المبرِّد في كامله وعلَّقَ عليها تعليقًا. (المؤلف). قال المعتني: **ينظر**: الكامل (١/ ٣٠)، البيان والتبيين (٢/ ٥٣).

(٦) قال المبرد: حسان بن حسان: عاملُ عليٍّ. وفي نهج البلاغة زيادة لفظ: البكري. (المؤلف).

(٧) نهج البلاغة (٧٥).

(٨) الأصل: خليل. وهو تصحيف.

وأما ترتيب الخبر مع الإنشاء: فالأصل فيه تقديمُ المقدِّمات على النتائج، ولا يُعكَس إلا لغرضٍ، مثل قول عيسى بن طلحة ـ حين دَخَل على عُرْوَة بن الزُّبَير لَمَّا قُطِعَتْ رِجْلُه ـ: ما كنا نعدُّك للصِّرَاع، والحمد لله الذي أبقى لنا أَكْثَرَكَ؛ أبقى لنا سمعك وبَصَرك، ولسانك وعَقْلَك، وإحدى رِجْلَيْكَ. فقال عروة: والله ما عَزَّاني أحدٌ بمثل ما عَزَّيتني به[١].

فلو قَدَّم قوله: (الحمد لله الذي أبقى لنا أكثرك) لكان يُشبِه الشَّمَاتَةَ، أنه يحمد الله له على قَطْعِ رِجْلِه، فلا تهتدي النَّفْسُ إلى مراده إلا حين يقول له: (ما أَعْدَدْنَاكَ للصِّرَاع)؛ لأنَّ للنفوس عند الخِطَاب جَفَلاتٍ إذا هي نَفَرَتْ، فربما ضَلَّتْ عن طريق الحق.

وأما الجَزَالةُ والسُّهُولَة والرِّقَّةُ[٢]: فهي مراتب للمعاني المستفادة من الكلام:

فالجزالة شِدَّةٌ في المعنى تَقْرُبُ من حَدِّ الإرهاب، أو تبلُغُه، بحيث تُؤْذِنُ بعدم مبالاة المتكلِّم باستعطاف المخاطَب ولا بِمُلايَنَتِه، ولها مواقع: الغَضَبُ، والحَمَاسَة، والوَعْظُ، والعِتَاب، ونحوها.

وأما السُّهُولة فهي دونَها، وهي لينُ المعنى وتجريدُه من شوائب الإرهاب، واشتمالُه على إيضاحِ بَسَاطَةِ حال المتكلِّم، ومُلايَنِة المخاطَب، ولها مواقع: الأمور العادية، والعلوم، والمخاطَبات بين الأكفاء.

وأما الرِّقَّة فهي غَايَةُ إيضاحِ لَطِيفِ الوجدان من المتكلِّم، أو التلطُّفُ مع السَّامع، ولها مواقع: الشَّوْقُ، والرِّثَاء، والاعتذار، والتأديب.

وبهذا يتضح أن ليس لشيءٍ من هذه الأوصافِ مَدْخَلٌ في صفة اللفظ كما قد يُتَوَهَّم.

---

(١) البيان والتبيين (٢/ ٧٠).

(٢) **ينظر في المراد بالجَزَالة والرِّقَّة:** شرح المقدمة الأدبية (١١٤).

ومن الواجب مُؤَاخَاةُ المعنى في الغَرَضِ الواحد في الجَزَالة أو الرِّقَّة، ولهذا عيب على جميلٍ **قولُه**:

ألا أيُّها النُّوّامُ ويْحَكُمُ هُبُّوا ... أُسَائِلْكُمُ هَلْ يَقتُل الرَّجُلَ الحُبُّ؟[١]

فقد حكي عن بعض أهل الأدب والعربية أنه قال فيه: «هذا بيتٌ أولُه أعرابيٌّ في شَمْلَتِه، وآخرُه مُخَنَّثٌ مِنْ مُخَنَّثِي العقيق يَتفكَّك»[٢].

فإذا وقع الانتقالُ من غرضٍ إلى غرضٍ سَاغَ اختلافُ الوَصْف، وانظر بلاغة قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ...﴾ إلى قوله: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فهو من السهولة. ثم قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ﴾ [النور: ٢٢، ٢٣]. فهو من الجزالة.

وقد اختلف ذلك أيضًا في قول أبي فراسٍ ـ حين أَسَرَه الرُّوم، يَسْتَنْهِضُ سيفَ الدولة لفدائِه منهم، وتَخَلَّلَ من غرضٍ إلى غرضٍ، ثم رجع فأجاد في ذلك ـ:

(رِقَّة) دَعَوتُك للجَفْنِ القريح المسهَّد ... لديَّ وللنَّوْمِ الطَّرِيدِ المشرَّدِ

(جَزَالة) ومَا ذاك بُخْلًا بالحياة وإنها ... لأوَّلُ مبذولٍ لأول مجتدِي

(جَزَالة) ولكنني أختارُ موتَ بني أبي ... على سَرَوَاتِ الخيل غيرَ مُوسَّد

(رِقَّة) وتأبى وآبى أن أموتَ موسَّدًا ... بأيدي النَّصَارى موت أكبد أكمدِ[٣]

وَلْنُمَثِّل لِمَا شَمِل السُّهُولة والجَزَالة بكلامِ شيوخِ بني أسدٍ مع امرئ القيس، يسألونه العفوَ عن دمِ أبيه، فتكلَّم قبيصة بن نعيم الأسدي فقال: «إنك في المحلِّ والقَدْر من المعرفة بتصرُّف الدهر، وما تُحدِثُه أيامُه،

---

(١) ديوان جميل (٢٥).

(٢) **القائل**: صالح بن عبد القدوس كما في الأمالي لأبي علي القالي (٢/ ٢٩٨).

(٣) ديوان أبي فراس (٦٤). **القريح**: الجريح. **المسهَّد**: المحمول على الإرهاق والسهر. **مجتدي**: طالب. **سروات الخيل**: صهواتها. **أكمد**: محزون. **أكبد**: مصاب في كبده.

وتَنتَقِلُ به أحوالُه، بحيث لا تحتاجُ إلى تذكيرٍ مِنْ وَاعِظ، ولا تبصيرٍ من مجرِّب، ولك من سُؤْدَدِ مَنْصِبك، وشَرَفِ أعراقك[(١)]، وكَرَمِ أصلك في العرب مَحْتِدٌ[(٢)]، يَحتمِلُ ما حُمِّل عليه من إقالة العَثْرة، ورجوعٍ عن الهَفْوة. ولا تَتجاوزُ الهِمَمُ إلى غايةٍ إلا رَجَعَتْ إليكَ، فَوجَدَتْ عندكَ من فضيلةِ الرأي، وبصيرة الفَهْم، وكَرَم الصَّفْح مَا يَطُولُ[(٣)] رَغَبَاتِها، ويَسْتَغْرِقُ طِلْبَاتِها[(٤)]، وقد كان ما كان من الخَطْب الجليل الذي عَمَّتْ رَزِيَّتُهُ نِزَارًا واليمن، ولم تُخْصَصْ بذلك كِنْدَةُ دوننا؛ للشَّرَف البارع [الذي][(٥)] كان لحُجْر. ولو كان يُفدَى هالكٌ بالأنفس الباقية بعدَه، لَمَا بَخِلتْ كرائمُنا بها على مثله، ولكنَّه مَضَى به سبيلٌ لا يَرجِعُ أُخْرَاهُ على أُولاه، ولا يَلْحَقُ أقصاهُ أدناه. فأحمدُ الحالاتِ في ذلك أن تعرف الواجبَ عليك في إحدى خِلالٍ ثلاث:

إما أن اخترتَ من بني أسدٍ أشرفَها بيتًا، وأعلاها في بِنَاء المَكْرُمَاتِ صَوْتًا، فَقُدْنَاه إليك بِنِسْعَةٍ[(٦)] تذهبُ مع شَفَرَاتِ حُسَامِك بباقي قَصَرَتِه[(٧)]، فنقول: رَجُلٌ امتُحِنَ بهالكٍ عزيزٍ، فلم يَسْتَلَّ سَخِيمَتَه إلا بِمُكْنَتِه من الانتقام[(٨)].

---

(١) **أعراق** ـ بفتح الهمزة ـ جمع عرق، وهو أصل الشيء يريد كرم الأصول. (المؤلف).

(٢) **المحتد** ـ بفتح الميم وكسر التاء ـ: الأصل والطبع. (المؤلف).

(٣) **من الطَّوْل**: وهو الفَضْل، لا من الطُّول الذي هو ضد القِصَر.

(٤) **الطِّلْبَات** ـ بكسر الطاء ـ: جمع طِلْبَةٍ كذلك، وهي اسمُ مصدرِ طَالَبَهُ مُطَالَبَةً. (المؤلف).

(٥) ما بين المعكوفين سقط من الأصل، واستدرك من المثل السائر.

(٦) **النِّسْع** ـ بكسر النون ـ: سَيْرٌ يُنسَجُ عريضًا على هيئةِ أَعِنَّةِ النِّعَال تُشَدُّ به الرِّحَال. (المؤلف).

(٧) **القَصَرة** ـ بالتحريك ـ: أصل العنق. (المؤلف).

(٨) **السَّخِيمة**: الحقد والغضب. والظاهر أنه أراد أنَّ الرَّجُلَ لم يغضب ولم يدافع. وقوله: (إلا بمكنته) تأكيدٌ بما يشبه الضد. وعليه فالسَّخيمة والمُكْنَة مضافان للفاعل. ويصحُّ أن يكون المراد بـ(الرَّجُل) امرؤ القيس؛ **أي**: لم يذهب غيظُه إلا بتمكينِه من الانتقام، فالمُكْنَةُ مضافةٌ للمفعول. (المؤلف).

أو فِدَاءٌ بما يَرُوحُ على بني أسدٍ مِنْ نَعَمِها، فهي ألوفٌ تجاوزُ الحِسْبة[1]، فكان ذلك فداءً رَجَعَتْ به القُضُبُ[2] إلى أجفانِها، لم تَرْدُدْهَا بِسَليطِ[3] الإِحَنِ على النُّزَاء[4].

وإما وَادَعْتَنَا إلى أن تضع الحواملُ، فَتُسْدَلُ الأُزُر، وتُعْقَدُ الخُمُرُ فوق الرَّايات».

فأجابهم امرؤ القيس بقوله: «لقد علمتِ العربُ أنه لا كُفْؤَ لِحُجْرٍ في دم، وإني لن أَعْتَاضَ عنه جَمَلًا ولا ناقةً، فأكتسبَ به سُبَّةَ الأبَد، وَفَتَّ العَضُد.

وأما النَّظِرَةُ فقد أَوْجَبْتَهَا الأجِنَّةُ في بطون أمهاتها، ولن أكونَ لِعَطَبِها سببًا. وستعرفون طلائعَ كِنْدَةَ من بعد ذلك تحملُ في القلوب حَنَقًا[5]، وفوق الأَسِنَّةِ عَلَقًا. أتقيمون أم تنصرفون؟ قالوا: بل ننصرفُ بأسوأ الاختيار»[6].

وأما مثال الرِّقَّة فيوجدُ كثيرًا في النَّظْمِ والنَّثْر، وهي في النَّظْم أكثر، ومن جَيِّد ما اشتمل عليها في النثر قولُ الوزير أبي المُطَرِّفِ ابن الدَّبَّاغ الأندلسي[7] من رسالة: «طَلَعَ علينا هذا اليومُ فكاد يُمطِرُ من الغَضَارَةِ صَحْوُه[8]، ويَقْبِسُ[9] من الإنارة جَوُّه، ويُحْيِي الرَّمِيمَ اعتدالُه، ويُصْبِي

---

(١) الأصل: الخمسة. وهو تصحيف.

(٢) **القُضُب**: جمع قضيب، وهو السيف اللطيف. (المؤلف).

(٣) **سليط الإحن**: الحقود. (المؤلف).

(٤) **النُّـزَاء** - بالضم -: الوُثُوب. (المؤلف). قال المعتني: كذا في الأصل. ووقع في الأغاني (٩/ ١٢٣)، والمثل السائر: (لم يردِّدْها تسليطُ الإحنِ على البُرَآء).

(٥) **الحَنَق**: الغضب الشديد. (المؤلف).

(٦) المثل السائر (١/ ٢٧٨).

(٧) **تنظر ترجمته في**: الذخيرة (٥/ ٢٥١)، المغرب (٢/ ٤٤٠).

(٨) **مأخوذٌ من قول أبي تمام** (ديوانه ٢/ ١٩٢):

مطرٌ يذوب الصَّحْو منه وبعدَه ... صحوٌ يكاد من الغَضَارةِ يُمطِرُ

(٩) كذا في الأصل. وفي الذخيرة: ويعشى. وهو الأقرب.

الحليمَ جمالُه، فَلَفَتْنَا زَهْرَتُه، وضَمَّتْنَا بَهْجَتُهُ ونَضْرَتُه، في روضةٍ أرضعَتْها السماءُ شآبيبها[١]، ونثرت عليها كواكبَها، ووفَد عليها النُّعْمَان بشقيقِه، واحتلَّ فيها الهندُ بخَلوقه، وبكَّر إليها بَابِلٌ برحيقِه، فالجمالُ يُثني بحُسْنِه طَرْفَه، والنَّسِيمُ يَهُزُّ لأنفاسِه عِطْفَه، وتَمَنَّيْنَا أن يَتَبَلَّجَ صبحُك من خلال فُرُوجِه، وتحلَّ شمسُك في منازل بروجِه، فيطلُعَ علينا الأنسُ بطلوعك، وتُهديه بوقوعك، ولن نَعْدَمَ نُورًا يحكي شمائلَك طيبًا وبهجة، وراحًا تَخَالُها خِلالَك صفاءً ورِقَّة، وألحانًا تثيرُ أشجان الصَّبِّ، وتبعثُ أطرابَ القلب، ونَدَامَى[٢] ترتاحُ إليهم الشَّمول، وتتعطَّر بأرجهم القَبُول[٣]، ويحسد الصُّبحُ عليهم الأصيلَ، ويقصُرُ بمجالستِهم الليلُ الطويلُ»[٤].

ثم إنَّ للكلام مقاماتٍ متنوعة: منها مقام تحقيق، ومنها مقام مسامحة، ففي الأول يُؤتَى بالبرهان، والحِكْمة، والجِدِّ. وفي الثاني يُؤتَى بالخَطَابة، والشِّعْر، والتَّمْليح، والمَزْح.

ومن المقامات: مقام تبيينٍ، ومقام تنميق، ففي الأول: الحقيقة، والتَّصْريح، واللفظ المتعارف. وفي الثاني: المجازُ، والكناية، والتعريض، والتَّمليح، والتَّوجيه، والإبهام، والخصوصيُّ من الألفاظ.

وباعتبارٍ آخر إلى مقام اقتصادٍ، ومقام إفراط، ففي الأول: حكاية الواقع. وفي الثاني: المبالغة وفروعُها.

وباعتبارٍ آخر إلى مقام إطنابٍ، ومقام إيجازٍ؛ لضيق المجال، أو المبادرة خشيةَ الفَوَات، فإنَّ التطويلَ قد يُشَتِّتُ الذِّهْنَ؛ كقول أبي العاص الثقفي لقومه ثقيف ـ حينما هَمُّوا بالارتداد مع من ارتدَّ من العرب ـ:

---

(١) **الشآبيب**: جمع شُؤْبُوبٍ، وهي الدفعة من المطر.

(٢) الأصل: وندى من. وهو تحريف، والتصويب من الذخيرة.

(٣) **الشمول**: ريح الشَّمال، والخمر، والمراد هنا الثاني. **والقبول**: ريح الصَّبَا. فبين (الشمول) و(القبول) إيهام التناسب.

(٤) الذخيرة لابن بسام (٥/ ٣٠٥).

«يا قومُ: كنتم آخرَ العرب إسلامًا، فلا تكونوا أولهم ارتدادًا»[1]. فصدَّهم بذلك عن هَمِّهم الذي لو سلكوه لعَسُر انسلالُهم منه. أو لِقَصْد الوعي، مثل مقام الوصاية، مثل ما كتب بديع الزمان لابن أخته: «أنت ابني ما دُمْتَ والعِلْمُ شأنُك، والمدرسةُ مكانُك، والمحبرةُ حليفُك، والدفترُ أليفُك، فإن قَصَّرْتَ ولا إخالُك، فغيري خَالُك. والسلام»[2].

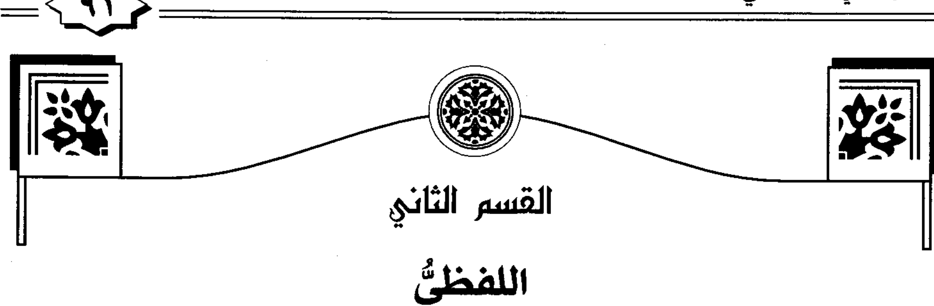
ولجميع هَاتِه المقامات خُصُوصيَّاتٌ يطول بنا بيانُها.

ـ انتهى القسم المعنوي ـ

---

(١) البيان والتبيين (٢/ ٦٧).

(٢) رسائل بديع الزمان (٥٢٣).



القسم الثاني

اللفظيُّ

إن للفظ حظًّا كبيرًا في الإنشاء، فإنَّ بحسنِه يظهرُ رَوْنَقُ الإنشاء ويترقرق ماؤُه، وإنك لترى المعنى الشريفَ إذا لم يُمنَح من الألفاظ ما يناسبُه أصبح لفظُه له قبرًا، ولم يَطْرُقْ لسامعه فكرًا، وبالعكس قد تغطِّي الألفاظُ الحسنة في حال تركيبها بَسَائِطَ المعاني ومبتذَلَها، فإنَّ الشاعر أو الكاتب أو الخطيب قد يُضطَرُّ إلى أن يَذكُر من المعاني ما ليس له كبيرُ أهميةٍ، إما لكونه على قَدْرِ إفهام مخاطَبيه، وإما لكون ذلك المعنى لا يَقبَلُ تنميقًا فيلزمُه حينئذٍ أن يكسوَ المعنى من حِلْيَةِ الألفاظ ما يُنَبِّهُ مقدارَه، ويُعلِي مَنارَه. وترى هذا في كثيرٍ من الشِّعر التوصيفيِّ كما قلنا فيما تقدم. قال الجاحظ: «إنَّ المعاني إذا كُسِيت الألفاظَ الكريمة، وأُلبِسَت الأوصافَ الرفيعةَ، تحوَّلَتْ في العيون عن مقاديرِ صُوَرِها، ولهذا قال النبي ﷺ: **(إنَّ من البيان لَسِحْرًا)**»[1].

وإلى هذا الحال من المعنى واللفظ[2] يشير قولُ قدامة[3]

---

(١) البيان والتبيين (١/ ٢٥٤). والحديث تقدم تخريجه.

(٢) **قولي**: (وإلى هذا الحال من المعنى واللفظ)؛ **يعني**: أنَّ مَنْ فَضَّلَ جانبَ اللفظ على جانب المعنى فإنما نظر إلى حال المعاني البسيطة إذا كُسِيت الألفاظ الحسنة، وإلى حال المعاني الجليلة إذا عُبِّرَ عنها بألفاظ غير حسنة. (المؤلف).

(٣) قدامة بن جعفر الكاتب البليغ، أبو الوليد البغدادي، المتوفى في أوائل المائة الرابعة، ألف كتاب (سر البلاغة) المعروف بـ(نقد الشعر). (المؤلف). قال المعتني: توفي قدامة ببغداد سنة ٣٣٧هـ، وهو مضرب المثل في البلاغة، قال الحريري في ديباجة المقامات (٦): «هذا مع اعترافي بأنَّ البديع ﷺ سباق غايات، وصاحب آيات، وأنَّ المتصدِّي بعده لإنشاء مقامة، ولو أوتي بلاغة قدامة...». والمعروف أنه يكنى =

وعبد القاهر في مواضع: «إنَّ المعاني مطروحةٌ بالطريق، يستوي في تناولها القَرَويُّ والبدويُّ، ويهديه إليها طَبْعُه وبَصَرُه، وإنما المزيَّةُ للألفاظ»[(١)]. وقول ابن رشيق القيرواني رحمه الله تعالى[(٢)]: «سمعتُ بعضَ الحُذَّاق يقول: قال العلماء: اللفظ أغلى ثمنًا؛ فإنَّ المعاني موجودةٌ في طِبَاع الناس يستوي فيها العالم والجاهل»[(٣)]. ولنضرب لك مثلًا ما ذكره أئمةُ الأدب أنَّ أبا تمام كان كثيرًا ما يأخذ معنى العامة والسُّوقة فيجيد نسجَه ويجيء غريبًا مبتدعًا، من ذلك أنه سمع سائلًا يسأل فيقول: «اجعلوا بياض عطاياكم في سواد مطالبنا». **فنظمه بقوله:**

وأَحْسَنُ من نَوْرٍ يُفتِّحُه الصَّبَا بيَاضُ العَطَايَا في سَوادِ المَطَالبِ[(٤)]

والنَّظَرُ في أحوال اللفظِ ينحصرُ في أحوال الألفاظ المفردة، وأحوال الألفاظ في حال تركيبها، والتدرُّب على كيفية التعبير[(٥)].



= بأبي الفرج لا بأبي الوليد. النجوم الزاهرة (٣/ ٢٩٧)، الأعلام (٥/ ١٩١).

(١) دلائل الإعجاز (٢٥٦). وهو مأخوذٌ عن الجاحظ في الحيوان (١/ ١٣١). ولم أجد هذا النقل عن قدامة، وأشار بعض الباحثين إلى أنَّ قدامة لم يفضِّل أحدهما على الآخر، بل يرى أنهما توأمان لا ينفصلان، ولا حياة لأحدهما دون الآخر. **ينظر:** قدامة بن جعفر والنقد الأدبي (٢٤٦)، قضية اللفظ والمعنى (٢٨١).

(٢) ابن رشيق علي القيرواني، كاتب الدولة الصنهاجية، ولد بالمهدية سنة ٢٩٠هـ، ونشأ بالقيروان، وسكن بمازر من جزيرة صقلية حين انتقل إليها بعد خراب القيروان، وتوفي بها سنة ٣٦٣هـ. له كتاب «العمدة في صناعة الأدب». (المؤلف).

(٣) العمدة لابن رشيق (١/ ٢٠٤).

(٤) ديوان أبي تمام (١/ ٢٠٥)، المثل السائر (١/ ١٢٦).

(٥) **ينظر:** المثل السائر (١/ ٢٤٥).



أَحوالُ الألفاظِ المفردةِ

وهي: الفَصَاحة والصَّرَاحة والعِزَّة والرَّشَاقة.

أما الفصاحة: فهي وصفُ الكلمة، وهي خُلوصُهَا مما يُكَدِّرُها ويثقلها في السَّمْع ويبعدها عن سلامة الذَّوْقِ العربي، وقد تكَفَّل ببيانها أئمة علم المعاني.

وأما الصَّرَاحة: فهي دلالة اللفظ على كمال المعنى المراد، بأن يتعيَّن المرادُ منه. قال الجاحظ في كتاب «البيان»: «حسن البيان هو الإبانة عما في النَّفْس بكلامٍ بليغٍ بعيدٍ عن اللَّبْس»[١]. ويحصل ذلك بأمور كثيرة:

منها: توخِّي الألفاظ الموضوعة للمقيَّدات، نحو: (الخِوَان) للمائدة قبل أن يوضَع عليها الطعام، و(الرَّسْف) لمشي الرَّجُل المُقَيَّد، و(القاني) لشديد الحُمْرَة، و(الصَّبَاحَةُ) للوجه، و(الوضَاءَةُ) للبَشَرة، و(اللَّبَاقَة) للشَّمَائل، و(الرَّشَاقَة) للقَدِّ، و(الظَّرْف) في النطق، ونحو ذلك، ولذا تجب معرفة المترادفات؛ لأنها لا تخلو عن تقييد أو إطلاق[٢].

ومنها: تجنُّب استعمال المشترَك بدون قرينة، مثل كلمة (مُسَرَّج) في **قول رؤبة بن العَجَّاج**:

وفَاحِمًا ومَرْسِنًا مُسَرَّجَا[٣]

---

(١) تحرير التحبير (٢٨٩). ولم أجده في شيء من كتب الجاحظ، ولا مَنْ نسبه إليه.

(٢) **ينظر**: الفروق في اللغة لأبي هلال (٤٢٢)، المثل السائر (١/ ٢٩١)، اللسان (رسف).

(٣) ديوانه (٢/ ٣٤).

فلم يُعرَف هل أراد أنه كالسِّرَاج أم كالسَّيْفِ السُّرَيْجِي في الدِّقْةِ والاستواء.

وقولنا: (بلا قرينة) يُخرِج نحو قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، فإنَّ عَطْف ﴿وَنَصَرُوهُ﴾ يُبَيِّن أنَّ التَّعْزِيرَ هنا هو النَّصْر لا ضَرْبُ الحَدِّ، ونحو قول الحريري: «فيدعي تارةً أنه من آل سَاسَان» حيث عُلِمَ أنه يريد ملوك الفُرْسِ لمقابلته بقوله: «يعتزي مرَّةً إلى أَقْيَالِ غَسَّان»[١] فانتفى احتمال أن يكون المراد (الشَّحَّاذين) الذين أَطْلَقَ عليهم هذا اللفظَ في موضع آخر.

وقد يدعو المَقَامُ للعدول عن الصَّرَاحة لأغراضٍ، مثل التَّوْرِيَة، والتَّوجِيه، والمُوَارَبة[٢]، ويحسن ذلك في التخلُّص من المضايق[٣]، كقول بعضهم[٤] - وقد سُئِل في مجلسِ جماعةٍ من الشِّيعَة عن الأفضل بعد رسول الله ﷺ فقال -: «الذي كانت ابنتُه تحتَه» فاحتمل أن يريد أبا بكر وعليًّا رضي الله عنهما، بحسب الترتيب في الضميرين.

تنبيه: مما يدخل تحت هذا الشرط[٥] التنبيه إلى كلماتٍ كثيرةٍ يستعملُها الكُتَّاب والمنشئون غَلَطًا، إما في معناها وإما في اشتقاقها، وقد أَلَّف في ذلك الحريريُّ: (دُرَّة الغَوَّاص)، وأَلَّف فيه بعضُهم[٦]:

---

(١) مقامات الحريري (١٤). **والأقيال**: الملوك، أو ملوك اليمن خاصَّة، جمع قَيْل.

(٢) معانيها متقاربة، فكلها تقوم على احتمال الكلام لمعنيين. **فالتورية**: أن يذكر المتكلِّمُ لفظًا مفردًا له معنيان، أحدهما قريبٌ، والآخر بعيد، وهو المراد. **والتوجيه**: إيراد الكلام محتملًا لوجهين مختلفين على السواء. **والمواربة**: أن يجعل المتكلِّم كلامَه على وجه يستطيع معه إن أُنكِرَ عليه أن يغيِّر معناه. **والمواربة في اللغة**: المخادعة والمخاتلة.

(٣) الأصل: المضائق.

(٤) **هو**: أبو الفرج ابن الجوزي كما في وفيات الأعيان (٣/ ١٤١).

(٥) **أي**: الصراحة، وهي دلالة اللفظ على كمال المعنى المراد.

(٦) **هو**: صديق حسن خان المتوفى سنة ١٣٠٧هـ. وكتابه طبع ببهوبال سنة ١٢٩١هـ.

(لَفَّ القِمَاط، فيما يُستعمَل من الأغلاط)، وقد أكثر الكُتَّاب المتأخرون من ذلك، وألف في ذلك الشيخ إبراهيم اليازجي[١] كتابًا سماه: (لُغَةَ الجَرَائد) إلا أنه قليل الفائدة، كثير الغلط في كثيرٍ مما عَدَّه غلطًا.

فعلى المنشئ أن لا يتابعَهم في استعمال لفظٍ إلا بعد تحقيقِ معناه لغةً. فمن أغلاطهم: (رَدَحٌ من الزَّمَن) يريدون حِصَّة قليلة، وإنما هو المدة الطويلة جِدًّا. وقولهم: (باهِظ) بمعنى كثير، وإنما هو الأمر المثقل[٢]. وقولهم: (تَوًّا) بمعنى الآن، أو الوقت الحاضر، وهو غلط؛ إذ التَّوُّ الذهابُ على سَوَاءٍ واستقامة، بحيث لا يُعَرِّجُ على شيء، تقول: سار تَوًّا؛ **أي**: لم يقف ولم يعرِّج. وقولهم: (نَاهَزَ) يريدون تَجَاوَزَ، وصوابه: قَارَبَ، إلى غير ذلك.

وأما العِزَّة: فهي سلامة الكلمة من الابتذال. **والابتذال يقع على وجوه**:

أحدها: نَقْلُ العامَّة الكلمةَ من معنى، واستعمالها في معنى غيرِ حَسَن، كـ(البُهْلُول) فأصله السَّيِّدُ الجامع لصفات الكمال، فأخرجه عَامَّتُنا للمغفَّل، و(الخِرِّيت) أصله البصير بالطُّرُقَات، كما روي في حديث الهجرة[٣]، فاستعملوه للجبان. وكثيرٌ من أسماء الأضداد نَشَأ من مثل هذا.

الثاني: أن تكون الكلمة من موضوعات العامة المفقودة أو المَنْسِيَّة في فصيح الكلام، مثل (الخازِ بازِ) لذباب الرِّيَاض، ومثل (اللَّقالِق) جمع لَقْلَق، وهو طائرٌ له مِنْقَارٌ طويل دقيقٌ، ورِجْلاه طويلتان[٤].

---

(١) هو: إبراهيم بن ناصيف اليازجي، عالم باللغة، من نصارى العرب، ولد ونشأ في بيروت، ثم استقر في مصر، توفي سنة ١٣٢٤هـ. الأعلام (١/ ٧٦).

(٢) الأصل: المنتقل والصواب ما أثبت.

(٣) عن عائشة ﵂ قالت: «استأجر النبي ﷺ وأبو بكر رجلًا هَادِيًا خِرِّيتًا». رواه البخاري (٣٩٠٥). والمراد بالخريت هنا عبد الله بن أريقط، كما في الطبقات لابن سعد (١/ ٢٢٩).

(٤) أشرنا إلى قول أبي الطيب (ديوانه ٢/ ١٨٣): (شُعَرَاءُ كأنها الخَازِ بَازِ) وإلى قوله =

الثالث: أن يحصل من بعضِ صِيَغ الاشتقاق ما يُوهِمُ معنًى مُسْتَبْشَعًا، مثل أن يُشْتَقَّ مِنْ (هَمَّهُ الأمرُ) وَزْنُ فَاعِلَة، فيقال: (عَرَضتْ له نَازِلَةٌ هَامَّةٌ)؛ **أي**: مُهِمَّةٌ، فيُتَوَهَّمُ أنها الهَامَّة بمعنى الدَّاهِيَة.

الرابع: أن يكون معنى الكلمةِ سخيفًا، فيجب على الكاتب إن اضطُرَّ إلى التعبير عن مدلولها أن يتنكَّبَ عنها إلى مسالك الكناية تنزيهًا للِّسان، كما جاء القرآن العظيم: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [النساء: ٤٣]، ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ [البقرة: ٢٣٥] ويُغتفَرُ استعمال المبتذل في مقام الهَزْل أو الحِكَاية أو المشاتَمة، مثل ما وقع في أوائل رسالة ابنِ زيدون المشهورة برسالة وَلَّادَة[(١)].

وأما الرَّشَاقة: فهي مناسبةُ حالِ اللفظ لمقام الكلام، فإنَّ الألفاظ منها جَزْلٌ ومنها سَهْلٌ، فالجَزْل يُستعمَل في ذكر الحروب والحَمَاسة والتوبيخ ونحوها، والسَّهْلُ في مقام الملاطَفَة والغَزَل والمديح، ومنها ما لا يوجِبُ شيئًا من الأمرين، والتحقيق أنَّ كُلَّ هذا لا يَتبَعُ وَصْفَ الألفاظ في ذاتِها؛ إذ ليس وصفُها مختلفًا، ولكنه يتبع جَلْبَ بعض الألفاظ وتركَ البعض بحسب المقام، كما حَسُنَ استعمال (سَيِّدتي) **في قول أبي العتاهية**:

ألا ما لِسيِّدتي مَالَهَا ... تُدِلُّ فَأَحْمِلُ إدْلالَهَا[(٢)]

= (ديوانه ٢/ ٣٢٥): (يصيحُ القَطَا فيها صياحَ اللَّقَالِقِ). (المؤلف). قال المعتني: (الخَازِ بَازِ) مركَّبٌ من اسم فاعل: خزى؛ **أي**: قهر وغلب، ومن اسم فاعل: بزى، إذا سما وارتفع، فَرُكِّبا وجُعِلا اسمًا واحدًا، وهو مبنيٌّ على الكسر، وفيه لغاتٌ أخرى. **ينظر**: شرح الكافية للرضي (٢/ ١/ ٣٧١). هذا وما ذكره المؤلف هنا مأخوذ عن ابن الأثير في المثل السائر (١/ ٢٩٣).

(١) وهي المعروفة بالرسالة الهزلية. وولادة هي ابنة المستكفي بالله، شاعرة أندلسية، اشتهرت بأخبارها مع الوزيرين ابن زيدون وابن عبدوس. توفيت سنة ٤٨٤هـ. سرح العيون (٢٢)، الأعلام (٨/ ١١٨).

(٢) ديوان أبي العتاهية (٦٠٩).

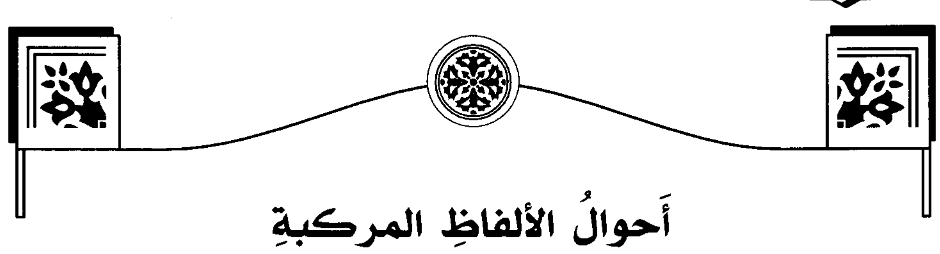
ولو جيء به في مقام آخر لَقَبُحَ. وقد عيب على جميلٍ **قولُه**:

ألا أيُّها النُّوّامُ ويْحَكُمُ هُبُّوا   أُسَائِلُكُمُ هَلْ يَقتُل الرَّجُلَ الحُبُّ؟[١]

كما تقدم في آخر القسم المعنوي.

۞ ۞ ۞

(١) ينظر: ص (٨٦).



أَحوالُ الألفاظِ المركبةِ

وللألفاظ في حال تركيبها أحوالٌ غيرُ أحوالها مُفْرَدة، وهي تُجمَع في: فصاحة الكلام، ونَزَاهَتِه، وانسِجَامِه، والاقتصادِ من الفُضُول فيه، واتِّصَال جُمَلِه، ومُنَاسَبتِه للغَرَض.

فأما فصاحة الكلام: فقد عُرِّفَتْ في علم المعاني.

وأما النَّزَاهَةُ: فهي الخُلُوُّ من الألفاظ المُستهجَنَة والشَّنيعَة، ولو باعتبار ما يَسْبِقُ الكلمة أو يَلْحَقُهَا، وقد عيب على أبي تمامٍ **قولُه:**

أعطيتَ لي دِيَةَ القتيلِ وليس لي عَقْلٌ ولا حَقٌّ هناك قديمُ[(١)]

فإنه أراد العقل بمعنى العَاقِلَة في القُرْب من القتيل، إلا أنَّ تركيبَه مع (ليس) و(لي) أعطاه صورةَ نفي العقل بمعنى الإدراك عن نفسِه، كما يقال: (ليس لِفُلانٍ عَقْلٌ)، ومنه قول صاحب (حسن التَّوَسُّل)[(٢)] في وصف مَقْدَم سَرِيَّة جيش: «أَرْوَعَ للعِدَى مِنْ سَلَّةِ سَيْف، حتى يتعجَّبُوا في الاطلاع على عوراتهم من أين دُهِي وكيف»[(٣)]. فلو أبدل كلمة (الاطلاع) بـ(الاتباع) لَسَلِمَ من الهُجْنَة الحاصلة من الجمع بين كلمتي (الاطلاع) و(العورات).

---

(١) ديوان أبي تمام (٣/ ٢٩٢). وروايته: أعطيتني. **وينظر:** المثل السائر (١/ ٢٩٩).

(٢) **هو:** شهاب الدين أبو الثناء محمود بن سلمان بن فهد الحنبلي الحلبي، أديب كبير، وشاعرٌ مكثر، استمر في دواوين الإنشاء بالشام ومصر نحو خمسين عامًا، وكان شيخ صناعة الإنشاء في عصره، يقال: لم يكن بعد القاضي الفاضل مثله. توفي سنة ٧٢٥هـ. فوات الوفيات (٤/ ٨٢)، الأعلام (٧/ ١٧٢).

(٣) حسن التوسل للحلبي (٣٣١).

وأما الانسِجَام: فهو سهولة الكلام في حال تركيبه، بحيث لا يَثْقُلُ على اللسان، ومَرجِعُ ذلك للَّفْظ، وهو أخصُّ من فصاحة الكلام، قال الجاحظ عن بعض الأدباء: «إنَّ المعنى إذا اكتسى لفظًا حَسنًا، وأعارَه البليغُ مَخْرَجًا سَهْلًا، صار في القلب أحلى، وللسمع أَمْلا»(١). ويندرج تحت الانسجام سلامةُ الكلام من التكلُّف والتصنُّع، بحيث لا تَعرِف منه كدَّ الذهن، ولا تلفيق المعاني لأجل الألفاظ، ولا البحث عن الألفاظ المستغرَبة، وكذا الإكثار من المحسِّنات البديعية المتكلَّفة، التي يُعبَّر عنها بالصَّنْعة، وإن وقع شيءٌ منها فإنما يقع بدون تكلُّفٍ، أو بخفيف من التكلُّف عندما تجود به فرصة المَقَام، ويُسمَّى الكلام المستكثِر منها: مصنوعًا، وغير المتكلف لها: مطبوعًا، قال صاحب التلخيص: «وأصل الحُسْن في جميع ذلك أن تكون الألفاظُ توابعَ [للمعاني]»(٢).

وممن عيب عليه التكلُّف في ذلك إبراهيم بن هلال الصَّابئ(٣)، كاتب بني بُوَيْه، وعبدُ الله بن المعتزِّ(٤). وفَنُّ الشِّعْر أشدُّ تحمُّلًا للصَّنْعَةِ من النثر.

وأما الاقتصاد: فهو بطرح الفُضُول في اللفظ، وحذفِ المكرَّر من القول، والاستغناء عن كثرة المؤكِّدَات، وإن كان لهذا شيءٌ من التعلُّقِ بالمعاني، إلا أننا أدرجناهُ في عِدَاد صفات اللفظ، لَمَّا كان المعنى فيه

---

(١) البيان والتبيين (١/ ٢٥٤).

(٢) التلخيص (٤٨٢). وما بين المعكوفين سقط من الأصل، واستدرك من التلخيص.

(٣) **هو**: أبو إسحاق إبراهيم بن هلال الصابئ، صاحب الرسائل المشهورة، والنظم البديع، كان كاتب الإنشاء عن الخليفة ببغداد وعن عز الدولة الديلمي، وكان متشددًا في دينه، جهد عليه عز الدولة أن يسلم فلم يفعل، وكان يصوم شهر رمضان مع المسلمين، ويحفظ القرآن، ويستعمله في رسائله. توفي ببغداد سنة ٣٨٤هـ، ورثاه الشريف الرضي بقصيدة مشهورة، وعاتبه الناس في ذلك لكونه شريفًا يرثي صابئًا، فقال: إنما رثيتُ فضلَه. وفيات الأعيان (١/ ٥٢)، الأعلام (١/ ٧٨).

(٤) **ينظر**: مقدمة ابن خلدون (١٣١٠).

غيرَ معتبَر، وإنما الداعي إليه الإكثارُ من الألفاظ أو التهويل بها، مثل قولهم: (من غير شَكٍّ ولا رَيْب)، وقول بعض مَنْ وَصَف العَفْو: (لا سِيَّما إذا عَظُم الجُرْمُ، وكَبُرَ الإثم، والملوك إنما تُؤْثَرُ عندهم الخِلالُ الحميدة، والخصال الشريفة السعيدة). ومثل زيادة حروفٍ لا حاجة إليها، كقول بعضهم: (مِنَ المعلوم وأنَّه كذا)، وقول بعضهم: (قَبِلَ بكذا)، فكلٌّ من (الواو) و(الباء) مَزِيدَةٌ عَبثًا.

۞ تمرين:

كتب أبو إسحاق الصابئ في طالعة بعض مكاتيبه: «الحمد لله الذي لا تدركه الأعينُ بألحاظِها، ولا تحدُّه الألسنُ بألفاظِها، ولا تخلقُه العصور بمرورها، ولا تهرمُه الدهورُ بكُرُورِها»، ثم قال: «لم يرَ للكفر أثرًا إلا طمَسَه ومَحَاه، ولا رَسْمًا إلا أزالَه وعَفَّاه.. إلخ»[1]. فكل من الفقرتين الرابعة والسادسة عين معنى الثالثة والخامسة وكتب في بعض كتبه: «يسافرُ رأيُه وهو دَانٍ لم يَنْزَح، ويسيرُ تدبيرُه وهو ثَاوٍ لم يبرح»[2]. والفِقْرتان بمعنى واحد.

وكتب الصاحب بن عباد: «وصل كتابُك جامعًا من الفوائد أشدَّها للشكر استحقاقًا، وأتَمَّها للحَمْدِ استغراقًا، وتعرَّفْتُ من إحسان الله فيما وفَّر من سلامتِه، وهَيَّأه من كرامته، أنفسَ موهوبٍ ومطلوبٍ، وأحمدَ مرقوبٍ ومخطوب... إلخ»[3]. وفي هذا ما يقرب من إعادة المعاني.

وقد شمل قولنا: (الاقتصاد) الذي هو في اللغة الأخذ بالعَدْل، ما[4] يقابل ما وصفناه من الفُضُول، وذلك هو الإخلال بما يلزم من اللفظ لأداء المعنى، وهو عيبٌ إلا إذا كان مقصودًا لغرضٍ، كالألغاز،

---

(١) المثل السائر (١/ ٣١٩).
(٢) المثل السائر (١/ ٣٢١).
(٣) المثل السائر (١/ ٣٢٢).
(٤) (ما) الموصولة واقعة مفعولًا للفعل (شمل)؛ **أي**: شمل الاقتصاد ما يقابل الفضول.

والمحاورات العلمية المشتملة على اصطلاحاتٍ لا يَفهَمها غيرُ أهل ذلك العلم، وقد حصر الماورديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب (أدب الدين والدنيا) الأسبابَ المانعةَ من فهم الكلام لعلَّة فيه في ثلاثة، وهي: تقصير اللفظ على المعنى، وزيادة اللفظ على المعنى، والمواضعة: **أي**: الاصطلاحات[1].

وأما اتصال جمل الكلام: فهو فُسْطَاط علم الإنشاء، وحَلْبَة استباق همم المُتَضَلِّعين فيه، وقد تتبَّعتُ كلام أئمة الفن فوجدتُ غايةَ ما تبلغ إليه الضوابطُ في اتِّصال جُمَل الكلام ـ على كثرة الأسماء والألقاب المتناثرة في كتب الأدب ـ **أربعة أشياء**:

تناسبُ بعض الجُمَل مع بعض، وعدمُ انفكاك بعضِها عن بعض، والانتقال من أسلوبٍ إلى أسلوب، وحُسْنُ الابتداء، والتخلُّص، والخِتَام:

فأما تناسب بعض الجمل مع بعض: وهو المعبَّر عنه بـ(الفَصْل والوَصْل) فموضع القول فيه في علم البلاغة.

وأما ارتباط الجُمَل وعدمُ انفكاك بعضِها عن بعض: فهو أن تتصل الجُمَل، ولا يَفْصِلَ بينها إلا بشيءٍ مناسِبٍ لها، ويَعرِفَ كيف يكون الرُّجوع عما فُصِلَتْ به إلى ما فُصِلَتْ عنه؛ إذ المتكلِّم في المقامات الخَطَابية لا يَقتصِر على ما تَكلَّم لأجله، وإلا لجاء الكلامُ قصيرًا، وما طالت الخطبُ والقصائدُ، وصار الكلامُ كلُّه أمرًا أو نهيًا أو خَبَرًا، فلذلك احتِيج إلى تقديم المقدِّمات، وذِكْر العِلَل والغايات، والاستشهاد بالمناسبات، واستطراد النَّظَائر والأمثال، فقديمًا ما صُدِّر المديحُ بالنَّسِيب، والخُطْبة بالثَّناء والاعتبار، فإذا عَلِم المتكلِّم أين يضعُ أجزاء الكلام جاء كلامُه مرتبطًا[2]، وإذا لم يُحْسِن ذلك اختلط عليه، وخَرَج

---

(١) أدب الدنيا والدين (٧٨).

(٢) وأعظم الاستطرادات وأبلغها استطرادات القرآن؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦]. يريد علماء اليهود، قال ابن عاشور: «فإن الآيات =

من غَرَض إلى غَرَض، فإذا استطردَ أو قَدَّم أو ذَيَّل فليَقتصِر على قَدْر الحاجة، فإنه إن زاد عن ذلك سَمُج، كما ترى في مُستطرَدَات (حياة الحيوان)[١].

ولقد نال شيئًا من ذلك بعضَ مواضع كتاب (كليلة ودِمْنة) لابن المُقَفَّع، على مكانته من علم البلاغة إلا أنه كان كِتَابًا مترجَمًا من لغة الفُرْس، ومن وجيز مُستطرَداته قولُه: «لَمَّا قَرُبَ ذو القرنين من فُور الهندي، وبلغه ما أَعَدَّ له من الخَيْل - التي هي كقِطَع الليل، مِمَّا لم يلقه بمثلِه أحدٌ من الملوك الذين كانوا في الأقاليم - تخوَّف ذو القرنين من تقصيرٍ يقعُ به إن عَجَّلَ المبادرة.. إلخ»[٢]. فلقد أسرع الرجوع إلى الغرض. وقول الفتح[٣] في «قلائد العِقْيان»: «أنه حضر مجلس راح، ومَكنِسَ ظِبَاءٍ وأفراح، وفيهم جماعةٌ منهم الوزير أبو بكر شيخ الفُتوَّة، ومَعرِضُ فَتَيَاتِهَا المجلوَّة، ومعهم سعدُ بن المتوكِّل، وهو غلامٌ ما نَضَا عنه الشبابُ بُرْدَهُ، ولا أَذْوَى ياسمينَه ولا وَرْدَهُ، وكان الوزيرُ وأَخَوَاه

= السابقة نوهت بشأن إبراهيم عليه السلام والكعبة واستقبالها وشعائرها، وتخلل ذلك ردُّ ما صدر عن اليهود من إنكار استقبال الكعبة إلى قوله: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦]. يريد علماءهم، ثم عقب ذلك بتكملة فضائل الكعبة وشعائرها، فلما تم جميع ذلك عَطَف الكلام إلى تفصيل ما رماهم به إجمالًا في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ﴾ فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ...﴾ [البقرة: ١٥٩]. وهذه طريقةٌ في الخطابة هي إيفاءُ الغَرَض المقصود حقه، وتقصير الاستطراد والاعتراض الواقعين في أثنائه، ثم الرجوع إلى ما يهُمُّ الرجوع إليه من تفصيلِ استطرادٍ أو اعتراضٍ تَخلَّلَ الغرضَ المقصود». التحرير والتنوير (٢/ ٦٥).

(١) لأبي البقاء محمد بن موسى بن عيسى الدَّمِيري، أديب، من فقهاء الشافعية. توفي سنة ٨٠٨هـ. البدر الطالع (٧٨٩)، الأعلام (٧/ ١١٨).

(٢) كليلة ودمنة (٤).

(٣) هو: أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان القيسي، كاتب، مؤرخ، ولد ونشأ في إشبيلِيَة، وكان كثير الترحال، توفي ذبحًا بفندقٍ في مدينة مَرَّاكُش سنة ٥٢٨هـ. الأعلام (٥/ ١٣٤)، وفيات الأعيان (٤/ ٢٣). والفندق كقنفذ: واحد الفنادق، وهو مسكن ينزله المسافرون، ذكره صاحب العين (٥/ ٢٦١)، وهو فارسي. ينظر: اللسان (فندق).

مختصِّين بالفَضْلِ اختصاصَ الأنوار بالكَمَائم[١]، واللَّباتِ[٢] بالتَّمائم، فتذاكَروا فَقْدَه، وكيف شَفَى[٣] منه الزمانُ حِقْدَه، فهاج شَجْوُه، وبَانَ[٤] طَرَبُه ولَهْوُه، وأرسل مدامِعَه سِجَالا، وقال ارتجالا.. إلخ»[٥].

وكذا من الشِّعْر قول النابغة:

فما الفُرَاتُ إذا جَاشَتْ غَوارِبُه ... ترمي أَوَاذِيُّهُ العِبْرَيْنِ بالزَّبَدِ

يُـمِـدُّه كـلُّ وادٍ مُتْـرَعٍ لَـجِـبٍ ... فيه رُكَامٌ من اليَنْبُوتِ والخَضَدِ

يَظَلُّ من خوفِه المَلَّاحُ معتصمًا ... بالخَيْزُرَانَةِ بعد الأَيْنِ والنَّجَدِ

يومًا بأجودَ منه سَيْبَ نَافِلَةٍ ... ولا يَحُولُ عطاءُ اليومِ دون غَدِ[٦]

وربما طال الاستطراد لاقتضاء المقام ذلك فيناسب عند الرجوع إلى الغرض المقصود أن ينبه السامع لذلك بإعادة الكلمة التي تربط الغرض مثل كلمة (لولا) في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾﴾ [الواقعة]. إلى قوله: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ﴾ [الواقعة: ٨٦، ٨٧]؛ لأن أصل الكلام: فلولا إذا بلغت الحلقوم، ترجعونها إن كنتم صادقين في أنكم غيرُ مربوبين.

---

(١) **الأنوار**: جمع نَوْر، وهو الأبيض من الزَّهْر. **والكمائم**: جمع كِمَامَة، وهو وعاء الزَّهْرِ قبل أن يتفتح.

(٢) **اللبات**: جمع لَبَّة، وهي موضع القلادة من الصَّدْر.

(٣) **شفى**: من الشِّفَاء وهو البُرْء. **والمعنى**: أنَّ الزمان برأ من داء الحِقْد بالنيل من ذلك الوزير. ووقع في الأصل: أشفى. ولعله تحريف؛ إذ معناه: أشرف. يقال: أشفى على الموت؛ **أي**: اقترب منه.

(٤) **أي**: فَارَقَه طَرَبُه ولهوُه. من البَيْن وهو الفراق والفِصَال.

(٥) قلائد العقيان (١/ ١٤١).

(٦) ديوان النابغة (٨٧). **جاشت**: ارتفعت. **غواربه**: ما ارتفع من الأمواج. **أواذِيُّه**: أمواجُه، جمعُ آذي. **العبرين**: ضفَّتا النهر وجانباه. **الزبد**: ما يطرحه الوادي إذا جاش ماؤه. **يُمِدُّه**: يزيده. **مُترَع**: مملوء. **لجب**: ذو صوت قوي. **ركام**: المتراكب بعضه على بعض. **الينبوت**: شجر. **الخضد**: ما خُضِد وتكسَّر من أعواد الشجر فحمله ماء النهر. **الخيزرانة**: خشبة من شجر الخيزران. **الأين**: الإعياء. **النجد**: العرق من التعب. **سيب**: عطاء. **نافلة**: زيادة.

وأشدُّ مَنْ يظهر احتياجُه إلى رَعْي قواعدِ هذا الاتصال الخطباءُ؛ فإنَّ من دَأْبِهم التطرقَ إلى موضوعاتٍ كثيرةٍ، فإن هم لم يُحسِنوا ترتيبَها جاء الكلامُ نُتَفًا ينبو بعضُه عن بعض، وقد رأينا الشعراءَ لا يزيدون في انفكاك الغرض على أكثر من ثلاثة أبيات، ويتوخَّون من الصفات ونحوها ما له علاقةٌ بالغرضِ شديدةٌ وكذلك شأن الكاتب أيضًا.

وأما الانتقال من غرضٍ إلى غرضٍ ومن أسلوب إلى أسلوب: فهو زينةُ الكلام للكاتب والشاعر والخطيب، وهو أحسن تَطْرِيَةً[١] لنشاط السامع، وأكثر إيقاظًا للإصغاء إليه، ويختصُّ من اللطافة بمثل ما قرره علماء المعاني للالتفات، فقد سمَّاه السكاكي: «قِرَى الأرواح»[٢]. ولا بد فيه من مراعاة المناسبة، كما ترى في انتقالات القرآن العظيم.

وأما حُسْن الابتداء، والتَّخَلُّصُ، والخِتَامُ: فإنما خُصَّت بالبحث وإن كان جميع الكلام مشروطًا بالحسن، فذلك لأنَّ الإجادةَ فيها أعسر؛ إذ الابتداء هو أول ما يَقْرَع السمع، وأول ما يبتدئ به المتكلم، وهو مفتاح الكلام، فإن هو أتقنَه كان إتقانُه مُعِينًا على النَّسْج على منواله، كما يقال: (الحديث شُجُون)[٣]، وكذلك التخلُّص من المقدمة إلى الغرض؛ فإنه يحتاج إلى فضلِ براعةٍ في الارتباط بينهما، وكذلك الختام؛ لأنه يجب أن يكون قد استوعب ما تكلَّم لأجله، حتى لا يثني إليه عِنان الكلام مرَّةً أخرى بعد السكوت، ولا جرم أن يكون ما يتخلَّلُ بين هذه الثلاثة رشيقًا بليغًا متى سَهُلت على المتكلم الإجادة في هذه الثلاثة، وهذا هو المراد

---

(١) **تطرية**: **أي**: تجديدًا وإحداثًا، من طَرَّيتُ الثوب. **ينظر**: مختصر المعاني (١١٧).

(٢) مفتاح العلوم (١٩٩).

(٣) **معناه**: أنَّ الحديث ذو فنون وأغراض وطرق يدخل بعضُها في بعض، ويتشعَّب بعضُها من بعض؛ كالطرق المشتبكة المتقاطعة أو الأغصان والعروق، وهو مثلٌ يُضرَب في الحديث يُذكَر به حديثٌ غيره، ومن ثَمَّ يضربه القُصَّاص والأئمة عند استطراد المسائل، والخروج من غرض إلى آخر. **ينظر**: زهر الأمثال (١٥٥).

من التأنُّق الذي حَرَّض عليه أئمة البلاغة في هاته المواضع الثلاثة[1].

ولنرجع إلى الحالة السادسة من أحوال الألفاظ المركَّبة، وهي **مناسبة الكلام للغرض**: بأن يناسبه في الرِّقَّة والجَزَالة، وبأن تناسبَه كيفيَّةُ انتظامِه من سَجْعٍ وتَرَسُّل، وإيجازٍ وإطناب، وبَسَاطَةٍ وصَنْعَة، وهذا أهمُّ شيءٍ في الإنشاء ـ بعد ما تقدَّم ـ وأصعبُه.

ومن الأدباء من يقسِّم الإنشاء إلى عالٍ ووسط وسافل، فيظنُّ من لا يتأمَّل أنَّ هذا التقسيمَ يدخل في التعليم، وهو غلط؛ إذ التعليم لا يَقْصِدُ إلا الغايةَ العليا من الفنِّ الذي يُعَلَّم، وإنما المرادُ التنبيهُ على مراتب الإنشاء في الخارج والموازَنةِ بينها ليحصل من ذلك تمرينٌ على اختيار أحسنه، نعم! يكتفي معلِّمُ المبتدئين منهم بالإنشاء السَّافل، لكن لا ليبقوا في تلك المرتبة بل ليرتقوا عنها رُوَيْدًا رُوَيْدًا، ويحتذوا في كلِّ صِنْفٍ آثارَ المجيدين فيه، من كُتَّاب دولة وأدباء وموثِّقين وصحافيين وخطباء ومؤرِّخين ومؤلفين وشعراء، فتوجد في كلِّ صِنْفٍ منها مراتبُ في البَسَاطة والتأنُّق بحسب أحوال المخاطَبين من خاصَّةٍ وعامَّةٍ وأذكياء وأغبياء.

ولا شك أنَّ لأحوال المتكلِّمين أيضًا علاقةً بحالةِ إنشائِهم، فلذلك غَلَب على العرب الأندلسيين الرِّقَّةُ في الكلام، وعلى العرب في صدر الإسلام الجَزَالة، وعلى أهل الحواضر والسَّبْق في المدنِيَّة مُخْتَرَعُ المعاني، وبعكسهم أهل البوادي، وقد قال بعض الأدباء لما قيل له: ما يمنعك أن تقول مثل قول ابن المعتز في تشبيه الهلال:

فانظرْ إليه كزَوْرَقٍ مِنْ فِضَّةٍ ... قد أثْقَلَتْهُ حَمُولَةٌ مِنْ عَنْبَرِ[2]

فقال: «كلٌّ يقولُ بما يرى في بيته»[3].

ولا بأس أن نمثِّل هنا لشيءٍ من أغراض الكلام وما يناسبُها

---

(١) ينظر: الإيضاح (٥٩١).
(٢) ديوان ابن المعتز (٢/ ٤٨٣).
(٣) العمدة لابن رشيق (٢/ ٩٨٦). والقائل: ابن الرومي.

من أحوال الألفاظ المركبة، وإن كان ذلك لا ينحصِر، ولكن لتحصيل أُنْمُوذَج منه للمتعلِّم، وعلى المدرِّس أن يأتي لكلِّ صِنْفٍ منها بمثالٍ من المُنْشَآت، ليحترز عن[١] الغلط في وضع بعض هاته الفنون في غير ما يليق به من الأغراض، فإنَّ مَنْ عَكَف على بعض هاته الفنون، وارتَسَم حَدُّهُ[٢] في ذهنه لم يكد يعدُوه إلى غيره، فربما وَضَعَه في غير ما يحسُن وضعُه فيه، مع أنَّ الواجب الأخذُ من كلِّ فَنٍّ والاطلاعُ على جميعها، **وبيان ذلك:**

أنَّ الرِّقَّة والصَّنْعَة: تُسْتَحْسَنان في الأغراض الهَزَلِيَّة، والتَّهَاني، والمقامات، والمواعظ الترغيبيَّة، ومخاطَبات الأصدقاء في المودَّة ونحوها. **والجَزَالة وما يقرُب منها**: تُستحسَن في المراثي، والتَّرْهِيبات، والحروب، والمخاطَبات مِن العظماء، والأدعية، والتآليف العِلْمية. **والسَّجْع**: يحسُن وَقْعُه في المقامات، والتَّهَاني، والوِدَادِيَّات، والغَرَاميَّات، لِقُرْبِه من الشِّعْر وديباجات التآليف، ومقدمات التَّحْلية في المخاطَبات والأمثال والحِكَم؛ لأنَّ المراد تعلُّقها بالحِفْظ، والسَّجْعُ يُعين على ذلك مثل النظم. **والتَّرَسُّل**: يحسُن في الأدعية، والخُطَب، والمواعظ، والعِلْميات، والتاريخ، والتَّراجِم، ومخاطَبات العموم، والمراسلات الدَّوْلية، والصُّكوك والشروط ونحوها. ومتى وُضِع فَنٌّ من فنون أحوال الألفاظ المركَّبة في غير موضعِه المناسب جاء سَمِجًا، كما ترى مِنْ سَمَاجة خُطَب الخطباء المنتحَلَة مِنْ خطب الشيخ ابن نُبَاتة ونحوه، مع أنَّ المخاطَب بها العمومُ الذين لا يَتَفَطَّنون لِمَا أَكَدَّ الخطيبُ فيه ذِهْنَه، وكما ترى مِنْ ثِقَل (التاريخ اليميني) للكاتب أبي نصر العتبي، فإنه أودعه من السَّجْع ومحاسن الصَّنْعَة ما كان بعيدًا عن أن يُودَع في تاريخ الحوادث، وكذلك كتب التراجم، مثل: الرَّيْحَانة للخَفَاجي، التي

---

(١) الأصل: على. وهو تصحيف.
(٢) الأصل: وحده. وهو تصحيف.

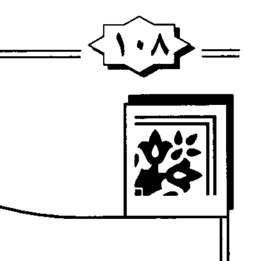
ظَنَّ أصحابُها أنهم يتبعون فيها الفتح ابن خاقان الأندلسي صاحب (قلائد العِقْيَان)[١] مع الغفلة عن الفَرْق بينهم وبينه، فإنَّ المُهِمَّ من غَرَضِه هو ذكرُ مُلَحِ المترجَم لهم في البلاغة والرِّقَّة، ووَصْفُ مجالسِ أنسِهم، فكان له العُذْر فيما التزمه من السَّجْع والصَّنْعَة، على أنهم لو كانوا أجادوا جَوْدَتَه لكان في الأمر بعضُ السُّلُوِّ، ولكنهم أهملوا هذا وأهملوا الترجمة، فلا تأخذ منهم إلا تَحْلياتٍ الله أعلم بمطابقتِها للواقع، وتكاد أن ترى المترجَم لهم متماثلين فيها. وإنك لتنظر إلى مُنْشآت ابن الخطيب[٢] رَحِمَهُ اللهُ فتراها على عُلُوِّ كَعْبِها قد اشتملت على شيءٍ من السَّمَاجة الحاصِلة من الإطناب والإسهاب في كلِّ غرض، وكذلك تجد مثلَ ذلك في التقاليد التي أنشأها الكاتبُ الحسين بن أبي نماء كاتب الخليفة النَّاصر العباسي في أواخر القرن السادس (٥٧٥ ـ ٦٢٢هـ) فلا يكاد يَصِل المطالع إلى المقصود من التقليد إلا وقد أَسْأَمَه النَّظَر، وخَسِئَ منه البَصَر[٣].



(١) في محاسن الأعيان. **والعِقْيان**: الذهب الخالص. وانظر ما فعله لما أراد تأليف هذا الكتاب في معجم الأدباء (٥/ ٢١٦٤)، وفيه أنه «مَنْ أرضَتْه صِلَتُه أحسنَ في كتابه وَصْفَه ونعته، وكل من تغافل عن بِرِّه هجاه وثَلَبه». والكتاب حققه ابنُ عاشور وشَرَحه.

(٢) **هو**: لسان الدين ابن الخطيب. وسبقت ترجمته.

(٣) الحسين بن علي بن أبي نماء، توفي بعد الستمائة، وله تقاليد خطط، وكتائب نثرية مسجوعةٌ جمَعها في ديوانٍ له سماه: «روض البلاغة وغدرها»، وجمعها أيضًا بعض معاصريه في ديوان. (المؤلف).



السَّجْعُ والتَّـرَسُّلُ

لما جرى الكلام على السَّجْع والتَّرَسُّل، وكان السَّجْعُ من أشهر طرق الإنشاء، حتى ظنَّه كثيرٌ من الناس الإنشاءَ كلَّه، وجب أن نُشير إلى حقيقته، وشيءٍ من أقسامه ومحامده ومعايبه، والمفاضلة بينه وبين التَّرَسُّل، قال ابن الأثير في «المثل السائر»: «السَّجْعُ: تواطؤ الفواصل في الكلام المنثور على حَرْفٍ واحد، والأصلُ فيه الاعتدال في مقاطع الكلام، ولكن لا يكمُل السَّجْع إلا إذا كانت ألفاظُه غيرَ غَثَّةٍ ولا باردة، والمعنيُّ بـ(الغَثَّة الباردة) أنَّ صاحبَها يصرِف نظرَه إلى السَّجْع من غيرِ نظرٍ إلى المفردات وما يُشترَط لها[1]، وإلا لكان كلُّ أديبٍ سَجَّاعًا، بل هناك مطلوبٌ آخر وهو أن يكون اللفظُ فيه تابعًا للمعنى، فإنك إذا صَوَّرْتَ في نفسك معنى، ثم أردت أن تَصُوغَه بلفظٍ مسجوعٍ ولم يُوَاتِكَ إلا بزيادة في اللفظ أو نقصانٍ منه، فإذا فعلتَ ذلك فهو الذي يُذَمُّ من السَّجْع، لِمَا فيه من التكلُّف، وأما إذا كان محمولًا على الطَّبْع غير متكلَّف فإنه يجيءُ في غاية الحُسْن»[2].

وأحسنُه ما تساوت فواصِلُه أو تقاربت في طُولٍ لا يَقْطَعُ النَّفَس، ولا يقصر عن أربع كلمات، أو يقاربها كثلاثٍ طِوال، ويُغتفَر أن تكون الفاصلةُ الثانية أطولَ من الأولى، والقبيحُ ما طالت فاصلتُه الأولى وقَصُرت الثانية، والمتوسِّط ما تقَاصَرَتْ فواصلُه جِدًّا، وإن كان مُحتاجًا

(١) في المثل السائر: «وما يشترط لها من الحسن».
(٢) المثل السائر (١/٣٠٨، ٣١٢، ٣١٣). بتصرف من المؤلف.

إلى قوةٍ في اللغة، وقد أكثر منه بديع الزمان الهمذاني.

وإذا[١] لم يلتزم الكاتبُ السَّجْعَ، وكان كلامُه تَرَسُّلًا، حَسُنَ أن يأتيَ في أثنائه بهاته الكيفيَّات كلِّها بلا قيد. وأقسامُه وتفاريعها كثيرةٌ تَكَفَّلَتْ ببيانها كتب البديع، وهو يدلُّ على مقدرةِ الكاتب إذا جاء في غاية الحُسْن غير متكلِّف؛ لأنه يُؤْذِن بسَعَة صاحبه في استحضار ما يريد من المفردات اللغوية، وبجودة قريحتِه في تطبيق المعاني على الأسجاع، ولكنه لا يحسُن إلا في مواقعه من الرَّسَائل، والدِّيبَاجات، والأشياء المقروءَة، والأمثال، والحِكَم التي يُرَاد تناقلُها وتعلُّقها بالأذهان، ولذلك يحسُن في بعضِ الجُمَل من الخُطَب، وهو ما كان مَوْضِعَ حكمةٍ أو موعظة، وليس قولُ الشيخ عبد القاهر في مقدمة «أسرار البلاغة»: «إن الخُطَب من شأنها أن تُعتمَد فيها الأوزان والأسجاع، فإنَّها تُروَى وتُتَنَاقَلُ تناقلَ الأشعار»[٢] إلا ناظرًا لذلك كما يُلَوِّح إليه تعليلُه، وإلا فهو لا يَجْهَلُ أنَّ جُلَّ الخطب النبوية وخطب السلف والعرب كانت غيرَ مشتملةٍ على الأسجاع إلا قليلًا.

ولا يحسُن السَّجْعُ في البَدَائِه والارتجالات؛ لأنَّه يصرِف الذِّهْنَ عن المحافظة على المعنى، بخلاف الكاتب فإنه في سَعَةٍ من أمره، ولهذا لا نَجِدُ السَّجْعَ كثيرًا في كلام العرب ومَنْ يليهم ممن كانوا لا يُزَوِّرُونَ الكلامَ مِنْ قبل، وما يُرَى في «نهج البلاغة» من الخطب المنسوبة لسيِّدنا علي رضي الله عنه من هذا النوع فهو من موضوعات أدباء الشيعة كما هو مشهور[٣].

---

(١) على المدرِّس أن يأتي بأمثلةٍ من جميع هاته الأنواع، مأخوذة من مواضعها، وقد أشرنا إليها بما يدفع عنه مؤنة التفتيش. (المؤلف).

(٢) أسرار البلاغة (٩).

(٣) **ينظر**: ما يأتي في قسم الخطابة ص (١٢٦).

ولا يَرتَجِلُ أحدٌ خِطَابًا مسجوعًا إلا وقد دَلَّ على أنه محفوظٌ لديه مِنْ قبل.

والسَّجْعُ يكسو الكلامَ الخَلِيَّ عن المعاني الفائقةِ وعن المحاسنِ اللفظيَّةِ جمالًا، ولذلك يأوي إليه ضُعَفَاء الكُتَّاب ـ كما قال ابن خَلْدون[1] ـ بخلاف التَّرَسُّل، فلا يَظْهَرُ رَوْنَقُه إلا إذا صَحَّ معناه وجادت ألفاظُه.



(١) في مقدمته ص (١٠٩٥).



التَّمَرُّنُ على الإِجَادَةِ

معالجةُ المتكلِّم أداءَ ما قَرَّرَه وهَذَّبَه من المعاني بما يُنَاسِبُها من اللفظ، وما يناسب غَرَضَ الكلام ومَقَامَه هو غايةُ علم الإنشاء؛ لأنَّ تلك المعالجةَ تصير دُرْبَةً وبيانًا، ويحصل ذلك بمطالعة كلامِ البلغاء، وتتبُّع اختيارهم، وسَبْر أذواقهم في انتقاء الألفاظ وابتكار المعاني، لتنطبع في الذهن صُوَرٌ مناسبةٌ ـ كما تقدم في أساليب الإنشاء ـ فيحصل من ذلك ما لا يحصل من دراسة قواعد الفصاحة والبلاغة، وقد قالوا: «إنَّ السَّمْعَ أبو الملكات اللِّسَانية»[١].

ولهذه المعالجة طرائق: إحداها: المطالعة. **ثانيها**: الحفظ. **ثالثها**: حَلُّ الشعر وعَقْدُ النثر، **بمعنى**: تصيير الشعر نثرًا والنثر نظمًا، مع المحافظة على أصل المعنى، سواء كان بتغييرٍ قليلٍ في اللفظ وفي المعنى، أم بدونه، ومن أحسن حَلِّ الشعر قول صاحب (قلائد العقيان): «فإنَّه لَمَّا قَبُحت فَعَلاتُه، وحَنْظَلَتْ نَخلاته[٢]، لم يزل سوءُ الظَّنِّ يقتادُه، ويصدِّق تَوهُّمَه الذي يعتاده»[٣] **حَلَّ به قولَ المتنبي**:

(١) مقدمة ابن خلدون (١٠٥٦).

(٢) **أي**: صارت ثمار نخلاته كالحنظل في المرارة، **حلَّ بذلك قول الشاعر** (البصائر والذخائر ٥/ ١٩٠):

أَأُقَاتِلُ الحَجَّاجَ في سُلطَانِه ... بِيَدٍ تُقِرُّ بأنها مَوْلاتُهُ

إني إذن لأخو الدَّنَاءَةِ والذي ... شَهِدَتْ بأقبحِ فِعْلِه غَدَرَاتُهُ

وتحدَّثَ الأقوامُ أنَّ صنائعًا ... غُرِست لديَّ فَحَنْظَلَتْ نخلاتُهُ

(٣) قلائد العقيان (١/ ١٣٢).

إذا سَاءَ فِعْلُ المَرْءِ ساءَتْ ظنونُه وصَدَّقَ ما يعتَادُه مِنْ تَوَهُّمِ[١]

وقول الخُوَارَزْميِّ في بعض مكاتيبه: «إذا أحسَّ من لسانه بَسْطَةً، ووجد في خاطرِه فَضْلةً، وأصاب من القول جَرَيَانًا، قال: ما وَجَد بيانًا»[٢] **فحَلَّ بذلك قولَ الشاعر:**

وقد وجدتَ مكان القولِ ذا سَعَةٍ فإن وَجَدْتَ لسانًا قائلًا فَقُلِ[٣]

مع تغيير في اللفظ والمعنى.

وأما عَقْدُ النثر فكثيرٌ، **ومنه قولُ أبي تمام:**

أتصبِرُ للبَلْوَى عَزاءً وحِسْبَةً فَتُؤْجَرَ أم تَسْلُو سُلُوَّ البَهَائِمِ[٤]

عقد قول علي رضي الله عنه للأشعث بن قيس: «إمَّا صَبَرْتَ صَبْرَ الأحرار، وإلا سَلَوْتَ سُلُوَّ البهائم»[٥].

حكى القاضي الفاضل قال: أرسلني أبي إلى يوسف بن أبي الخلال رئيس ديوان الإنشاء بمصر في الدولة الصلاحية لتعلُّم فَنِّ الكتابة، فرَحَّبَ بي ثم سألني: ما الذي أعددتَ من الآلات؟ فقلت: القرآن، وكتاب الحماسة. فقال: إن في هذا لبلاغًا. فلمَّا تَرَدَّدْتُ إليه، وتدَرَّبْتُ بين يديه، أمرني أن أَحلَّ شعر الحماسة فحللتُه من أوله إلى آخره، ثم أمرني أن أحلَّه مرةً ثانيةً ففعلت، فقال لي: اشتغل بمثل هذا وأنت إذًا تُحسِنُ الإنشاء[٦].

ومما يجب التنبُّه إليه أنَّ المرجع في كلِّ صِنْفٍ إلى اختيارِ جَيِّدِ إنشاءِ فُحُولِه، ففي الكتابة يجب تتبع أساليب مجيديها من كتابة ديوانية

---

(١) ديوان المتنبي (٤/ ١٣٥). **وينظر**: الإيضاح (٣٥٩).
(٢) رسائل الخوارزمي (١١). (٣) للمتنبي في ديوانه (٣/ ٨١).
(٤) ديوان أبي تمام (٣/ ٢٥٩).
(٥) نهج البلاغة (٦٤٩)، أدب الدنيا والدين (٤٥٥).
(٦) الوشي المرقوم (٥٥).

أو أدبية أو علمية أو صحافية، وفي الشِّعْر كذلك، وفي الشروط والتوثيق كذلك، وفي الخطابة كذلك، وفي المحادَثات يجب التمرُّن بمطالعة محادثات العرب، وقِصَارِ الجُمَل، والأجوبة البديعة، فإنَّ معرفة المُرَاسَلة والخطابة لا يُغنِي عن معرفة كيفية المحادَثة؛ ألا ترى أنه لو عَمَد إنسانٌ إلى أن يكتب كما يتكلَّم لجاءت كتابتُه مقطَّعة، وكذا لو تكلَّم كما يكتب لكان كمن يسرُد شيئًا محفوظًا، وهكذا تجدُ لكلِّ فَنٍّ لهجةً تُشبِه أن تكون لغةً خاصةً، فمن الغلط الكبير أن يلتزم المتمرِّنُ أسلوبًا واحدًا أو طريقةً منفردةً لا يعدو ذلك إلى غيره، وقد تَنبَّهْتَ إلى أنموذج ذلك، وفي استقرائه كثرةٌ، وليس الرِّيُّ عن[1] التَّشَافِّ[2]. والله أعلم.

انتهى القسم اللفظي، وفي منتهاه بِلْغُ ما أردناه من أصول فَنِّ الإنشاء، وسنقفِّيه إن شاء الله تعالى بخُلاصةٍ تتعلق بفنِّ الخطابة وآداب الخطباء، لتكون له كالتَّكملة، وعسى إذا حَظِي ذلك بإعمالِ بصيرةٍ نَقَّادَة، وأُورِيَ له زِنَادُ فِكْرةٍ وَقَّادة، أن يكون كافيًا للمتعلِّم القاصدِ، سِيَّما إذا نَفَحَها المدرِّس النِّحْرِيرُ بما تجود به هِمَّتُه من الزَّوائد.

- انتهى -

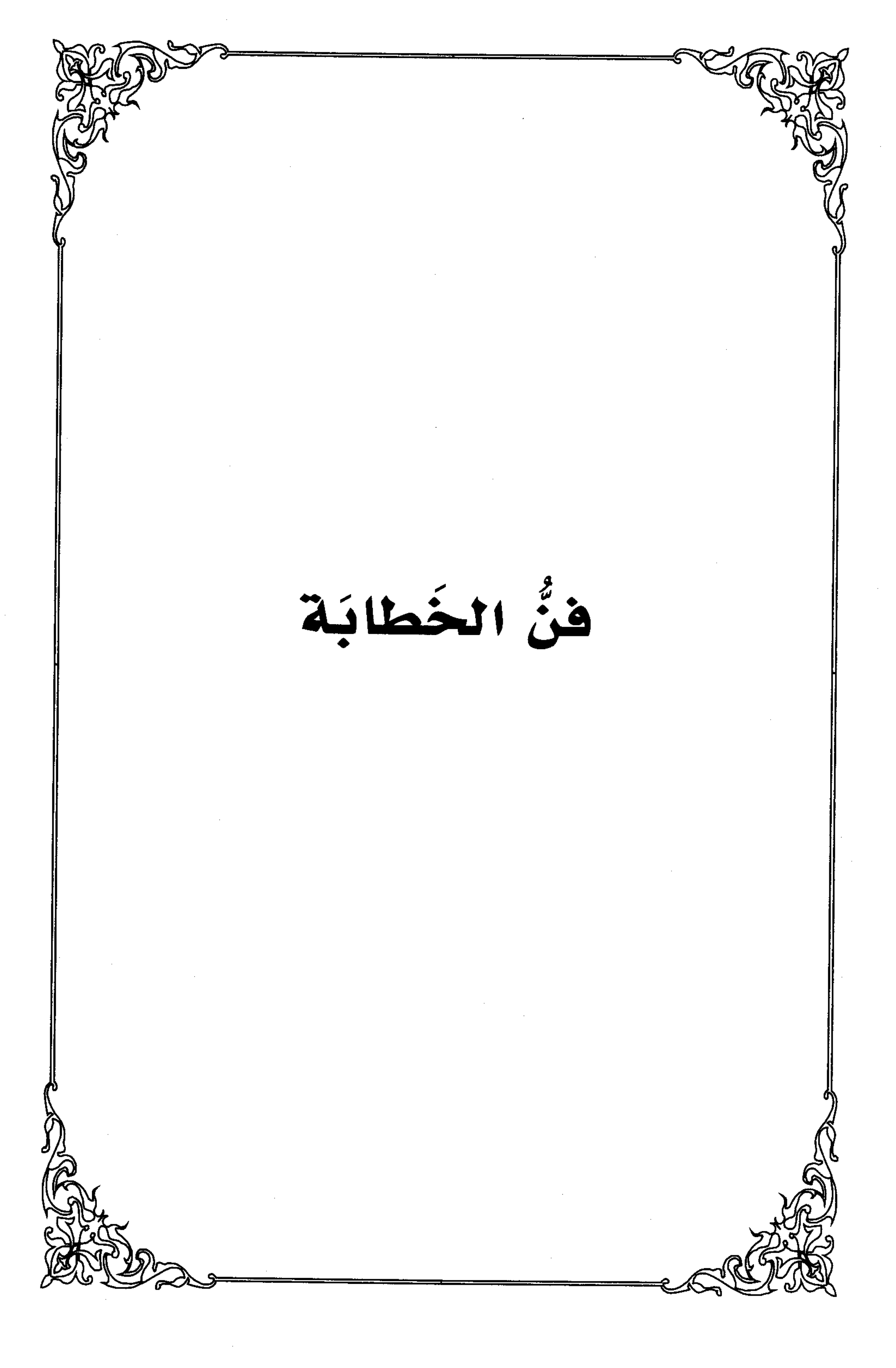
- يتلوه الكلام على فن الخطابة -

---

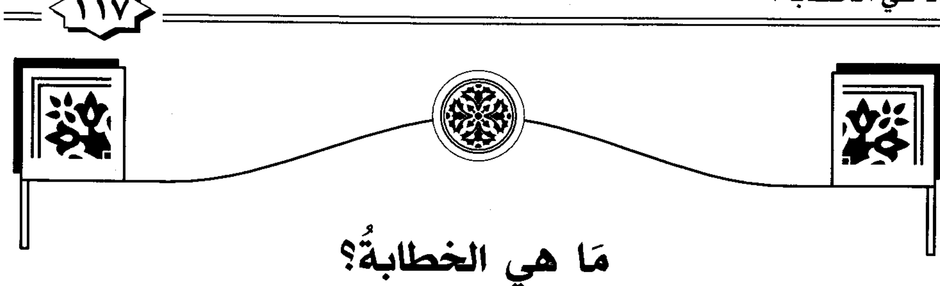
(١) الأصل: عند. والتصويب من كتب الأمثال.

(٢) مثلٌ يُضرَب للقناعة ببعض الحاجة؛ **أي**: ليس قضاء الحاجة أن تدركها إلى أقصاها، بل في مُعظمها مَقْنَعٌ. **والتَّشَاف**: تفاعل من الشَّفِّ، وهو استقصاء الشُّرْب حتى لا يبقى في الإناء شيء. جمهرة الأمثال (٢/ ١٩٠).





فَنُّ الخَطابَة



مَا هي الخطابةُ؟

إن الخطابة وإن كانت فنًّا من فنون الإنشاء، وكانت القواعدُ المتقدمة والشروط المقررةُ مطردةً فيها لا محالة، غيرَ أنَّ صاحبها لما كان أشدَّ اعتمادًا على البَداهة والارتجال منه على الكتابة، تعيَّن أن يُذكَر لها من الضوابط والشروط ما لا يجري مثله في عموم صناعة الإنشاء، كما كان للشعر من الضوابط ما يختصُّ به عن الإنشاء، وإن كان هو في الأصل فنًّا من أفانينه.

ولقد رأينا من المتقدِّمين ممن أَلَّف في صناعة الإنشاء لم يُعَرِّجوا على ذكر ما هو من خصائص الخطابة؛ حتى إنك لتجد شيئًا من قواعدها في خلال مطوَّلات كتب المنطق، ولا تجد ذلك في كتب الأدب، غيرَ أنَّ المناطقة خَصَّوها بضَرْبٍ من ضروب الحُجَّة، وهو ما يتركَّب من قياسات مظنونةٍ أو محمولَةٍ على الصِّدق[1]، وأما المعنيُّ بها عند علماء الأدب فهو شامل لجميع أقسام الحجة[2]؛ إذ الخطيب قد يأتي بجميعها وإن كان الغالبُ عليه بيانَ القياسات المظنونة؛ إذ هو لا يتعرض للقطعيَّات إلا عند الاحتجاج بها، ولا يتعرض للشعر والسَّفْسَطَة[3] إلا نادرًا؛ لئلا يعرِّضَ نفسه للتكذيب أو الاستخفاف.

---

(١) **ينظر**: التعريفات (١٦٣).

(٢) جمعها صاحب السُّلَّم (٣٧) **في قوله**:

خَطَابةٌ شِعْرٌ وبُرْهَانٌ جَدَلْ وخامسٌ سَفْسَطَةٌ نِلْتَ الأَمَلْ

(٣) **السَّفْسَطة**: خطأ مقصود للتمويه على الخصم، ويسمَّى المغالطة. المعجم الفلسفي (٩٧).

فيمكن أن نعرِّفها بأنها: كلامٌ يحاوَلُ به إقناعُ أصناف السامعين بصحَّة غَرَضٍ يقصِدُه المتكلِّم لفِعْلِه أو الانفعالِ به.

فقولنا: (كلام) خرجت به الرسائلُ العامة، والمكاتيب، والتقاليد الموجَّهة للبلدان[١]، وشمل ذلك الكلام المنظوم والمنثور؛ إذ يجوز أن تشتمل الخطبةُ على نَظْم، أو يكون جلُّها نظمًا كما سيأتي.

وقولنا: (يحاول به إقناع أصناف السامعين) يخرجُ التدريس؛ فإنه كلامٌ يحاول به إقناع صِنْفٍ واحد من السامعين، وهم طلبة فنٍّ خاص في موضع خاص، ولا يُسمَّى ذلك في العرف خطابةً ولا صاحبُه خطيبًا، وإن كان له عونٌ كبيرٌ على مَلَكَة الخطابة، وتعلُّقٌ شديدٌ بأصولها. ويخرج ما يخاطَب به شخصٌ واحدٌ؛ كالمناظرات العلميَّة، ومُرَافعات الخصوم والوكلاء لدى القضاة؛ فإنها لا تُسمَّى خطابةً عرفًا، وإن كانت شديدةَ التعلُّقِ بقواعدها، وفي الحديث: (**ولعلَّ بعضَكم يكون ألحنَ**[٢] **بحجَّتِه من بعض فأقضي له على نحو ما أسمع**)[٣].

وقولنا: (بصحة غَرَضٍ يقصده المتكلم) نريد منه التعميمَ ليشمل كلَّ غرض تصَدَّى الخطيب لترويجه، سواء كان المراد حَمْلَ الناس على فعله؛ كالحثِّ على طلب العلم والجهاد، أم اعتقادَهم صوابَه كالخطبة في إرضاء الناس بأمر واقع، ويشمل ذلك الخطبَ التي يَرُدُّ بها الخطيبُ على الغير، أو يعتذرُ بها عن فعله أو فعل غيره، أم الكفَّ عن فِعْلٍ كالمواعظ وتسكين الثورات، أم تحصيلَ عِلْمِهم به كالخطب التي تُقَال على ألسنة الملوك والرؤساء لإعلامٍ بقانون أو فَتْحٍ أو نحو ذلك[٤]، ويشملُ ذلك

---

(١) مثل ما صدر عن الوزير أبي القاسم ابن الجد الأندلسي إلى أهل غرناطة عن لسان أمير المسلمين. (**انظر**: صحيفة ١١٣ من قلائد العقيان). (المؤلف).

(٢) **ألحن**: تفضيلٌ من لحِن لحجته إذا فطن لها وأفصح عنها. (المؤلف).

(٣) رواه البخاري (٢٥٣٤)، ومسلم (١٧١٣) عن أم سلمة رضي الله عنها.

(٤) مثل ما خطب به عبد الله بن الزبير رضي الله عنه بالمدينة حين أرسله عبد الله بن أبي السَّرْح =

التعليمَ الذي يتعرَّضُ له الخطيب، مثل الخطب الدينية التي يُتعرَّضُ فيها لتعليم بعضِ الواجبات، فإنَّها لا تُتَلَقَّى بوصف قواعدَ علميَّة، ولكن بوصف تعليماتٍ عامَّةٍ تستوي فيها الناس، أو بوصف التنبيه على تركها وإهمالِها، وبهذا الاعتبار تصيرُ غرضًا للمتكلِّم يحاولُ الإقناعَ بصحته[1].

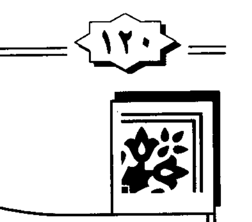
ويخرجُ بها ما يُقرأ على المنابر من عقود البيعات السُّلطانية ونحوها، كالتقاليد فلا تُسمَّى خُطبًا، وإنما القصد من ذلك إشهارُها وإعلانُها.

وقولنا: (لفِعْلِه أو الانفعالِ به) إشارةٌ إلى غاية الخطيب من الخَطابة، وهي إما فعل المخاطبين شيئًا يريده أو اعتقادهم شيئًا يُعلِمُهم إيَّاه. وقد انطبق التعريف على المعرَّف.



= مبشِّرًا بفتح إفريقية. (المؤلف). قال المعتني: أشار إلى الخطبة الجاحظ في البيان والتبيين (١/ ٤٠٦)، وهي في الاكتفا للكلاعي (٤/ ٥٠).

(١) ولذلك لا يعاب فيها جمعُ أشياء من أبوابٍ مختلفة ـ ولا يجوز ذلك في التدريس ـ وذلك مثل خطبة حجة الوداع. (المؤلف).



منافعُ الخطابةِ

إن الخطابة ركنٌ عظيمٌ من آداب الاجتماع البشري، فبها يحصل تهذيب الجمهور وحملُهم على ما فيه صلاحهم، وتسكين جَأْشِهم[1] عند الرَّوْع، وبثُّ حماسهم عند اللقاء، وبها تحصل مُحَاجَّة المموِّهين عليهم والمعنِّتين لهم؛ إذ الجمهور إنما يتألف من أفرادٍ لا تبلغ عقولُهم بسرعةٍ إلى إدراك البراهين النظرية، ولا تهتدي من تِلقاء نفسها إلى الغايات الحقيقية، فناسب أن يُعدَل عند خطابهم إلى الأمور الإقناعية، وهي المشهورات الموصِّلة إلى ما يوصِّل له البرهان ولو خالفته في الطريق، وقد يخاطِب الخطيب قومًا من الخاصة إلا أن المَقام يكون نابيًا عن سلوك طريقة البرهان، إما لقِصَر الوقت واحتياج البرهان إلى طُولٍ[2]، وإما لأنَّ في البرهان خَفَاءً[3] وتدقيقًا وتفاوتًا في قَبول الناس له، أو مُكَابرةً في الاعتقاد فيُصَار إلى الإقناعيات والتمثيلات والمسلَّمات لتُمْكِنَ

(١) **الجأش**: النَّفْس.

(٢) **مثاله**: قول عثمان بن أبي العاص الثقفي لقومه ثقيف حين ارتدت العرب: «يا معشر ثقيف: كنتم آخر العرب إسلامًا، فلا تكونوا أولهم ارتدادًا». (المؤلف). قال المعتني: **ينظر**: البيان والتبيين (٢/ ٦٧).

(٣) **مثل قول سهيل بن عمرو**، وكان واقفًا على باب عمر مع جماعة منهم: الأقرع بن حابس، وعيينة بن حصن، وجماعة من وجوه العرب، فخرج آذِنُ عمر إلى أن يدخل بلال، وسلمان، وعمار، فتمعَّرت وجوه البقية، فقال سهيل: لِمَ تتمعَّرُ وجوهُكم؟ دُعُوا ودُعِينا فأسرعوا وأبطأنا، ولئن حسدتموهم على باب عمر لَمَا أعدَّ الله لهم في الجنة أكثر. (المؤلف). قال المعتني: الأثر أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٢٨٢). ونقله المؤلف عن الجاحظ في البيان والتبيين (١/ ٣١٧).

معارضة الخصم الألدِّ[١] وإيقاظ الغالط الغافل، فلذلك كان الخطيب في حاجةٍ إلى معرفة محاسن الأشياء وأضدادها ليتوسَّل بذلك إلى مناقضة ضَالٍّ مروِّج أو إرشاد جاهل غيرِ متيقِّن.

وحسبك من منفعة الخطابة أن الله تعالى شرع لنا الخطبة عند كلِّ اجتماع مهم من جُمُعة وعيد وحج، وذلك أنَّ النُّفوس تميل في طِباعها لمتابعة الشهوات وتتجهَّم الاتِّباع لمقتضى الأخلاق الفاضلة، فإذا لم تتكرر عليها الدعوة إلى الفضائل بالخطب غلبت عليها أضداد الفضائل والعدالة، وليس كلُّ صِنْفٍ من أصناف الناس بصالحٍ لتلقِّي ذلك وحدَه من مطاوي كتب التهذيب وأوراق الحكمة، ولا كلُّ صالحٍ لذلك بفاعلٍ، فلا جَرَم وجبَ التذكير عند المجتمعات العامَّة؛ لأنها تحشُر أصناف الناس.

ولقد كان الشعرُ أغلبَ على العرب، وكان الشاعر مُقدَّمًا عندهم على الخطيب في الجاهلية ـ كما قال أبو عمرو بن العلاء ـ لفَرْط حاجتهم حينئذٍ إلى الشعر الذي يُقيِّد عليهم مآثرهم، ويفخِّم شأنهم، ويُهَوِّل على عدوِّهم، فلما كثر الشعر والشعراء واتخذوا الشعر مَكسِبةً[٢] وتسرَّعوا به إلى أعراض الناس، صار الخطيب عندهم فوق الشاعر[٣]، ومع ذلك فلم يُحفظ من خُطَبهم شيءٌ كثيرٌ؛ لأنَّ الشعر كان أسرعَ إلى الحفظ وأعلق بالذهن، ولما جاء الإسلام وتأسَّس الدينُ ارتفع شأن الخطابة، وقُيِّدت آثارُها بشيوع الكتابة.

۞ ۞ ۞

---

(١) **الألدّ**: الخصم الشحيح الذي لا يذعن للحق، وجمعه لُدٌّ.

(٢) **مكسبة** ـ بفتح الميم وكسر السين ـ: اسم مصدرٍ لمعنى الكسب؛ **أي**: سبب كسب. قاله ابن عاشور في شرح المقدمة الأدبية (١٨٢).

(٣) البيان والتبيين (١/ ٢٤١)، (٤/ ٨٣)، شرح المقدمة الأدبية لابن عاشور (١٨٠).



أصولُ الخطابةِ

اعلم أن أصول الخطابة من حيث إنها كلامٌ مُنشَأ لا تفارق الأحوالَ الثلاثة التي شرحناها في كيفية إنشاء المعنى من القسم الأول في الإنشاء، وهي: المعنى الأصلي، وتفصيله، وإيضاحه، المشار إليها بقول ابن المعتز: «البلاغة: أن تغوصَ لحظةُ القلب في أعماق الفِكْر، وتجمعَ بين ما غاب وحَضَر، ثم يعود القلبُ على ما أَعمَلَ فيه الفِكْرَ فَيُحكِم سياق المعاني، ويُحسِن تنضيدَها، ثم يبديها[1] بألفاظٍ رشيقةٍ مع تزيين مَعارِضِهَا[2]، واستكمال محاسنِها»[3].

وكل ذلك محتاجٌ إلى طبع سليم، فقد قال أبو داود بن جرير[4]: «رأس الخطابة الطبع»[5]، ولكن الذي يختلف هو كيفية التفصيل والتنسيق، وكيفيةُ الإيضاح والتعبير، **فأما كيفية التفصيل**: فسيأتي جلُّها في معرفة أركان الخطبة، **وأما كيفية التنسيق**: فهو في الخطابة: أن يتمكن الخطيب من الموضوع الذي يتصدَّى للتكلُّم فيه، ويجمعَ أصولَه ويستحضر غايته والغرضَ الذي يرمي إليه، ويتصوَّر ذلك بوجه مجمل،

---

(١) الأصل: يبديه.

(٢) **المعارض**: جمع مِعْرَض ـ كمنبر ـ وهو الثوب الذي تُجْلَى فيه الجارية حين تُعرَض للبيع. فشبَّه الألفاظ بالجواري على سبيل الاستعارة المكنية.

(٣) زهر الآداب (١/ ١٠٩). وتقدم النقل ص (٥٥).

(٤) كذا في الأصل. وصوب عبد السلام هارون أنه (حريز).

(٥) البيان والتبيين (١/ ٤٤). والطبع صفة في النفس تفهم به أسرار الكلام، ويميِّز بين الرديء والجيد. وهو بحاجة إلى صَقْلٍ ودُرْبَة ليعلو ويسمو. وجعله ابن عاشور في شرح المقدمة الأدبية (٦٨) مرادفًا للذوق.

ثم يأخذ في تفريعه قبل التكلُّم لكيلا يُرْتَجَ عند الشروع، ثم إنه يُحسِن ربطه ويناسب في الانتقال لكيلا يَشِذَّ عليه وقتَ الاشتغال بالتكلم بعضُ ما كان أعدَّه، فإن لوقت التكلم ضيقًا غيرَ ما يكون من السَّعَة في حال التفكر، فإذا أَخَذ بعضُ المعاني بأيدي بعض، وحَسُن رَبْطُ بعضه ببعض، كان أسهلَ استحضارًا وأقربَ تناولًا للسامع والناقل؛ لأنَّ بعضه يُذَكِّر ببعض، ومن هذا ما يُعبَّر عنه بـ(حُسْن التخلُّص)[1]، ثم يَعقُب ذلك تقريرُ المعنى ـ على حسب ما تقدم في نقد المعاني ـ ثم الاستدلال عليه، وذلك لا يعسُر على الخطيب إن هو أحسن تنسيقَ أصول خطبته؛ لأنه يتمكَّن منها كمال التمكُّن.

ثم إن الخطيب لا يستغني عن الاستكثار من استحضار معانٍ صالحة في أغراض شتَّى يحتاج إليها في الاستدلال على فضل شيء أو ضدِّه؛ لتكون له عونًا عند الاندفاع في الخطابة، وتخفيفًا عن ذهنه من شدة التحضير، ولأنَّه إن لم ينفتح له بابُ القول في غَرَضٍ ارتجاليٍّ يأخذْ من تلك المعاني ما يدفع عنه عيبَ الإرْتَاج والحُبْسَة، وقد روي أن عثمان رضي الله عنه لما قام عندما بويع بالخلافة أُرتِجَ عليه فقال: «أما بعد، فإنَّ لكل قادم دهشةً، وأنتم إلى إمام فعَّال أحوجُ منكم إلى إمامٍ قوَّال، وإن أَعِشْ فستأتيكم الخطبُ على وجهها»[2]. وكذلك روي أن داود بن علي[3] قام للخطبة، فلما قال: (أما بعد) أُرتِجَ عليه فقال: «أما بعد، فقد يجِدُ المُعسِرُ، ويُعسِرُ الموسِرُ، ويُفَلُّ الحديد، وإنما الكلام بعد الإفحام

---

(١) قال ابن الأثير: «هو أن يأخذ المؤلف في معنى من المعاني، فبينا هو فيه إذْ أَخَذ معنى آخر، وجعل الأول سببًا إليه، فيكون بعضُه آخذًا برقاب بعض، من غير أن يقطعَ المؤلفُ كلامه ويستأنفَ كلامًا آخر، بل يكون جميع كلامِه كأنما أُفرِغ إفراغًا». الجامع الكبير (٣٢٨).

(٢) الصناعتين (٢٢).

(٣) هو: أبو سليمان من خطباء بني هاشم كان أنطق الناس وأجودهم ارتجالًا، ولم يتقدم في تحبير خطبة قط. قاله الجاحظ. (المؤلف). **ينظر**: البيان والتبيين (١/ ٣٣١).

كالإشراق بعد الظلام. وقد يَعزُب البيان، ويَعتَقِمُ الصَّوابُ[١]، وإنما اللسان مُضْغَةٌ من الإنسان، يَفْتُر بفتوره إذا نَكَل، ويثوب بانبساطه إذا ارتجل. ألا وإنَّا لا ننطِق بَطَرًا، ولا نَسكتُ حَصَرًا، بل نسكت معتبرين، وننطِقُ مرشِدين، ونحن بعد ذلك أُمَرَاءُ القولِ، فينَا وَشَجَت أعراقُه[٢]، وعلينا عَطَفَتْ أغصانُه، ولنا تهَدَّلتْ ثمرتُه[٣]، فنتخيَّرُ منه ما احْلَوْلَى وعَذُب، ونَطِّرِحُ منه ما امْلَوْلَح وخَبُثَ، ومِنْ بعدِ مقامِنا هذا مَقام، ومِنْ بعد يومنا أيام»[٤]. فبذلك كان في إرتاجه أبلغَ منه في ارتجاله[٥]، ولولا أن هذه المعاني كانت حاضرةً في ذهنه حتى صار بها خطيبًا في بيان أحوال الخطيب لسكت وحُبِسَ لسانُه.

ولا بد للخطيب من التنبُّه إلى مواقع النقد والاعتراض، وهي الأشياء التي يظنُّ أنَّ في السامعين من ينكرها؛ لمخالفة اعتقادٍ أو مخالفة هوى، فيَعُدُّ ذِهْنَه للجواب عنها، وقد قيل: إنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان قد أعدَّ لكل حادثةٍ جوابًا. وسيأتي بيانٌ لذلك في الكلام على الخطيب.

وأما كيفية الإيضاح والتعبير: فقد قال أبو هلال العسكري: «الرسائل والخطب مُتشَاكِلَتَان[٦] في أنهما كلامٌ لا يلحقه وَزْنٌ ولا تَقْفِيَة،

(١) **أي**: يخفى. **وأصل الاعتقام**: أن يحفر الرجل البئر فإذا بلغ موضعًا لا يعمل فيه المِعوَلُ عَدَل إلى جانبٍ آخر.

(٢) **وشجت**: اشتبك بعضها ببعض. **والأعراق**: بفتح الهمزة جمع عَرَق. (المؤلف).

(٣) **تهدَّلت**: استرخت إلى الأرض؛ **أي**: قربت للمتناول. (المؤلف).

(٤) الصناعتين (٢٢).

(٥) استبعد جماعةٌ من أهل الأدب أن يُرتَج على الخطيب فيما قَصَده وأعدَّ له، ثم يأتي في تلك الحال بكلام هو أحسن مما قصد إليه، وأبلغ مما أرتج عليه؛ لأن النسيان لا يكون إلا عن حيرة، فكيف يجتمع معها البراعة الثاقبة؟ ويجعلون الأخبار الواردة في ذلك مصنوعة موضوعة. وقد تعقبهم المرتضى في أماليه (٢/ ١٠١).

(٦) الأصل: متشاكلان. والمثبت من الصناعتين.

وكذلك من جهة الألفاظ والفواصل؛ فألفاظُ الخطب[1] تشبه ألفاظ الكِتَاب في السهولة والعذوبة، وكذلك فواصل الخطبة مثلُ فواصل الرسائل، والفرق بينهما أن الخطبة يُشافَه بها بخلاف الرسالة»[2]. وقال في الباب الرابع: «أجناس الكلام ثلاثة: الرسائل، والخطب، والشِّعْر، وكلُّها تحتاج إلى حُسْن التأليف وجودة التركيب»[3]. وعليه فكل ما قررناه في قسمي الإنشاء المعنوي واللفظي يجري بعينه ها هنا. ولم نزل نرى الخطابة والكتابة يجريان على سَنَنٍ واحد في اللهجة، ويتلوَّنَان تبعًا لأذواق العصور المختلفة بلونٍ واحدٍ، إلا أنه لا بد لنا من إيضاح الفرق بين الرسالة والخطبة الذي أشار له[4] أبو هلال بقوله: «الفرق بينهما أنَّ الخطبة يُشَافَه بها بخلاف الرسالة» لكيلا يَظُنَّ الواقفُ عليه أن ذلك قُصَارى الفَرْق، وإنما هو يَنْبُوعُ فروقٍ كثيرة؛ إذ لا يخلو حال الكلام المشافَه به من مخالفةٍ لحال الكلام المكتوب المبعوث به، **وقد حَضَر لنا من ذلك فروقٌ كثيرة:**

أحدها: أن الخطابة يشافَه بها جمعٌ من الناس، فهي من هذا الوجه أولى باستعمال الألفاظ السهلة التناول للجمهور، مع بَسَاطة المعاني وقلة تركيبها والإغراب فيها.

ثانيها: أنها لذلك يجب أن تكون جُمَلها شديدةَ الارتباط قريبةَ التآخي، بحيث لا يحسُن فيها تطويلُ الاستطراد ولا بُعْدُ مَعَاد الضمائر والإشارات ونحوها؛ إذ ليس لذهن سامعِها من التمكُّن في التفهم ما لذهن قارئ الرسالة.

ثالثها: أن السجع الذي هو فنٌّ من فنون الإنشاء لا يحسُن كلَّ

---

(١) الصناعتين: الخطباء. فيكون ما بعدها: الكُتَّاب. بضم الكاف وتشديد التاء المضمومة.

(٢) الصناعتين (١٣٦). (٣) الصناعتين (١٦١).

(٤) الأفصح تعدية الفعل (أشار) بـ(إلى)؛ كقوله تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ [مريم: ٢٩].

الحُسْنِ في الخطابة، خصوصًا الخطابة التي تُقَال لجماهير الناس وعامتهم؛ لأنَّ السجع لا يخلو عن تكلُّف ألفاظٍ تحجُب ذهن السامعين عن كمال فَهْم المعاني، فإن اغتُفِر فيها السجعُ فإنما هو ما يقع عَفْوًا بلا تكلُّف؛ **أي**: السجع الذي يطلبُ المتكلِّمَ لا الذي يطلبُه المتكلِّمُ.

رابعها: أن الخطابة لَمَّا كان شأنَها الارتجالُ ـ ولو كانت مُحَضَّرةً أو مُنقَّحَةً، فينبغي أن تكون صورتُها صورةَ الارتجال ـ فلذلك كانت جديرةً بطرح كلِّ ما تُشَمُّ منه رائحةُ التصنُّع. نعم، لا نجهل أنَّ الخطابة ضَعُف التَّبْريزُ فيها من أواسط القرن الخامس شيئًا فشيئًا[1]، وصارت الخُطَب مهيَّأَةً من قَبْل إلقائِها، وصار الخطباءُ يلقونَها من الأوراق فمالوا فيها إلى المحسِّنات اللفظية التي غلبت على إنشاء تلك العصور فما دونها، إلا أنَّ تَكاثُرَ ذلك لم يَحُلْ بصاحب الذوق السليم مِنْ أن تُخَالجه السَّمَاجةُ عند سماعها، وهذا هو الذي أيقنَنَا بأنَّ كثيرًا من الخُطَب المنسوبة لسيِّدنا عليٍّ ﷺ في كتاب «نهج البلاغة» هي من موضوعات أدباء الشيعة[2]، وإن شئتَ مثالًا لهذا وذاك فدونك الخطبَ النبوية

---

(١) **ينظر**: إصلاح المساجد للقاسمي (٦٧).

(٢) لأنَّ خطبه الصحيحةَ النسبةِ إليه ﷺ كانت على الصِّفَة العربية الخَلِيَّةِ من التكلُّف، مثل قوله: «أيها الناس: إنَّ الدنيا تَغُرُّ المؤمِّل لها والمُخْلِد إليها، ولا تَنْفَسُ بمن نافس فيها، وتَغلِب من غَلَب عليها، وأيمُ الله ما كان قومٌ قطُّ في غَضِّ نعمةٍ من عيش فزال عنهم إلا بذنوبٍ اجترحوها؛ لأنَّ الله ليس بظلام للعبيد، ولو أنَّ الناس حين تنزِل بهم النِّقَم، وتزول عنهم النِّعَم فَزِعوا إلى ربهم بصِدْقٍ من نِيَّاتهم، ووَلَهٍ من قلوبهم لَرَدَّ عليهم كلَّ شارد، وأصلح لهم كلَّ فاسد. وإني لأخشى أن تكونوا في فَتْرَةٍ، وقد كانت أمورٌ مضت منكم كنتم فيها عندي غيرَ محمودين، ولئن رُدَّ عليكم أمركم إنكم لسُعَداء، وما عَلَيَّ إلا الجُهْد، ولو شئتُ أن أقولَ لقلتُ: عفا الله عما سلف».اهـ. فأين هذه من الخطبة المنسوبة إليه في نهج البلاغة في صحيفة ١٢ التي أولها: «الحمد لله الذي لا يبلغ مِدْحَتَهُ القائلون»، والخطبة التي أولها: «أحمدُه استتمامًا لنعمته، واستسلامًا لعِزَّته» في صحيفة ٢٠، ونحوهما مما تَظهَر عليه الصَّنْعَة والتوليدُ عند التأمُّل. (المؤلف). قال المعتني: يضاف إلى ذلك ما اشتمل عليه =

وخطب فصحاء العرب، ثم انظر الخطب المنبرية المجموعة في الدواوين كخطب ابن نباتة، والخطب التي تضَمَّنَتْهَا المقاماتُ الحريريَّة[(١)].

ولتمام الاستعانة على التنسيق والتعبير اللذين هما ملاك أصول الخطابة تعيَّن على الخطيب التملِّي من رواية أقوال الخطباء؛ فإنَّ في ذلك معرفةً لمعانٍ جامعةٍ وألفاظ بارعةٍ، وقد نقل الجاحظُ عن أبي داود بن جرير أنه قال: «رأسُ الخطابة الطَّبْعُ، وعَمودُها الدُّرْبَة، وجَنَاحاها روايةُ الكلام»[(٢)]. وذلك ليعتادَ سهولةَ التعبير[(٣)].

= الكتاب من تشويه تاريخ الصحابة، مما يقطع بعدم صحة نسبته إلى علي ﷺ. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وأهل العلم يعلمون أنَّ أكثر خطب هذا الكتاب مفتراة على علي ﷺ، ولهذا لا يوجد غالبها في كتابٍ متقدِّم، ولا لها إسناد معروف». منهاج السُّنَّة (٤/ ٢٤). **وينظر**: سيرة علي بن أبي طالب للصلابي (٥١٨).

(١) فمن الخطب النبوية ما رواه الجاحظ، قال: خطب النبي ﷺ فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: (**أيها الناس: إنَّ لكم معالمَ فانتهوا إلى معالمكم، وإنَّ لكم نهايةً فانتهوا إلى نهايتكم، إنَّ المؤمن بين مخافتين: بين عاجِلٍ قد مضى لا يدري ما الله صانعٌ به، وبين آجلٍ قد بقي لا يدري ما الله قاضٍ فيه، فليأخذ العبدُ من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشَّبِيبةِ قبل الكَبْرَة، ومن الحياة قبل الموت، فوالذي نفسُ محمدٍ بيده ما بعدَ [الموت] من مُسْتعتَب، ولا بعد الدنيا من دارٍ إلا الجنةُ أو النار**). وكذلك خطبة أبي طالب في تزويج النبي ﷺ بخديجة ﷺ المذكورة في السيرة، وهي: «الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم، وزَرْعِ إسماعيل وضِئْضِئِ مَعَدٍّ، وعُنْصُرِ [مُضَر]، وجَعَلَنا حَضَنَةَ بيتِه، وسُوَّاسَ حَرَمِه، وجَعَلَه لنا بيتًا محجوجًا، وحَرمًا آمنًا، وجَعَلَنا الحكام على الناس. ثم إنَّ ابنَ أخي هو محمد بن عبد الله لا يوزَنُ به رجلٌ إلا رَجَح به شرفًا ونُبْلًا وفضلًا وعَقْلًا، وقد خطب إليكم رغبةً في كريمتكم خديجة، وبذل لها من الصَّدَاق... إلخ». (المؤلف). قال المعتني: أما خطبة النبي ﷺ فهي في الكامل للمبرِّد (١/ ٢٧١)، والبيان والتبيين (١/ ٣٠٢). وروى شيئًا منها القضاعي في مسنده (٥٣٦) عن ابن عائشة عن أبيه. وأما خطبة أبي طالب فهي في الوفا بأحوال المصطفى لابن الجوزي (١/ ٢٣٨)، وشرح المواهب للقسطلاني (١/ ٢٠١).

(٢) البيان والتبيين (١/ ٤٤). **وينظر**: ما سبق ص (١٢٢).

(٣) ويمكن أن نعمم ذلك فيتملَّى من رواية الخطباء وغيرهم من العلماء والأَبْنِاء، ليعلم أغراض الناس ونتائج أفكارهم، فإنها تشحذ القريحة، وتذكي الفطنة، وتصير المعاني كالشيء الملقى بين يديه، يأخذ منه ما أراد، ويترك ما أراد. **ينظر**: المثل السائر (١/ ٨٢).

كما لا غُنْيَة للخطيب عن معرفة أحوالِ الأمم ومحامِدهم ومَذَامِّهم؛ فإن ذلك مما يعرِض للخطيب، ويُعِينُه على التكلُّم في المجامع؛ ليأخذ من ذلك أمثالًا صالحةً أو تحذيراتٍ نافعةً، ولأنه يستعين به على تأييد أنصارِه أو الحَطِّ من أعدائهم، وقد حَضَر الخطيبُ خالد بن صفوان الأهتمي[1] بمجلس أبي العباس السَّفَّاح، ففخر عليه ناسٌ من بَلْحارث بن كعب، وأكثروا في القول، فقال له السَّفَّاح: ما لك لا تتكلم؟ فقال له: أخوالُ أمير المؤمنين وعَصَبَتُه. فقال له: فأنتم أعمامُ أمير المؤمنين وعَصَبَتُه. فقال خالد حينئذٍ: وما عسى أن أقول لقومٍ كانوا بين نَاسِجِ بُرْد، ودَابغِ جِلْد، وسَائِسِ قِرْد، وراكب عَرْدٍ (الحمار)، دَلَّ عليهم هدهد، وغَرَّقَتْهُم فأرة، ومَلَكتهم امرأة»[2]. أشار إلى أنهم من بقايا سَبَأ. **وقد قال فيه مَكِّيُّ بن سَوَادَة**[3] ـ الشاعر، وجَمَع في شِعْره ما يلزمُ الخطيب ـ:

عَلِيمٌ بتنزيلِ الكلام مُلَقَّنٌ ... ذَكُورٌ لِمَا سَدَّاهُ أَوَّلَ أَوَّلا
يَبُذُّ قَرِيعَ القومِ في كلِّ مَحْفِلٍ ... وإن كان سحبانَ الخطيبَ ودَغْفَلا
ترى خُطَباءَ القومِ يومَ ارتجاله ... كأَنَّهمُ الكِرْوانُ عايَنَّ أَجْدَلا[4]

---

(١) هو: خالد بن صفوان بن عبد الله بن الأهتم التميمي، كان علمًا من أعلام الخطابة، وفد على هشام بن عبد الملك، وعمر بن عبد العزيز، وأبي العباس السفاح، وله معهم أخبار ومواعظ، جاء عنه أنه قال: إني عاهدت الله أن لا أخلو بِمَلِكٍ إلا ذكَّرته الله ﷻ. قال الدارقطني: هو مشهور برواية الأخبار. ولد ونشأ بالبصرة، وكُفَّ بصره. الوافي بالوفيات (٤/ ٣٤٥)، الأعلام (٢/ ٢٩٧).

(٢) البيان والتبيين (١/ ٣٣٩).

(٣) مكي بن سوادة البرجمي البصري. ذكره المرزباني في معجمه (٤٧١) ولم أقف على شيء من أخباره.

(٤) **المراد بالملقَّن**: النبيه، حتى كأنه يلقِّنه غيرُه ما يقول، من شدة بَدَاهته. وهذه شِنْشِنَةٌ للعرب، أنهم يُسنِدون المواهب العقلية لِقُوَّاتٍ خفيَّةٍ؛ كقولهم: رجل مُحَدَّثٌ ـ إذا كان بصيرًا بالعواقب ـ، وقولهم: إنَّ للشاعر رِئِيًّا يُملي عليه، وقولهم في القرآن: إنه سِحْر، أو حديث الجن. والقريع: الغالب والفحل. ودَغفل: هو ابن حنظلة النَّسَّابة =

وكذلك معرفة ما يكثرُ الدعاء إليه مثل منافع المَدَنِيَّة ومنافع التعليم، ومثل استحضار الخطيب السِّيَاسيِّ لعلائق الأمم وتواريخ حوادثها، ولذِكْرِ مفاخر أمته ودولتها، واستحضار ما يَذُبُّ به عن سياستِه ممن يَنتقِدُهَا.



= من بني شيبان، وكان من البُلَغَاء الخطباء، وقد ذكره الجاحظ في كتاب البيان في مواضع. والكِرْوانُ: طائرٌ كثير الخوف. والأجدل: الصَّقْر. وسحبان: هو ـ بفتح السين ـ ابن زُفَر بن إياس الوائلي، أشهر الخطباء، كان يُضرَب به المثل في البيان، أدرك الإسلام وتوفي سنة ٥٤هـ. قيل: كان إذا خطب لا يعيد كَلِمةً ولا يتوقَّفُ، وكان معاوية رضي الله عنه يَميل إليه ويُحضِرُه في مجامع الكلام ولقاء الوفود. (المؤلف). والأبيات في البيان والتبيين (١/ ٣٤٠).



الخطيبُ

يتعلق الكلام على الخطيب بأمرين:

أحدهما: شروطه. **وثانيهما**: عيوبُه. لتحصل من معرفتِهما ما يجبُ اتِّبَاعه، وما يتعين عليه تركُه.

أما شروطُه فكثيرةٌ: منها: ما يَرجِعُ إلى ذِهْنِه. **ومنها**: ما يرجع إلى ذاته.

فأما شروط الخطيب الراجعة إلى ذِهْنِه فقد أرجعها أرسطو في كتابه في الخطابة(١) إلى ثلاثة أشياء ـ هي كالأصول لها ـ:

أولها: معرفة الأقوال التي يحصل بها الإقناع. **وثانيها**: معرفة الأخلاق والفضائل الذاتية. **وثالثها**: معرفة الانفعالات، ومِنْ أيِّ شيءٍ تكون. ونحن نزيدها **رابعًا**: وهو قُوَّة البَدَاهة في استحضار المعاني.

أما الثلاثة الأُوَل فقد شرحها ابن رشد في تلخيص كتاب أرسطو بعض الشرح(٢)، ونحن نزيدها بيانًا **فنقول:**

أما معرفة الأقوالِ المُقْنِعَة: فالمراد بها معرفة الأَقْيِسَة الخطابيَّة، وذلك يحصل من التمييز بين الأقيسة الصحيحة، والكُلِّيات وجزئياتها، والصادق والكاذب، ومراتب أنواع الحُجَّة، وذلك مما دُوِّن له علمُ المنطق، ولا نريدُ معرفتَه بصناعة المنطق؛ إذ قد كان الخطباءُ خطباءَ قبل تدوينِه، ولا يزال الخطباءُ خطباءَ ومنهم من لم يخطُر المنطق بباله، وإنما المراد أن تكون له مَلَكَةُ التمييز، سواء حصلت تلك المَلَكَة من سلامة

---

(١) ص (١٠).

(٢) تلخيص الخطابة (١٨).

الفِطْرة وأصَالة الرَّأي، أم من مُزَاولة الفنون الحِكْمِيَّة، ويُلحَق بذلك معرفةُ الحقِّ والباطل، والمقبول والمردود، والصَّريح والخفي، والظاهر والمُؤَوَّل، ونضربُ لذلك مثلًا وهو كلما كان القولُ أعمَّ معنى كان أكثرَ تأتِّيًا لأن يُستعمَلَ في مواطن كثيرة، وكلما كان أخصَّ كان أوضحَ دِلالةً وأقربَ تناوُلًا، ولكلٍّ مَقَامٌ ووقتٌ ومخاطَبٌ، وهكذا معرفةُ العِلَل والغايات. وقد تقدم في جزء صناعة الإنشاء المعنوي من ذلك مَقْنَعٌ، وفي مُمَارسة علوم البلاغة والمنطق منه مَبْلَغٌ.

وأما معرفة الأخلاق والفضائل: فالقصدُ من ذلك التمييزُ بين ما هو فضيلةٌ وضدِّه من الأفعال، ومعرفة محاسِن الأخلاق ومساوئها، **فإن بمعرفة ذلك تحصيل غرضين مهمين**:

أحدهما: رياضة الخطيبِ نفسَه على التَّحَلِّي بتلك الفضائل.

وثانيهما: معرفتُه ذلك من حال المخاطَبين؛ ليلقي لهم الكلام على قَدْر احتياجهم وبقدر ما تَهيَّأَت له نفوسُهم[1]. وكأنَّ[2] هذا الثاني موجِب اشتراط الاستيطان في خطيب الجمعة عند مَن اشترطه[3].

واعلم أن الخطيب لا غِنَى له عن معرفة أضداد الفضائل أيضًا؛ إذ قد يدعوه الحالُ إلى بيانها إما لِذَمِّ ما تشتمل عليه وتُؤثِره، وإما لمعرفة ما فيها من منافع قليلة؛ لئلا يَبْهَتَه بها مَنْ يريدُ التَّضليلَ بترويجها، فإذا كان

---

(١) قال ابن القيم: «وكان ﷺ يخطب في كلِّ وقتٍ بما تقتضيه حاجةُ المخاطَبين ومصلحتهم». زاد المعاد (١/ ٤٢٨).

(٢) الأصل: وكان. والأقرب ما أثبت.

(٣) وهو من مفردات الحنابلة. **ينظر**: المغني (٣/ ٢٢٠). وعللوا ذلك بأنَّ المسافر ليس من أهل فرض الجمعة، فلا تنعقد به، وإنما تصح منه تبعًا لغيره. ولم أجد من علل بما ذكره المؤلف. وذهب أبو حنيفة ومالك والشافعي إلى انعقاد الجمعة بالخطيب إذا كان مسافرًا. **ينظر**: بدائع الصنائع (٢/ ٢١٢)، جامع الأمهات (١٢٢)، المجموع (٤/ ٢٥٠).

عالمًا بتفاصيلها لم يعسُر عليه تفنيدُ من يضلِّلُ بها، وفي ذلك أيضًا عَوْنٌ على الدِّفَاع عن مُرتكِب هَفْوةٍ وصاحب فَلْتَة. وقد يكون الشيءُ نافعًا في وقتٍ، وضدُّه نافعًا في آخرَ، كالشَّجاعة وقت الحَرْب، والأَنَاة وقت السِّلْم.

وأما معرفة الانفعالات ومَنْشَئِها: فهي من أكبر ما يعتمدُ عليه خطيبُ القوم؛ إذ به يُمَيِّزُ بين ما تنفعلُ به نفوس العامة، وما تنفعلُ به نفوس الخاصة، وما هو مُشترَكٌ بينهما، وبين أنواعِ الانفعالات خيرِها وشَرِّها، وقوَّتِها وضعفِها، وما هو مقبولٌ وما هو مردود.

وقد تَعَرَّض أرسطو إلى ذلك بما عَبَّر عنه بـ(إثارة الأهواء) فقال: «إنها انفعالات في النَّفْسِ تُثِيرُ فيها حُزْنًا أو مَسَرَّةً». وقال أفلاطون: «لكلِّ أمرٍ حقيقةٌ، ولكلِّ زمانٍ طريقةٌ، ولكلِّ إنسانٍ خَلِيقَةٌ، فالتمس من الأمور حقائقَها، واجْرِ مع الزَّمان على طرائقه، وعامِل الناسَ على خلائقهم»[1].

فعلى الخطيب ألا يقيس الناسَ على حَذْوِ نفسِه؛ فإنَّ منهم مَنْ يُسَاويه، ومنهم مَنْ يفوقُه، ومنهم مَنْ هو دونه، وليس ما يزهد فيه الفتى ـ مثلًا ـ يزهد فيه الصَّبي، ولا ما يخاطَب به الجنديُّ في صَفِّ القتال يخاطَب به الحكيمُ؛ إذ رُبَّ مَحْمَدَةٍ عند هذا هي مَذَمَّةٌ عند الآخَر، فنحن ندعو كلًا منهما ـ إذا أَرَدْنا منه انفعالًا ـ بما يُناسِب اعتقادَه. ألا ترى أن حُبَّ التعظيم والفَخْر ـ مثلًا ـ لو زَهِد فيه الطِّفْل في المَكْتَبِ كما يزهَد فيه الحكيمُ لاستوى عنده العمَل والكَسل، ولم يهتمَّ بمنافسة أقرانِه فتَضَاءلتْ مواهبُه. وكذلك القناعة المحمودة لا يحسُن أن يذكرَها أو يدعوَ إليها مَنْ يخطُبُ في قومٍ تكاسلوا عن التِّجَارة وفشا فيهم الفَقْر، فإن جاء يخطُب فيمن أعرضوا عن تعاطي العِلْم، أو عن تهذيب النَّفْس لشِدَّة التعلُّقِ بالدنيا حَسُنَ أن يتعرَّض حينئذٍ لمحامد القناعة وأنها أكبرُ غِنًى.

---

(١) رسائل خط للفارابي. بواسطة: مقالات في الخطابة (٥٢).

وعلى هذا فالخطيب يُخاطِبُ السَّامعين بمقدار ما يَعْلَمُ من رُتْبَةِ انفعالهم بكلامه؛ فتَارةً يتوجَّه إلى ابتداء المطلوب منهم مِنْ غير طَلَبٍ لوسائلِه، ويَكِلُ لهم السَّعْيَ في وسائل تحصيله، وذلك إنْ عَلِم أن لا نُشُوزَ[١] منهم. وتارةً يتطلَّب منهم تحصيلَ الأسبابِ والوسائل إن عَلِمَ منهم نُشُوزًا عن المطلوب لِيَقَعُوا في الأمر المطلوب بعد ذلك على غيرِ تَهَيُّؤٍ إليه، مثال ذلك: لو أراد أن يدعوَ إلى أَمْرٍ فيه صَلاحٌ عامٌّ مثل تكثير سَواد الأمة بالتَّنَاسُل، ويعلمُ من المخاطَبين بعض الإِجْفَال عن ذلك لِمَا يتوقَّعون من متاعب تربية البنينَ والبنات، فيقتضي الحالُ أن يدعوَهم إلى وسيلة ذلك وهو الحَثُّ على التَّزَوُّج مُظْهِرًا له في صفةِ السَّعْي لمنفعةٍ شخصيةٍ، مُرَغِّبًا فيه بما يعودُ من حُسْنِ الأُحْدوثَةِ أو بما يحصُل مِنْ أجر عاجل أو آجل.

وكذلك القولُ في حَمْلِ المخالفين على الشيء بالرَّغبة والرَّهبة، فإذا كان الخطيب معتمِدًا على قُوَّة، وعَلِم أنَّ للمخاطَبين من الحِدَّة والعصيان ما يُحبِط سعيَ الخطيب، فعليه أن يتَظاهرَ بقُوَّتِه بَادِئَ الأمر؛ لِيَفُلَّ من تلك الحِدَّة، كما فعل الحَجَّاج يوم دخوله الكوفة بعد وقعة دَيْر الجَماجِم[٢].

---

(١) **النشوز**: الترفُّع.

(٢) أمَّا خطبته يوم دخل الكوفة **فهي**:

«أنا ابنُ جَلا وطلاعُ الثنايا متى أضعِ العِمَامة تعرفوني

أمَا واللهِ إني لأحتمِلُ الشَّرَّ بحِمْلِه، وأحذُوه بنَعْلِه، وأجزيه بمثله، وإني لأرى رؤوسًا قد أينعَتْ وحان قِطَافُها، وإني لَصَاحبُها، وإني لأنظرُ إلى الدِّمَاء تَرَقْرَقُ بين العمائم واللِّحَى. إني والله يا أهل العراق، والشِّقاق والنِّفاق، ومساوئ الأخلاق، ما أُغْمَزُ تَغْمَازَ التِّين، ولا يُقَعْقَعُ لي بالشِّنان، إن أمير المؤمنين كَبَّ كِنَانَتَه ثم عَجَم عِيدَانَها فوجدني أَمَرَّها عُودًا، وأصلبَها عَمُودًا، فوجَّهني إليكم... إلخ». انظرها في البيان والتبيين وفي كامل المبرد.

وأما خطبته بعد دير الجماجم فهي: «يا أهل العراق: إن الشيطان قد اسْتَبْطَنَكم فخالَط =

هذا وقد يجهل المتكلِّمُ في غرضٍ ضمائرَ الناس، ولا يَزِنُ مراتبَ عقولهم، فينبغي له أن يتفطَّن لِمَا يلوحُ عليهم من الانفعال، فيفاتحُهم بما يُثير انفعالَهم مِن أمورٍ صالحة لأغراض مختلفة، حتى يرى أَمْيَالَهم[1] إلى أيَّةِ وِجْهَةٍ تُولِّي، فيعلم من أيِّ طريق يسلك إليها، ولا بد في هذه المُفَاتَحة من جَلْب التَّوْرِيَات والتَّوجيهات ونحوها، مما يمكن تأويلُه ويتيسَّرُ له عند إجفالِهم تحويلُه، حتى لا يَسترسِلَ في موضوعه فيعسُرَ عليه الرُّجوع إلى تعديله، وانظر ما قصَّه الله تعالى في كتابه الحكيم عن مؤمن آل فرعون: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ﴾ فورَّى في اللَّوْم؛ **أي**: كيف تفعلون هذا بِمَنْ يختارُ لنفسِه ربًّا. ﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾، وهذا ارتقاءٌ في الحُجَّةِ. ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾، وهذا تزهيدٌ لهم في قتلِه، بتقديم احتمال الكذب ليظهر أنه قَصَد الإنصاف. ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ وهذا تحضيرٌ لنفوسهم إلى تَرَقُّبِ صدق مُعجِزَتِه ووعدِه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾، وهذا تَوْرِيَةٌ أيضًا؛ **أي**: إنكم تنتظرون ما يتبيَّنُ من أَمْرِه، فإنَّ الله لا يُصدِّقُ الكاذبَ بخارِقِ العادة. ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ [غافر: ٢٨، ٢٩]

= اللحم والدَّم والعَصَب والمسامع والأطراف، فحشَاكم نفاقًا وشِقَاقًا، وأشعَرَكم خلافًا، اتخذتموه دليلًا تتَّبعونه، وقائدًا تُطيعونه، ومُؤامَرًا تستشيرونَه، فكيف تنفعكمْ تجربة، أو تَعِظُكم وَقْعة، أو يحجُرُكم إسلام، أو ينفعُكم بيان. ألستم أصحابي بالأهواز، حين رُمْتُم المَكْر، وسعيتم بالغَدْر، واستجمعتم الكفر، وظننتم أنَّ الله يخذُل دينَه وخِلافته، وأنا أرميكم بطَرْفي، وأنتم تتسلَّلون لِوَاذًا، وتنهزمون سِرَاعًا. ثُمَّ يومُ الزَّاوية وما يومُ الزَّاوية، بها كان فشلُكم وتنازُعكم وتخاذُلكم، وبراءةُ الله منكم، ونكوصُ وليِّكم عنكم... إلخ». انظرها في البيان والتبيين. (المؤلف). البيان والتبيين (٢/ ١٣٨، ٣٠٧). الكامل (٢/ ٤٩٤).

(١) **الأميال**: جمع مَيْل، وهو مصدرُ مال يميل. وجمهور النحويين على أن المصادر لا تجمع، فلعلَّ للمؤلف رأيًا في ذلك.

وهذا توبيخٌ وتقريعٌ؛ لأنَّه قد أوجب بما تقدَّم انفعالَ نفوسِهم لِقَبوله؛ **أي**: لا تكونوا سببًا لزوال سُلْطانِكم بالتعرُّضِ لسَخَط الله. إذ لا شك أن هذا المؤمنَ الصَّالحَ كان يتَرقَّبُ مِنْ قومِه الإجْفَالَ والتَّكَشُّفَ على إيمانِه، فأظهَرَ لهم الكلامَ في مَظهر المُتَردِّدِ الخائف مِنْ حُلُول المصائب به وبقومه، لا المُنتَصِر لموسى عليه السلام.

وإنما تظهرُ مَواهِب الخطيب وحِكْمتُه وبلاغتُه في هذا المقام؛ لأنَّ مَنْ تكلَّم عن احتراسٍ وسوءِ ظَنٍّ بسامعيه حَاطَ لِنَفْسِه من الغَلَط؛ لأنَّ شِدَّة الثِّقَةِ بالنَّفْس تُغَطِّي على عَوارِها فلا يَتَّقِيه ربُّها.

ومن هذا أن يتركَ لنفسه بابًا لتَدارُك فائت، كما قال الحريريُّ في المقامة الثانية والعشرين[١] - بعد أن ذكر استرسال أبي زيد السَّروجِيِّ في تفضيل كتابةِ الإنشاء على كتابة الحِسَاب -: «فلما انتهى في الفَصْل، إلى هذا الفَصْل[٢]، لَحَظ من لمَحَات القوم أنَّه ازْدَرَع[٣] حُبًّا وبُغْضًا، وأرضَى بعضًا وأَحْفَظَ[٤] بعضًا، فعَقَّب كلامَه بأن قال: ألا إنَّ صِنَاعة الحساب موضوعةٌ على التَّحقيق، وصناعة الإنشاء مَبنِيَّةٌ على التَّلفيق». هذا إن كان المتكلِّم مُفَاتِحًا بالكلام، فأما إن كان مُجِيبًا فقد يلاحظ من أصول المُجَادَلة ما يطول بسطُه هنا، وعلى كلِّ حال فعليه أن يَخْتَبِئ للمعترضين من الرُّجُوم، ما يَقِيه وَصْمَة الإرْتَاج عليه أو الوُجُوم.

وأما الأمر الرابع وهو قوَّة البَدَاهَة في استحضار المعاني - وسماه أبو هلال في الصناعتين بـ(انتهاز الفرصة)[٥] -: فهي من أهمِّ ما يلزم

---

(١) وهي المقامة الفراتية ص (١٦٢).
(٢) الفصل (الأولى): **أي**: فصل الحكم بين الحق والباطل. والفصل (الثانية): الحدّ. فبينهما جناسٌ تام.
(٣) **أي**: زَرَع. (٤) **أي**: أغضبَ.
(٥) الصناعتين (١٨). ولم أقف على من ذكره من البلاغيين سوى أبي هلال، والمَرَّاكُشي في ضوء الصباح (٣٢٤)، وتبعه الأخضري في شرح الجوهر المكنون (٤٠٥).

الخطيب؛ إذ ليس يخلو من سامعٍ يدافع عن هواه، أو عدوٍّ يترصَّدُ سَقَطات الخطيب ليُري الحاضرين أنه ليس على حقٍّ فيما قال، أو مُجيبٍ يُجيبُ عن تَقْريع الموعظة.

فإن لم يكن الخطيبُ قويَّ البَداهَة أَسْكَتَه المعترِضُ أو المجيبُ، وقد كان عمرُ رضي الله عنه مرَّةً يخطُب يوم الجمعة فدخل عثمان رضي الله عنه فقال له عمر: «أيَّةُ سَاعةٍ هذه؟! ما بالُ أقوامٍ يسمعون الأذان ويتأخرون. فقال عثمان: ما زِدْتُ على أن سمعتُ الأذان فانقلبتُ فتوضَّأت. فقال له عمر: والوضوءَ[1] أيضًا! وقد علمتَ أنَّ رسول الله ﷺ كان يأمرُ بالغُسْل»[2]. ويُعين على ذلك تنبُّهُه لِمَا في كلام المجيب من مَجَاري الخَلَل ومواضع النَّقْد[3].

وأما شروطُ الخطيب في ذاتِه:

فمنها: جَوْدَةُ القَرِيحة، وهي أمرٌ غيرُ مُكتسَب، وقد قال موسى عليه السلام: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾﴾ [طه]، وسيأتي

(١) بالنصب، على أنه منصوب بفعل محذوف تقديره: أتخصُّ الوضوءَ. شرح صحيح مسلم للنووي (٦/ ١٣٤)، وجوز القرطبي الرفع على أنه مبتدأ لخبر محذوف تقديره: والوضوءُ يُقتصَر عليه. المفهم (٢/ ٤٨١).

(٢) رواه البخاري (٨٧٨)، ومسلم (١٩٩٢)، عن ابن عمر رضي الله عنهما. وأخرجه مسلم (١٩٩٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) من هذا ما حُكِي أنَّ عبد الرحمٰن بن معاوية ـ الداخل إلى الأندلس ـ لما فتح سَرَقُسْطَةَ أقبلَ خواصُّه يهنِّئُونَه فدخل معهم بعضُ الجُنْد فهنَّأه بصوت عالٍ، فقال له الأمير: «والله لولا أنَّ هذا اليوم يومٌ أَسبغَ فيه النِّعْمَةَ عَلَيَّ مَنْ هو فوقي فأوجبَ ذلك عَلَيَّ أن أُنْعِمَ فيه على مَنْ هو دوني لأُصْلِيَنَّكَ ما تعرَّضْتَ له من سُوء النَّكال. مَنْ تكونُ حتى تُقبلَ مُهَنِّئًا رافعًا صوتك غيرَ متهيِّبٍ لمكان الإمارة؟! وإن جَهْلك ليحملُك إلى العَوْد لمثلها فلا تجد مثل هذا الشافع في مثلها من عقوبة»، فقال له: «لعلَّ فتوحات الأمير يقترن اتصالُها باتصال جهلي وذنوبي فتشفع لي متى أتيت بمثل هذه الزَّلَّة لا أعدمنيها الله». فتهلَّلَ وجهُ الأمير، وقال له: «ليس هذا اعتذارَ جاهلٍ» ورَفَعَ مرتبتَه، فلولا أنَّ كلامَ الأمير هيَّأ له العذرَ ولقَّنَه إياه لبُهِتَ مِن حينِه. (المؤلف).
ينظر: نفح الطيب (٣/ ٤٢).

لذكر اكتسابها كلامٌ في عيوب الخطباء. قال أبو هلال: «مِن الناس مَن إذا خلا بنفسه وأَعْمَل فِكْرَه أتى بالبيان العجيب، واستخرجَ المعنى الرَّائق، وجاء باللفظ الفائق، فإذا حاوَر أو ناظَر قَصَّر وتأخَّر، فخَلِيقٌ بهذا ألا يتعرَّض لارتجال الخُطَب. ومنهم مَن هو بالعكس.

ومنها: أن يكون رابط الجَأْش؛ **أي**: غير مُضطَرِبٍ في فَهْمِه ولا مندَهِش؛ لأنَّ الحَيْرة والدَّهَش يصرِفان الذِّهْنَ عن المعاني فتجيءُ الحُبْسَة ويُرتَج على الخطيب»[1].

ومنها: أن يكون مرموقًا من السَّامعين بعين الإجلال؛ لِتُمْتَثَلَ أوامرُه[2]، ويحصلُ ذلك بأمور كثيرة:

منهـــا: شَرَفُ المَحْتِد[3]، **قال الشاعر**:

لَقَدْ ضَجَّتِ الأرْضُونَ إذْ قَامَ مِنْ بَنِي ... سَدُوسٍ خَطِيبٌ فوقَ أعْوَاد مِنْبَرِ[4]

وكذلك: حفظ العِرْض؛ بحيث لا تُحفَظ له هَنَةٌ[5] أو زَلَّةٌ، وقد رُوي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: «احذر من فَلَتاتِ الشَّباب، كُلَّ ما أَوْرَثَكَ النَّبَز[6] وأَعْلَقَك اللَّقَب، فإنه إن يعظُمْ بعدها شَأْنُك يَشتدَّ على ذلك نَدَمُك»[7]. وفي متابعة آداب الإسلام والوقوف عند شرائعه مِلاك ذلك كلِّه.

ومثل ذلك: رَجَاحَة الرأي وقوَّة العِلْم والحكمة، **قال أبو واثلة يهجو عبد الملك بن المهلب**:

---

(١) الصناعتين (٢٠).

(٢) **ينظر**: الخطابة لأرسطو (٣٠) ترجمة: د. عبد الرحمٰن بدوي.

(٣) المحتِد: الأَصْل.

(٤) البيت لكعب بن معدان الأشقري كما في المحتسَب لابن جني (١/ ٢١٨). وتسكين (الراء) من (الأرضون) ضرورة.

(٥) **هَنَة**: خَصْلة الشَّر، وجمعها: هَنَاتٌ.

(٦) **نَبَز**: جمع أنباز، مثل لقب وألقاب ـ وزنًا ومعنًى ـ والأكثر إطلاقه في الذم.

(٧) البيان والتبيين (٢/ ٢٨٦).

لقد صَبَرَتْ للذُّلِّ أعوادُ مِنْبَرٍ ... تقومُ عليها في يديك قَضِيبُ
بكى المِنْبَرُ الغَرْبِيُّ إذ قُمْتَ فوقَه ... فكادت مَساميرُ الحديدِ تذوبُ
رأيتُك لمَّا شِبْتَ أَدْرَكَكَ الذي ... يُصِيبُ سَرَاةَ الأَزْدِ حين تَشيبُ
سَفاهَةُ أحلامٍ وبُخْلٌ بِنائلٍ ... وفيك لِمَنْ عَابَ المَزُونَ[1] عُيوبُ[2]

فهذه أهمُّ الشروط الذاتية.

ويَعُدُّ علماء الأدب تارةً صفاتٍ أخرى هي بالمحاسن أشبه، مثل سكون البَدَن وقت الكلام؛ لأنه دليلٌ على سكون النَّفْس، ولا يوجد هذا في كل خطيب[3].

ومثل ما سماه أرسطو بـ(السَّمْت)[4] وهو أن يكون على هيئة مُعْتبَرَةٍ في نفوس الجمهور من لُبْسِه وحَرَكتِه ونحو ذلك[5]، وقد أشار الحريريُّ إلى هذا في المقامة (٢٨) فقال: «برزَ الخطيبُ في أُهْبَتِه، مُتَهادِيًا خَلْفَ عُصْبَتِه»[6]. فأشار إلى تصنُّعِه في لباسه ومشيه.

ومثل مناسبة طَبَقَةِ الصَّوْت لموضوع الخطبة[7] وغير ذلك.

---

(١) **المزون**: هو الذاهب إلى وجهه. (المؤلف). قال المعتني: الأظهر أنَّ المزون هنا: اسمٌ لأرض عمان وأهلها من الأزد، رهط المُهَلَّب بن أبي صُفرة. **قال البعيث اليَشْكُرِيُّ يهجو المُهَلَّبَ** (اللسان ـ مزن):

تـبـدَّلَـتِ الـمَـنـابِـرُ مـن قُـرَيْـشٍ ... مَـزُونِـيًّـا بـفَـقْـحَـتِـه الـصَّـلِـيـبُ
فـأَصْـبَـحَ قـافِـلًا كَـرَمٌ ومَـجْـدٌ ... وأَصْـبَـحَ قـادِمًـا كَـذِبٌ وحُـوبُ
فـلا تَـعْـجَـبْ لـكـلِّ زمـانِ سَـوْءٍ ... رِجـالٌ والـنـوائـبُ قـد تَـنُـوبُ

(٢) البيان والتبيين (١/ ٢٩٢).

(٣) **ينظر**: البيان والتبيين (١/ ٩١).

(٤) الخطابة (١٠).

(٥) **ينظر**: تلخيص الخطابة لابن رشد (١٧). وقد خالف في ذلك سهل بن هارون. **ينظر**: البيان والتبيين (١/ ٨٩).

(٦) المقامة السمرقندية ص (٢١٤).

(٧) روى مسلم عن جابر ﷺ قال: «كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرَّت عيناه، وعلا صوته، واشتدَّ غضبه، حتى كأنه منذرُ جيشٍ يقول: صبحكم ومساكم». قال النووي: «يستحب للخطيب أن يفخِّم أمرَ الخطبة، ويرفع صوته، ويجزل كلامه، ويكون مطابقًا =

وأما شروط الخطيب في نفسه فأهمها:

اعتقادُه أنه على صواب وحقٍّ؛ لأنَّ ذلك يودِع كلامَه تأثيرًا في نفوس السامعين، وأقوى له في الدعوة إليه والدفاع عنه، ويحصُلُ ذلك بالتزامه متابعةَ الحقِّ، وبكونه على نحو ما يطلبُه من الناس[1]. وانظر ما حكاه الله تعالى عن شعيب عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ٨٨﴾ [هود].

ومنها: عِفَّتُه ونزاهتُه.

ومنها: الوَقَار والصَّون عن الابتذال في معاشرة القوم، وعدم الإكثار من الهَزْل والسُّخْف والفُحْش والخِفَّة والطَّيْش.

ومنها: النَّزَاهة عن الطَّمَع في جَرِّ نَفْعٍ من كلامه؛ فإنَّ في ذلك نُفْرَةً عن اتِّعَاظ الناس بقوله، وظِنَّةً في صِدْق دَعْوتِه، **وقد قال السَّروجيُّ بعد أن قام خطيبًا:**

لَبِسْتُ الخَمِيصَةَ أبغي الخَبيصَهْ   وأَنْشَبْتُ شِصِّيَ في كُلِّ شِيصَهْ[2]

ولقد يجدرُ بنا إذ[3] بَلَغْنَا هذا الموضعَ أن نختِمَه بذِكْر بعض **عيوبٍ يكثُر عُروضُها للخُطَباء** ليتنبَّه المُطالِعُ إلى تجنُّبِها.

= للفَضْل الذي يتكلم فيه من ترغيب أو ترهيب. ولعلَّ اشتداد غضبه كان عند إنذاره أمرًا عظيمًا وتحديده خَطْبًا جسيمًا». شرح صحيح مسلم (٦/ ١٥٧).

(١) ولذلك فإنَّ اطِّلاع السامع على عيب الخطيب يصدُّه عن الانتفاع بالعِظَة. قال ابن القيم: «وإنما ينتفع بالعظة بعد حصول ثلاثة أشياء: شدة الافتقار إليها، والعمى عن عيب الواعظ، وتذكر الوعد والوعيد». مدارج السالكين (٢/ ١٥).

(٢) فذكَر أنه احتاج إلى سَتر مقصِده بلُبْس الخَمِيصَة. **والشِّص** ـ بالكسر ـ هو الصِّنَّار الذي يُصَادُ به. والشِّيصَة: واحدة الشِّيص وهو نوعٌ من السَّمَك، وإنما خَصَّ هذا النوعَ بالذِّكْر ليتأتَّى له التجنيس. (المؤلف). قال المعتني: **ينظر**: مقامات الحريري (١٣).

(٣) الأصل: إذا.

واعلم أنها تنقسم إلى فطري وإلى مكتسب:

فأما الفِطْرِيُّ: فمنه ما يمكن تجنُّبُه بكثرة الممارسة، نحو: الحُبْسَة عند التكلُّم، فقد كان عمرو بن سعد بن أبي العاص ـ البليغ الخطيبِ ـ في أول أمره لا يتكلَّم إلا اعْتَرَتْه حُبْسَةٌ[١] في مَنْطِقِه، فلم يزل يَتَشَادقُ ويُعَالِجُ إخراج الكلام حتى مال شِدْقُه مِنْ كثرة ذلك، ولُقِّب لذلك بـ(الأشدق) **فقال فيه الشاعر:**

تَشَادَقَ حتى مَالَ بالقَوْلِ شِدْقُهُ   وكلُّ خطيبٍ لا أبا لكَ أَشْدَقُ[٢]

وقد اعتقد الناس فيه حين انتقل من الحُبْسَة إلى الفصاحة أن الجِنَّ لَطَمَتْهُ على وجهِه ليتعلَّم الفصاحة، وكذلك كان اعتقادهم في الشُّعراء أن الجن تَتَراءى لهم وتُمْلِي عليهم، **فقال في ذلك الشاعر:**

وعمرٌو لَطِيمُ الجِنِّ وابنُ محمَّدٍ   بأسوأ هذا الأمرِ مُلْتَبِسَانِ[٣]

وسبَّه رجلٌ يومًا فقال له: «يا لَطِيم الشيطان، ويا عاصي الرحمٰن»[٤].

ومِنْ قَبْلُ حُكِي مثل هذا التدرُّب عن ديموستين خطيبِ اليونان في عهد الإسكندر الأكبر، وقد تقدم ذلك في مقدمة قسم الإنشاء[٥].

ونحو سقوط الأسنان، وكان عبد الملك بن مروان رَحِمَهُ اللهُ قد شَدَّ أسنانه بالذهب لما كبِرت سِنُّه وقال: «لولا المنابرُ ما باليتُ متى سَقَطَتْ»[٦].

---

(١) **الحبسة**: تعذُّر الكلام وثِقَله عند إرادته، وهو دون الفأفأة والتمتمة. **ينظر**: البيان والتبيين (١/ ٣٩)، الكامل للمبرد (٢/ ٧٦١).

(٢) أنشده الجاحظ في البيان والتبيين (١/ ٣١٥). **وينظر**: فن الخطابة للشيخ علي محفوظ (١٩).

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

(٥) **ينظر**: ص (٥٢).

(٦) البيان والتبيين (١/ ٦٠).

ومن العيب الفِطْري ما لا يمكن تجنُّبه كبُحَّةِ الصوت، والفَهَاهَةِ[1]، واللُّثْغَةِ ببعض الحروف[2] وضِيق النَّفَس فجديرٌ بصاحبها أن يتجنَّب هذه الصِّنَاعة.

وأما العيب المكتسب: فهو أشياء تعرِض للخطباء في أول اشتغالهم بالخطابة من أفعالٍ تصدُر عن غير اختيار، فإن هم غفلوا عن مراقبة أنفسهم لإزالتها صارت لهم عوائدَ سيئةً، وقد نَهى الأدباءُ عن أمورٍ من ذلك؛ كالتَّنَحْنُح، ومَسْح اللِّحْية في أثناء الخطبة لا عند الشروع[3] ـ على أنه يُغتفَر منه ما لا يَكثرُ، إذا طال الكلامُ جدًّا ـ وحكُّ الجِلْد، وفَتْلُ الأصابع، وكثرةُ حَرَكة الأيدي والبَدَن، والتمخُّط، وغيرُه. **قال مَنْ ذمَّ خطيبًا:**

مليءٌ بِبُهْرٍ والتفاتٍ وسَعْلَةٍ ... ومَسْحَةِ عُثْنُونٍ وفَتْلِ الأصابعِ[4]

❁ ❁ ❁

---

(١) **الفهاهة**: العِيُّ.

(٢) إن اللُّثْغَة ببعض الحروف هو قلبُها إلى حرفٍ آخر؛ كقلب الراء غَيْنًا، والشين ثاءً، ويتعذَّر التفادي منه إلا ما رُوي نادرًا عن واصل بن عطاء الغزَّال أنه كان يلثَغ بالراء غينًا فتجنَّبَ في كلامه كلَّ لفظٍ فيه راءٌ وعوَّضَه بمرادفِه. (المؤلف). **ينظر**: البيان والتبيين (١/ ٣٤).

(٣) لأن التنحنح عند الشروع يعين على رفع الصوت. قال الحريري في المقامة الحادية والثلاثين: «تسنَّم إحدى الآكام، ثم تنحنح مستفتحًا للكلام». وقال في المقامة الثلاثين: «فلما جلس على زُرْبِيَّتِه، وسكنت الضَّوْضَاءُ لهيبتِهْ، ازدلف إلى مَسْنَدِه، ومسح سَبَلَتَهُ ـ لحيته ـ بيده». ومَسْحُ اللحية عادةٌ عربيةٌ عند ابتداء الكلام في غَرَضٍ مهم، **قال الشاعر**:

فأقسمُ لو أَنْدَى النَّدِيُّ سوادَه ... لَمَا مَسَحَتْ تلك المُسَالاتِ عامرُ

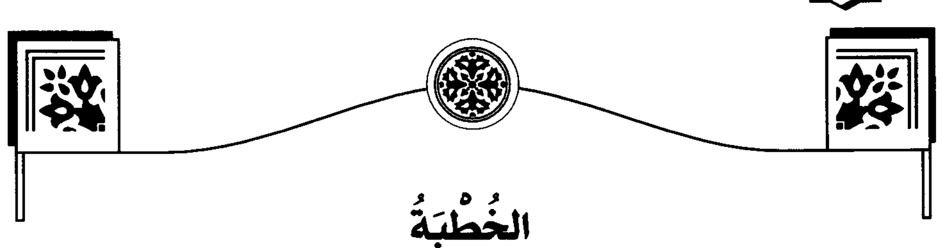
المُسَالات: جمع مُسَالة وهي اللحية. وعامر: قبيلة، أراد أنهم إذا اجتمعوا في النوادي لا يستطيعون الكلام. (المؤلف). قال المعتني: ومن ذلك **قول الأسعر الجعفي**:

مسحوا لحاهم ثم قالوا سالموا ... يا ليتني في القوم إذ مسحوا اللِّحى

قال الأصمعي: «هذا سنة العرب، كان أحدهم إذا أراد أن يخطب مسح لحيته وعثنونه». سمط اللآلئ (١/ ١٣٢).

(٤) أنشده الجاحظ في البيان والتبيين (١/ ٤). **والبُهْر**: انقطاع النَّفَس من الإعياء.





الخُطْبَةُ

قد عَرَفْتَ حقيقتَها مما تقدَّم، وليس لمقدارِها حَدٌّ محدودٌ، ولكنها تكون بحسب الغرض الذي دعا الخطيبَ للكلام، ثم تكون بحسب ذلك الغرضِ بَيْنَ موجَزةٍ ومُطْنَبَةٍ ومتوسطة بحسب ما يأتي في المقامات، ولذلك تكلَّم الفقهاء على أقلِّ مقدار خطبة الجمعة والعيدين، والمرويُّ في المذهب[(١)] أنَّ مسمَّى الخطبة: «حمدُ الله، وصلاةٌ على رسوله ﷺ، وتحذيرٌ وتبشيرٌ، وقرآن»[(٢)]، وذلك لأنَّ غرض الخطبة الدينية لا يُقَصِّر عن ذلك إلا أنَّ الخطبة التامَّةَ تطول وتقصُر بحسب الحاجة، ألا ترى أنَّ النبيَّ ﷺ كان يقصِّر الخطبة الجُمُعِيَّة، وأطال خطبة الحج؛ لأنَّ الأُولى تتكرَّر فيُقتصَر فيها على ما دعت إليه الحاجة في تلك الجمعة بخلاف الأخرى.

ومتى نظرنا إلى أغراض الخطباء في تركيب الخُطَب نجد الخطبة تعتمد على أركان سبعة:

الركن الأول: الدِّيبَاجة: وهي فاتحة الخطبة المشتملة على حَمْدٍ وثناءٍ على الله تعالى، وصلاةٍ على رسوله، وما هو من ذلك القبيل. قال أبو هلال: «لأنَّ النفسَ تتشوَّقُ[(٣)] للثناء على الله تعالى فهو داعيةٌ إلى

---

(١) **أي**: المذهب المالكي، فالمؤلف من فقهاء المالكية.

(٢) ذكره ابن العربي المالكي كما في حاشية الدسوقي على الشرح الكبير (١/ ٢١٤)، والمشهور عند المالكية أن ركن الخطبة أقل ما يُسمَّى خُطْبَةً عند العرب، ولو سَجْعَتَيْنِ، نحو: «اتقوا الله فيما أَمَرْ، وانتهوا عما نهى عنه وزَجَرْ». الشرح الصغير (١/ ٢١٤).

(٣) الصناعتين: تتشوف.

الاستماع»(١). وقال الجاحظ: «ما زال السلفُ يُسَمُّون الخطبةَ التي لم يَفتتِح صاحبُها بالتَّحميد (البَتْرَاء)، والتي لم تُوَشَّحْ بالقرآن والصلاة على النبي ﷺ (الشَّوْهَاء)»(٢). ومن أجل ذلك لُقِّبَتْ خطبةُ زياد بن أبي سفيان بـ(البتراء)، وهي التي خَطَبَها بالبصرة، وأولها: «أمَّا بعدُ: فإنَّ الجَهَالةَ الجهلاء، والضَّلالةَ العَمْيَاء، والغَيَّ الموفيَ بأهله على النَّار، ما فيه سفهاؤكم ويشتمل عليه حُلَمَاؤُكم، من الأمور العِظَام ينبُت فيها الصَّغير، ولا يتحاشى منها الكبير... إلخ»(٣). وفي التَّسْمِيَة إشارةٌ إلى حديث: (**كلُّ أَمْرٍ ذي بَالٍ لا يُبْدَأُ فيه بِاسْمِ الله فَهُوَ أَبْتَرُ**)(٤). وسميت خطبة سَحْبَان بـ(الشَّوْهَاء)(٥) ـ خَطَب بها في مجلس معاوية ـ. وقيل: سميت بذلك لحسنها(٦).

ويُستحسَن في الدِّيبَاجة الإيجازُ والارتباطُ بالمقصود، ويسمى ذلك بـ(براعة الاستهلال)(٧). كما يُستحسَن فيها الاعتناءُ بالبلاغة والصِّنَاعة، ويحسُن وَقْعُ السَّجع فيها لأنه يُضَارِع الشِّعْر(٨) فينشِّط النَّفْس، ويُهَيِّئُ الأذهان إلى ما سَيُلقَى إليها.

وليس يصعب على الخطيب الحاذق التَّأنِّي في الفاتحة؛

---

(١) الصناعتين (٤٣٧).
(٢) البيان والتبيين (٢/٦).
(٣) البيان والتبيين (٢/٦٢).
(٤) رواه الخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/٦٩)، وهو خبرٌ منكَر. **ينظر**: إرواء الغليل (١/٢٩). وكان الأَوْلى هنا ذِكْرُ رواية (التحميد) لأمرين: **الأول**: أنها قابلة للتحسين كما يقول الألباني. **الثاني**: أنها هي المناسبة لاستدلاله على أنَّ (البتراء) التي لم تُفتتح بالتحميد.
(٥) البيان والتبيين (١/٣٤٨).
(٦) إذ (الشوهاء) في كلام العرب قد يطلق على العابسة والجميلة. (المؤلف).
(٧) قال ابن المقفع: «ليكن في صدر كلامك دليلٌ على حاجتك». البيان والتبيين (١/١١٦). وهذه التسمية (براعة الاستهلال) فرَّعها المتأخرون على (حسن الابتداء). **ينظر**: أنوار الربيع (١/٥٣).
(٨) فالأسجاع في النثر؛ كالقوافي في الشعر.

لأنها لما كانت مشتملةً على أمور عُمومِيَّةٍ أمكنَ تحضيرُها من قبلُ في النَّفْس، وإنما يظهر الحِذْقُ في حُسْنِ مناسبتها للغَرَض وإشارتها إليه. وقد عَدَّ علماء البلاغة فاتحة الكلام من مواطن تأنُّق المتكلِّم(١).

الثاني: التَّخَلُّصُ: وهو مَوْقِعُ (أمَّا بعدُ) ونحوها، مثل: (أيُّها الناس)، والشرط فيه أن تكون الدِّيبَاجَة قد هيَّأت النفوس، وأشعرت بالغَرَض المطلوب.

الثالث: المقدِّمة: وهي مَبْدَأ الخطبة في الحقيقة، ونعني بها الكلام الذي يُقصَد منه تهيئة نفوس السامعين لتلقِّي ما سَيُلقَى إليهم بالتَّسليم.

وطريقة ذلك: أن يستعين الخطيب بما يَعْلَمُ من سَجَايا الأقوام ومقادير انفعالاتهم، على اختلاف الطبقات والعصور والعقائد، فيأتي لكل فريق بمقدِّماتٍ تهيئ لقَبول الغرض، ولذلك لم يلزم أن تكون المقدمة صحيحةً، بل يكفي أن تكون مقبولةً مسلَّمة، ولو كانت وَهْمِيَّةً.

وقَصْدُ الخطيبِ قَمْعُ الهوى ومحاولةُ الصَّلاح، والهوى حائلٌ قويٌّ دون الحق، فإذا أُرِيد الإقناعُ بشيءٍ فمن الواجب ألا يَنْقَضَّ عليه، بل يحومُ حوله وينتهزُ الفرصة لتحصيله، وبمقدار الظن بِبُعْدِ نفوس السامعين عن الاعتراف بالحقِّ ينبغي للخطيب الإبعادُ بالمقدِّمات.

ويتوصَّل الخطيب إلى انتهاز الفرصة التي تقوم مقام تطويل المقدِّمة بالاستعانة بأمور:

أحدها: المعتقَدات الثابتة في النفوس، ولو كانت غير صحيحة كما أشرنا إليه، ويظهر اختيار بعض طرائق الانفعال دون بعض في هذا المجال، وهو من أهم ما يتفطَّن له الخطيب اللبيب، ألَا ترى أنَّ النبي ﷺ لَمَّا خَطَب النساء ورَغَّبَهُنَّ في الصَّدَقة قال: (**يا معشر النِّسَاء**:

(١) الإيضاح (٥٩١).

تَصَدَّقْنَ، رُبَّ كَاسيةٍ في الدُّنيا، عَارِيةٌ[١] **يَومَ القِيَامة)**[٢]. فقد كانت طرقٌ أخرى من التحذير أشدَّ من هذا إلا أنَّ النِّسَاء لَمَّا كُنَّ يَتَّقين العَرَاء والكَشْف كان ذكره من أشدِّ ما تنفعلُ له نفوسهن.

ثانيها: القضايا الكُلِّية والمُسَلَّمة؛ كقول عثمان رضي الله عنه في خطبةٍ له في شأن النَّاقمين عليه وتحذير المسلمين من سوء نواياهم[٣]: «أمَّا بعدُ، فإنَّ لكل شيءٍ آفةً، ولكل نعمةٍ عاهَة، وإنَّ آفة هاته الأمةِ وعاهةَ هذه النِّعْمَةِ عَيَّابون طَعَّانون، يُظهِرون لكم ما تُحِبُّون، ويُسِرُّون ما تكرهون، لقد أقررتم لابن الخطاب بأعظم مما نَقَمتم عليَّ، ولكنه وَقَمَكُم[٤] وقَمَعَكُم. . . إلخ»[٥].

ثالثها: النَّوازل الحادثة، فإنها فُرَصٌ للموعظة، والنُّفوسُ عند نزولها سريعةُ الانفعال رقيقةُ الوِجْدَان، وللُّنفوس غِرَّةٌ[٦] كغِرَّةِ الصَّيْد فإذا لم يُضِعْهَا الخطيبُ أصابَ منها الغرض، ولهذا سُنَّت الموعظةُ عند خسوف الشمس.

---

(١) قال القاضي عياض: «بالكسر فيهما ـ **أي**: في (كاسية) و(عارية) ـ والضم في عارية أعرب وأوجه، وهو قول سيبويه، وأكثر روايات الشيوخ». مشارق الأنوار (٢/ ٣٥٥).

(٢) خلط المؤلف هنا بين حديثين، أما الشطر الأول وهو قوله: **(يا معشر النساء: تصدَّقْ)** فرواه البخاري (٢٩٨) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، ومسلم (٢٥٠) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه. وأما الشطر الثاني فرواه البخاري (٥٨٦٤) عن أم سلمة رضي الله عنها.

(٣) المعروف أن (النية) تجمع عليه (نيات)، أما (نوايا) فجمع ناوية وهي الناقة السمينة. وقد أقرَّ المؤلف بتخطئة هذا الاستعمال كما في مقالة له في المجلة الزيتونية (مجلد٢/ جزء٣/ ص١٣٤) سنة ١٣٥٦هـ. فلعله كان يرى صحتها أول الأمر، أو أنها جرت على لسانه ذهولًا، كما وقع لابن هشام فقد قال في المغني (٢٠٩): «قولهم: (لا غير) لحنٌ». ثم استعملها في كتابه (٣١٦). **تنبيه**: وهم الشيخ الحبيب ابن الخوجة في كتابه شيخ الإسلام ابن عاشور (١/ ٤٩٩) فذكر أنَّ ابن عاشور يرى صحة هذا الاستعمال مستندًا على المقالة المشار إليها.

(٤) الأصل: وفمكم. بالفاء الموحدة، وهو تصحيف.

(٥) البيان والتبيين (١/ ٣٧٧) بتصرف يسير.

(٦) **الغِرَّة** ـ بالكسر ـ: الغفلة.

ولقد أجاد الحريريُّ ما شاء حين تخيَّل أبا زيدٍ خطيبًا إِثْرَ دفن الجَنازة في المقامة الحادية عشرة إذ قال: فلما ألحدوا المَيْت، وفات قولُ لَيْت، أشرف شيخٌ مِن رِبَاوَة، مُتخَصِّرًا بِهِرَاوة، فقال: «لمثل هذا فليعمل العاملون، فادَّكِروا أيها الغافلون، وشَمِّروا أيُّها المقصِّرون، وأحسنوا أيُّها المتبصِّرون، ما لكم لا يحزنُكم دَفْنُ الأتراب، ولا يَهُولُكم هَيْلُ التُّراب.. إلخ»[1].

فأنت تراه كيف جعَلَه مُستغنِيًا بذلك عن مقدمة الخُطْبة.

ولَمَّا أَفْلَسَ الأُسَيفِع الجهني في زَمَن عمر بن الخطاب ﷺ خَطَب عمرُ فقال: «أما بعد، فإنَّ الأُسَيْفِعَ أُسَيْفِعَ جُهَينة قد رضي لدينه وأمانته أن يقال: إنه سَبَقَ الحَاجَّ، ألا وإنه قد تَدَاينَ مُعْرِضًا[2] فأصبح وقد رِينَ به[3]، فمن كان له عليه شيءٌ فليأتنا غدًا نقسِم ماله بالمسجد، وإياكم والدَّينَ فإنَّ أولَه هَمٌّ وآخره حَرَبٌ[4]». فتراه قد استغنى بالواقعة المُشَاهَدة عن تقديم المقدمة.

الرابع من أركان الخطبة: الغَرَضُ، وهو الذي من أجله انتصب الخطيبُ ليخطب، فَوِزَانُه وِزَان المطلوبِ في القياس المنطقي، ويعبر عنه بالنتيجة عند حصوله.

الخامس: البيان، أعني بيانَ الغرض وإيضاحَه، وذلك إما **بالاستدلال**، أو **التمثيل**، أو **الاستطراد**، أو **الإشارة**:

فالبيان **بالاستدلال** كثيرٌ بإقامة الدليل على صِحَّة الغَرَض والنِّضَال عنه.

---

(١) المقامة الساوية (٧٦). (٢) **أي**: معرضًا عن الأداء.

(٣) **رين به**: أحاط الدَّيْنُ بماله؛ **أي**: وقع فيما لا يستطيع الخروج منه.

(٤) **المراد بسبقه الحاج**: أنه كان يسبق فيكتري دوابَّ أهل مكة ليحتكرها فيكريها للحجاج بغلاء. وقوله: **حَرَب** ـ بالتحريك ـ مصدر حَرَبَهُ كطلبه بمعنى سلب ماله، فهو محروب وحريب. (المؤلف). قال المعتني: الأثر رواه مالك في الموطأ (٢/ ٧٧٠) (٨)، وفي سنده انقطاع.

وأما **التمثيل** فبابٌ واسعٌ من البيان للعامة؛ لأنه أخصر من الدليل، والأذهانُ إلى إدراكه أسرع. قال صاحب «الكشاف»: «ولِضَرْبِ العَرَبِ الأمثالَ، واستحضار العلماء المُثُل والنظائر شأنٌ ليس بالخفيِّ في إبراز خَفِيَّات المعاني، ورفع الأستار عن الحقائق، حتى تُريك المُتَخَيَّلَ في صورة المُحَقَّق، والغائبَ كالشاهد، وفيها تبكيتٌ للخَصْم الألدِّ، وقمعٌ لسَوْرَةِ الجامح الأبيِّ، قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت]»[(١)].

والتمثيلُ يكون بذِكْر الأمثال، ويكون بالبناء على اعتقادٍ أو قصَّة، وقد خطب عبد الملك بن مروان بالمدينة خطبةً اقتصر فيها على ذِكْر المَثَل، روى شارح ديوان النابغة عن أبي عبيدة قال: لما حجَّ عبد الملك أوَّل حجَّة حجَّها في خلافته، قدم المدينة فخطب فقال: «يا أهلَ المدينة: والله لا تحبوننا، ولا نحبُّكم أبدًا وأنتم أصحاب عثمان، إذ نَفَيْتُمُونَا عن المدينة ونحن أصحابُكم يوم الحَرَّة، فإنما مَثَلُنَا ومَثَلكم كما قالوا: إنه كانت حيَّةٌ مُجَاورةٌ رجلًا فوَكَعَتْه فقتلَتْه، ثم إنها دعت أخاه إلى أن يصالحها على أن تَدِي له أخاه فعاهدها، ثم كانت تعطيه يومًا ولا تعطيه يومًا، فلما تنجَّزَ عامَّةَ دِيَتِه قالت له نفسه: لو قَتَلْتَها وقد أَخَذْتَ عامَّة الدِّيَة، فأخذ فَأْسًا فلمَّا خَرَجَت لتعطيه ضَرَبَها على رأسها فسَبَقَتْهُ يدُه فأخطأ مقاتِلَها، فنَدِم وقال لها: تعالي نتعاقد أن لا نغدر، فقالت: أبى الصُّلْحَ القَبْرُ الذي بين عينيك، والضَّرْبَةُ التي فوق رأسي، فلن تحبَّني أبدًا ما رأيتَ قبر أخيك، ولن أحبَّك ما كانت الضَّرْبَة برأسي»[(٢)].

---

(١) الكشاف (١/ ٧٩).

(٢) ذكر هذا شارح الديوان عند ذكر النابغة هاته القصَّة في قصيدته الهائية التي طالعها: (ألا أبلغا ذبيان عني رسالة)، **وقال في آخرها عن قول الحَيَّة:**

(أبى لي قبرٌ لا يزال مقابلي وضربةُ فَأْسٍ فوق رأسي فاقِرَهْ).

(المؤلف). قال المعتني: **ينظر**: ديوان النابغة بشرح ابن عاشور (١٣١).

وروي أنَّ عليًّا رضي الله عنه لَمَّا رأى اختلاف جُنْدِه قال: «ألا إنما أُكِلتُ يوم أُكِل الثَّورُ الأبيض»[١] يريد أنَّ الاختلاف ابتدأ ظهورُه من يوم اختلاف الأمة على عثمان رضي الله عنه، وأشار بهذا إلى قصَّة عند العرب، وذلك أنهم زعموا أنَّ أسدًا وثَوْرًا أحمر وثَوْرًا أسود وثَوْرًا أبيض اصطحبوا في أَجَمَةٍ، فقال الأسد يومًا للثَّوْرَين الأحمر والأسود: هذا الثور الأبيض يفضحُنا بلونِه فلو تَرَكْتُمَاني آكلُه أَمْنًا، فأَذِنَا له في أَكْلِه فأكَلَه، ثم قال للأحمر: هذا الأسود يخالفُ لوننا فدَعْني آكلُه فأذن له فأكله، ثم قال للأحمر: لم يبق إلا أنا وأنت وأريد أن آكلك. فقال: إن كنتَ فاعلًا فدعني أصعدْ تلك الهَضَبة وأصيح ثلاثة أصوات، قال: افعل، فصعد وصاح: «ألا إنما أُكِلتُ يوم أُكِل الثَّوْرُ الأبيض» ثلاثًا[٢].

وأما **الاستطراد** فيكون بمدحٍ أو ذَمٍّ أو ثوابٍ، وأحسنُه ما اشتدَّت فيه المشابَهةُ كقول أبي حمزة[٣] الخارجيِّ في خطبة له خَطَبَها بالمدينة: «يا أهل مكة: أَتَعَيِّرُونني بأصحابي وتزعمون أنهم شباب؟! ويحكم! وهل كان أصحابُ رسول الله المذكورون في الخير إلا أحداثًا شبابًا، مكتهلون في شبابهم، غَضِيضَةٌ عن الشَّرِّ أعينُهم، ثقيلةٌ عن الباطل أرجلهم، أَنْضَاءُ[٤] عبادةٍ، قد نظر الله لهم في جَوْف الليل منحنيةً أصلابُهم على أجزاء القرآن. . . إلخ».

وقد يكون البيان **بالإشارة** كما خطب مصعب بن الزبير حين قدم

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٣٧٩٣٣) وفيه مجالد بن سعيد وهو ضعيف الحديث.

(٢) **ينظر**: مجمع الأمثال (١/ ٢٥)، لسان العرب (ثور).

(٣) أبو حمزة اسمه يحيى بن المختار، كان من خطباء الأباضية ونسَّاكهم، وهذه خطبة له ذكرها الجاحظ في البيان والتبيين، وقد يكون الاستطراد لا مناسبة فيه كقول كعب بن زهير: شُجَّتْ بذي شَبَم مِنْ مَاءِ مَحْنِيَةٍ. . البيتين. (المؤلف). **تنظر خطبة أبي حمزة في**: البيان والتبيين (٢/ ١٢٤).

(٤) **أنضاء**: جمع نِضْو، وهو النحيف؛ **أي**: أجهدوا أنفسهم بالعبادة حتى صاروا نِحَافًا.

العراق فإنه صعد المنبر ثم قال: ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ...﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ وأشار بيده نحو الشام. ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ...﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ وأشار بيده نحو الحجاز. ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.. إلى قوله: ﴿يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ١ ـ ٦] وأشار بيده نحو العراق. يريد بالأولى عبد الملك، وبالثانية أنصار أخيه بمكة، وبالثالثة الحجاج وأنصاره(١).

السادس: الغاية: وهي التَّحريضُ أو التحذير، وشأنُها أن تقع آخر الخطبة بعد ما تقدم، وقد يقدِّمُها الخطيب ثم يأتي بعدها بغيرها فتصير المقدمةُ دليلًا إذا تَأَخَّرَتْ، وتَعْرَى الخطبةُ عن المقدمة حينئذٍ.

السابع: خاتمة الخطبة: ويحسن فيها أن تكون كلامًا جامعًا لِمَا تَقَدَّمه، أو إشارةً إلى أنه قد أتى على المقصود وانتهى منه، أو أَمْرًا بالتثبيت أو دعاءً أو نحو ذلك، وإنما يكون ذلك عند إتيان الكلام المتقدِّم على الغَرَض المقصود واستيفائِه. وقد يكون ذِكْرُ الشِّعْر في الخطبة إشارةً إلى نهايتها كما سيأتي.

وللبحث عن كيفية تنسيق الخطبة ونَسْجِها مزيدُ تعلُّقٍ بهذا الفن حسبما أشرنا إليه عند الكلام على أصول الخطابة، ولا يكاد يستطيع أحدٌ حَصْرَ الضوابط في هذا الغرض؛ لأنه يأتي على جميع فنون البلاغة والأدب، فيوكَل ذلك إلى حُسْنِ اختيار الألمعي، ورَشِيقِ توقيف المُدَرِّس النِّحْرِير، إلا أنَّ جُمْلَة القول أنه لا يعدو المطابقة لمقتضى أحوال السامعين(٢)، واختلاف الأذواق باختلاف مراتب الأذهان والعصور

---

(١) البيان والتبيين (٢/ ٢٩٩).

(٢) ومن مراعاة أحوال السامع التنبه إلى أنه لا يخلو من **ثلاثة أحوال**: إما أن يعرف الحق ويعمل به، وإما أن يعرفه ولا يعمل به، وإما أن يجحده. **فالأول**: يدعى بالحكمة. **والثاني**: يوعظ الموعظة الحسنة. **والثالث**: يجادل بالتي هي أحسن =

والبلدان، فيكون على مِنْوَال كلٍّ ذلك نسيجُ معاني الخطب، وتنسيق ألفاظها، وهو ما يُعبَّر عنه بـ(اختلاف المقامات وخطاب كلِّ قوم بما يفهمون). وقد تقدم الإلمام بذلك في قسم الإنشاء، وفي ذكر الانفعالات في هذا القسم الخطابي.

فإذا خطب الخطيب في العامَّة فعليه بِسَهْلِ المعاني؛ لأن تركيبَ المعنى ودِقَّتَه لا يَتَوَصَّل لفهمه الذِّهْنُ البسيط، وبالضَّرورة يستدعي ذلك سهولة دِلالة الألفاظ؛ إذ هي قوالبُ المعاني، مع انتخاب سَهْلِهَا ومُتَعَارَفِهَا بدون ابتذال ـ كما تقدم في الإنشاء ـ.

وإذا خَطَب في الخاصَّة فليأت بالمعاني الرَّائقة، والحِكَم العالية، والألفاظ العَزِيزة المُعَبَّر عنها بـ(السَّهْل الممتنع)[1]؛ لأنه إذا أتى بما دون ذلك لا يُثير انفعالهم، ولا يَرُوقُ كلامُه في أسماعهم فلا يحفلون به، ولقد سمعت خطيبًا يخطب يوم الجمعة بخطبة من الخطب العتيقة في الحَضِّ على شكر النِّعْمة، فكان مما قاله: «ومِن النِّعَم نعمةٌ خاصَّةٌ كالمال، وقد كاد أن لا يكونَ شُكْرُها إلا عندها لا بها». فانظر كيف خاطب العامة بلفظ معقَّدٍ لا يُسرِع الذهنُ المتوسِّط لاستخلاص معناه؛ إذ جَمَع بين سِتِّ أدوات في جملة واحدة، وهي: كاد، وإن، ولا، ويكون، وإلا، ولا، ثم جمع بين نَفْيٍ مستفاد من (لا) وإثباتين مستفادٍ أحدُهما من (كاد) والآخر من (إلا) متوجه جميعها إلى جِهَةٍ واحدة،

= وعامة الناس يحتاجون إلى الطريقين الأولين؛ فإنَّ النفس لها هوى يدعوها إلى خلاف الحق وإن عَرَفَتْهُ. وعلى ذلك ورد قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥]. ينظر: الرد على المنطقيين (٤٦٨).

(١) قال ابن النقيب: «هو الذي يَظُنُّ مَنْ سمعَه لسهولة ألفاظه وعذوبة معانيه أنَّه قادرٌ على الإتيان بمثله، فإذا أراد الإتيان بمثلِه عَزَّ عليه مثالُه، وامتنع عن طالب معارضته فلا ينالُه». مقدمة تفسير ابن النقيب (٤٦٤).

وأما من جهة المعنى فقد أتاهم بمعنى غريبٍ دقيقٍ مقتبَسٍ مما يُقَرِّرُه المتكلمون في الكَسْب، وهو قولهم: «إنَّ الفعلَ يحصل عند المقدرة لا بها»[1].

وقد روي أن عمر ﵁ كان هَمَّ أن يخطب الناس في الحج في أمر الخلافة لَمَّا بلغه أن امرأً قال: لئن مات عمر لأبايعنَّ فلانًا، فما كانت بيعة أبي بكرٍ إلا فَلْتَةً فتمَّت. فقال له ابن عباس[2] ﵄: «يا أمير المؤمنين: إنَّ الموسم يجمع رَعَاع الناس، فربما سمعوا منك الكلمةَ فيُطَيِّرُوها عنك كلَّ مَطِير، فتربَّصْ إلى أن ترجع إلى المدينة فتخلُصَ إلى أصحاب رسول الله ﷺ وأهل العلم»[3]. فرأيُ حَبْر الأمَّة وموافقة عمر ﵄ أَدَلُّ دليلٍ على أنَّ من الأغراض ما يُضَنُّ به عن غير أهله، وفي الحديث: **(لَا تؤتوا الحِكْمَة غيرَ أهلِها فتظلموهَا، ولَا تمنَعوهَا أَهْلها فتُضيعوها)**[4] فبذلك فلتقتدوا.

---

(١) الكسب أحدثه الأشاعرة ليوفقوا بين الجبرية والقدرية، وقد عجزوا عن تفسيره حتى اختلفت أقوالهم فيه على أكثر من عشرين قولًا، قال ابن القيم في شفاء العليل (١/ ١٢٢): «وقد اضطربت آراء أتباع الأشعري في الكسب اضطرابًا عظيمًا، واختلفت عباراتهم اختلافًا كثيرًا». ثم قال ملخصًا لأقوالٍ ساقها إنه: «إجراء العادة بخلق الفعل عند قدرة العبد وإرادته لا بهما، فهذا الاقتران هو الكسب». ومآل قولهم إلى الجبر، فإنهم نفوا أيَّ قدرة للعبد أو تأثير، ولذا قال الرازي في تفسيره (٧/ ١١٤): «الإنسان مضطر في صورة مختار». أما حقيقة الكسب فهو مغالطة، ولذا قيل: «عجائب الكلام التي لا حقيقة لها ثلاثة: طفرة النظام، وأحوال أبي هاشم، وكسب الأشعري». شفاء العليل (١/ ٥٠).

(٢) الصواب: عبد الرحمٰن بن عوف ﵁ كما في صحيح البخاري.

(٣) رواه البخاري (٦٤٤٢) عن ابن عباس ﵄.

(٤) روي عن النبي ﷺ عن عيسى ﵇، كما عند ابن عساكر في تاريخ دمشق (١٤/ ٧٧)، والقاضي عياض في الإلماع (٢٣٣)، وفيه هشام بن زياد أبو المقداد، وهو متروك. وفي الصحيح (١٢٧) عن عليٍّ ﵁ قال: «حدثوا الناس بما يعرفون ـ **أي**: يفهمون ـ أتريدون أن يكذَّب الله ورسوله». وترجم عليه البخاري: (بابُ مَن خَصَّ بالعلم قومًا دون قوم كراهية أن لا يفهموا). وفي مقدمة صحيح مسلم (١٤) عن ابن مسعودٍ ﵁ قال: «مَا أنت بمحدثٍ قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة». قال ابن القيم: «فالمسألة الدقيقة اللطيفة التي تبذل لغير أهلها؛ كالمرأة الحسناء التي تهدى إلى ضرير مقعد، كما قيل: خَوْدٌ تُزَفُّ إلى ضَرِيرٍ مُقْعَدِ». روضة المحبين (٤٢٦).

ومثل ذلك يقال في أساليب تنسيق الخطب على حسب الأغراض، فلكلِّ غَرَضٍ لهجةٌ ونَسَقٌ، فليست خطبةُ الجمعة كخطبةٍ في حفلةٍ سياسيةٍ أو أدبيةٍ، ولذلك يحسُن التأنُّق في بعضها والبَساطة في بعض، كما أنَّه يحسن الإرسال في بعضها ويحسن السجع في بعض.

وقد تتبعت ما استطعت مواقع السجع في الخطب النبوية، وخطب فصحاء العرب في الجاهلية والإسلام، فرأيت مواقع السجع عندهم في حيث يُراد الحفظ للقول؛ كالوصايا والآداب والخطب الأدبية والعلمية، ويُرشِد إلى هذا ما روى الجاحظ عن عبد الصَّمد بن الفضل بن عيسى الرّقاشي أنه قيل له: لِمَ تؤثر السجع على المنثور؟ فقال: «لو كنتُ لا آمُلُ إلا إسماع الشَّاهد لَقَلَّ خلافي عليك، ولكني أريدُ الغائب والحاضر، والرَّاهن (الحال) والغَابِر (المستقبل)، فالحفظ إليه (**أي**: السجع) أسرع، والآذان لسماعه أنشط، وهو أحقُّ بالتَّقييد وبقلة التفلُّت»[١]. وعندي أنَّ هذا هو مراد الشيخ عبد القاهر بقوله في مقدمة كتابه «أسرار البلاغة» حيث قال: «إنَّ الخطب من شأنها أن تُعتمَد فيها الأوزانُ والأسجاعُ، فإنها تُروى وتُتَنَاقل تَنَاقُلَ الأشعار»[٢]. وليس مراده أنَّ تناقل ذلك شأن الخطب كلِّها، لِمَا هو معلومٌ لا يفوتُه من أساليب خطب العرب وخطب الصَّدر الأول، ولذلك كان مقام السَّجع كل مقام يحضر للقول من قبل، فقد رأينا العَرَب لم تكن تحفل بالسجع إلا هنالك، كما في خطبة قُسِّ بن ساعدة التي خطبها في سوق عكاظ وهي مشهورة[٣].

وكلُّ مقام يظهر فيه الارتجال لا يتأتَّى فيه السَّجع، فيحسُن حتى بالمولدين أن يتجنَّبوه هنالك، وإن كانوا لا يتكلمون إلا بِتَرَوٍّ سابقٍ، ولذلك لا تُعَدُّ خطبةُ منذر بن سعيد البلوطي التي ارتجلها في مجلس

(١) البيان والتبيين (١/ ٢٨٧).
(٢) أسرار البلاغة (٩).
(٣) البيان والتبيين (١/ ٣٠٨).

الأمير الناصر بقرطبة ـ حين وَفَد رُسُل مَلِك الروم، وحين أُرتِج على أبي علي القالـي ـ إلا مـن حُسْـن استعـداده للحـوادث، وعِلْمِـه بأنَّ من عُيِّن للخطابة لا يُحسِنُها[1]. وقد قدمنا في فن الإنشاء طرفًا من هذا.

هذا ومما يلتحق بالكلام على نَسْج الخطب: اشتمالُها على شيء من الشِّعْر، وكان ذلك قليلًا عند العرب، كما في خطبة قُسِّ بن ساعدة؛ إذ ختمها بأبيات، وكما في خطبتين لسيدنا علي رضي الله عنه تمثَّل في إحداهما ببيت للأعشى، وفي الأخرى ببيت لدريد بن الصِّمَّة، وكذا خطبة عبد الملك المتقدِّمة، فإنه ذكر في آخرها بيت النابغة[2].

وقد أكثر صاحب المقامات[3] في خُطَبه المذكورةِ فيها من ذِكْر الشِّعْر، ولا شَكَّ أن غرضَه منه إدخال طريقة جديدة في الخطابة، إلا أنه لم يُتَابَع عليها مِنْ أحد، فلم يزل ذِكْرُ الشِّعر في الخُطَب قليلًا جاريًا مجرى التَّمَثُّل.

❁ ❁ ❁

---

(١) **انظر** خطبة قس في أول البيان والتبيين. **وانظر** خطبة منذر في ترجمته من مطمح الأنفس للفتح بن خاقان. (المؤلف). قال المعتني: **ينظر**: البيان والتبيين (١/ ٣٠٩)، مطمح الأنفس (٢٤٠).

(٢) بيت الأعشى **هو**:

(شَتَّـانَ مـا يـومـي عـلـى كُـورِهَـا ... ويـومُ حَـيَّـان أخـي جـابـرِ)

وهو في الخطبة المعروفة بـ(الشِّقْشِقِيَّة) صحيفة ٢٢ نهج البلاغة.

وبيت دريد وهو **قوله**:

(أمرتُـهُـمُ أمـري بِـمُـنْـعَـرَجِ الـلِّـوَى ... فلم يستبينوا النُّصْحَ إلا ضُحَى الغَدِ)

وهو في صحيفة ٥٣.

وبيت النابغة **هو**:

(أبـى لـي قـبـرٌ لا يـزال مـقـابـلـي ... وضـربـةُ فَـأْسٍ فـوق رأسـي فـاقـرَهْ).

(المؤلف).

قال المعتني: **ينظر**: نهج البلاغة (٤٠، ٩٤)، ديوان الأعشى (١٩٧)، ديوان دريد بن الصمة (٦١)، ديوان النابغة (١٣٣).

(٣) **أي**: الحريري.



التدرُّبُ بالخَطابةِ

قد قَدَّمْنَا في قسم الإنشاء أنَّ أَجْدَرَ بالغ بالـمَرْء إلى إتقان هذه الصِّناعة هو التدَرُّب والتمرُّن، ولا شكَّ أنَّ الخَطابةَ إلى ذلك أحوج، وهي به أعلق، فإنَّ لصاحبها فضلَ احتياج إلى بَدَاهَة القول وحُسْن العِبَارة، ولا يكاد ينال ذلك إلا بالتمرُّن عليها[1]، وإلا كان عَالةً على ما حَرَّره المتقدمون، أو التزم كُلَيْمَاتٍ يُعِيدُها أينما حَلَّ، وقد حكى الجاحظ عن محمد بن سليمان[2] أنه كان ملتزمًا خطبةً يوم الجمعة لا يغيِّرها[3].

ويظهر أن أصول التدرب على الخطابة خمسة أمور:

أولها: ضَبْطُ الغَرَض المرادُ التكلُّم فيه، وذلك بتصوُّرِه وتصوُّرِ الغاية منه، وحسن تفهُّمِه، وإتقانه، والإحاطة بِمُهِمِّ ما ينبغي أن يقال فيه من المعاني، ولا يهتم بالألفاظ إلا بعد ذلك؛ لأنَّه إن ابتدأ بانتقاء الألفاظ ضاعت عنه المعاني.

ثانيها: التَّكرير؛ ليرسخ، إما بإعادة الفكرة فيه المرَّة بعد الأخرى، وإما بمذاكرة الغير فيه، والتنبُّه لِمَا عسى أن يكون قد أغفله؛ فإنَّ ما بين الرأيين رأيًا، ولأنه بالمذاكرة يرى المتكلِّم هل بلغ إلى حَدِّ

---

(١) قال بعض الحكماء: «اللسان عضوٌ؛ فإن مرّنته مَرِن، وإن تَرَكْتَهُ حَرِن». وقال زيد بن علي: «أخزى الله المُسَاكَتَة، ما أفسدها للسان، وأجلبَها للعِيِّ». المحاسن والأضداد (١٤). **وينظر ما يأتي في**: رسالة الخضر حسين ص(١٨٧).

(٢) **هو**: محمد بن سليمان بن علي العباسي، كان واليًا في عهد المنصور ثم المهدي ثم الرشيد، كان غنيًّا، قليل شعر اللحية والحاجبين. توفي سنة ١٧٣هـ. تاريخ بغداد (٥/ ٢٩١)، الأعلام (٦/ ١٤٨).

(٣) البيان والتبيين (١/ ٢٩٥)، (٢/ ١٢٩).

التأثير في السامعين حتى إن لم يَرَ منهم التأثيرَ عَلِمَ أنه لم يُتقِن الغرض، ولم يَقتُلْه تعبيرًا.

ثالثها: اختيار ساعة نشاط البال، كما ذكر أبو هلال العسكري، والجاحظ عن بشر بن المعتمر أنه قال لمن عَلَّمه الخطابة: «خُذْ مِنْ نفسِك ساعةَ نشاطِك، وفراغِ بالك، فإنَّ نفسَك تلك الساعة أكرمُ جوهرًا، وأشرفُ حَسبًا، وأحسن في الأسماع[1]، وأسلم من فاحش الخطأ. واعلم أنَّ ذلك أجدى عليك مما يُعطيك يومُك الأطولُ بالكَدِّ والمطاولة، ومهما أخطأَكَ لم يُخطِئْكَ أن يكون مقبولًا وخفيفًا على اللسان، كما خرج من يَنْبُوعِه، ونَجَم من مَعْدِنِه»[2].

رابعها: تدريبُ القُوَّة الذاكرة، وذلك بتجنُّبِ الاعتماد على الكتابة بقدر الاستطاعة، وقد يعسُر ذلك على المَرْء باديءَ بَدْءٍ فَيُغْتَفَرُ حينئذٍ الاعتمادُ على الكتابةِ، على شَرْطِ أن يأخذَ في الإقلالِ عن الكتابة تدريجًا، فيكتب عُقَدَ الموضوع كالفِهْرس، ويشير عندها إلى خُلاصَة الأمثلة، وإذا أخذ في استحضار أوَّل خُطبته فإنه إن استرسل فيها جَاءَتْه البقيَّةُ طَوْعًا، ومع ذلك فقد قيل: إنَّ الذي يعتمد على ذاكرته تُلَبِّيه مُسْرِعةً. وإذا قُدِّرَ لبعض الخطباء كتابةُ مفكِّرَاتِ الخطبة، فمن المستحسَن أن لا يُحضِرَها معه وقتَ الخطابة، ولكن من الخطباء من يضطرُّ إلى ذلك لِضَعْفِ ذاكرتِه، ولا ضَيْرَ في ذلك إذا لم يَكْثُر تردُّدُ بَصَرِه عليها.

خامسها: المواظبَة، فيُشترَط في الخطيب أن يكون غيرَ هَيَّابٍ ولا وَجِلٍ من تكرير التكلُّم، وعَدَمُ الاكتراث في أول الأمر بالإجَادَة، وقد عَرَفْتَ ما نُقِل عن عمرو بن سعيد الأشدق، وعن ديموستين ـ الخطيب اليوناني ـ إذ كان كلٌّ منهما في أوَّلِ أمرِه عَيِيًّا فعَالَجَ بالمواظبة

---

(١) كذا في البيان والصناعتين. وفي الأصل: الاستماع.

(٢) البيان والتبيين (١/ ١٣٥)، الصناعتين (١٣٤).

والتدرُّب حتى صَارَ أفصحَ خطباءِ زمانِه[1].

هذا غايةُ ما تعيَّن تحريرُه من فَنِّ الخطابة لأبناء الأدب السَّاميةِ هِمَمُهُم لمراقي الفنون، الأبيةِ نفوسُهم من الاقتناع بالدُّون، فإذا انعطف عليه صِنْوُه السَّالف، والتفَّ به التفافًا يبسُط ظِلَّه الوارف، جاء بحمد الله تعالى كتابًا وافيًا بما لا غِنَى عن معرفته للمنشئ والخطيب، كافيًا عن مطوَّلاتٍ بِلَمْحَةٍ تُغنِي اللبيب.



(١) راجع ما سلف ص (٥٢).

الخطابة عند العرب

تأليف

العلامة محمد الخضر حسين

(المتوفى سنة ١٣٧٧هـ)

تحقيق

ياسر بن حامد المطيري



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، أما بعد:

فهذا هو الكتاب الثاني: الخطابة عند العرب. للشيخ العلامة محمد الخضر حسين، سلك فيه مسلك الإيجاز، وعرض لأهم مباحث الخطابة، فذكر معناها عند المناطقة والأدباء، ثم أشار إلى أهميتها وما الذي يمكن للخطيب أن يفعله، ثم بين أطوار الخطابة منذ عصر الجاهلية وما تلاها من العصور، وشرع بعد ذلك في ذكر أسباب ارتقاء الخطابة، وكيفية تعلمها، ثم أتى على أمور لا غنى للخطيب عنها؛ كحسن الإلقاء، وإعطاء الحروف حقَّها، والقيام بمكان مرتفعٍ حال الخطبة، والإشارة عند الحاجة، ثم كشف عما قد يعرض للخطيبِ من انقطاع مذاهب القول وهو (الإرتاج)، وختم الكتاب بالحديث عن الارتجال وشأنه في الخطابة.

وأصل الكتاب محاضرة ألقاها الشيخ في نادي جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة[1]، وذلك في شهر ذي القعدة سنة ١٣٤٦هـ.

ومن الجدير بالذكر أن كثيرًا من مؤلفات الشيخ المطبوعة، إنما هي محاضرات أو مقالات نشرها بعد ذلك في كتب[2]، وقد احتوت ـ كما هي عادة الشيخ فيما يكتب ـ على علمٍ وتحقيق قَلَّ نظيرهما،

---

(١) تأسست جمعيَّة الشُّبَّان المسلمين في عام ١٣٤٦هـ، أسسها السيد محب الدين الخطيب مع صديقيه الشيخين محمد الخضر حسين وأحمد تيمور. واعتبرها الشيخ علي الطنطاوي في ذكرياته (١/ ٢٦٠) بداية الدعوة المنظمة، وتبعها فيما بعد تنظيمات كثيرة كان محورها اجتماع المسلمين في تنظيم موحَّد، يعيد لهم ما فقدوه من عزٍّ وقوة. **ينظر**: قضايا الإصلاح عند محب الدين الخطيب (٢٨٥).

(٢) **ينظر**: محمد الخضر حسين لمحمد مواعدة (١٣٢ ـ ١٩٥).

مع أنَّ المحاضرات والمقالات لا يتأهَّب لها صاحبها تأهبَه للكتب المقصودة بالتأليف، فلهذه نهجٌ آخر في اتساق نظمها، وترتيب معانيها.

والشيخ رَحِمَهُ اللهُ كاتبٌ بليغ، حُرُّ اللفظ، جَزْل التعبير، مُتَضَلِّعٌ من العلوم، يَعجَب الناظر من محاسن كلمه، ومجاري قلمه، وهو «ذو طابع خاص، وأسلوب قوي، فصيح العبارة، بليغ التركيب، ينزع إلى طرائق كُتَّاب الترسُّل الأولين من أهل العصر العباسي، وقد بلغ قمة الإجادة الفنية في نثره»[١]. وأسلوبه من السهل الممتنع، فهو قريبٌ بعيد، تراه يطمعك، ثم إذا حاولت مماثلتَه راغ عنك.

وتفشو في كتابته ألفاظ القرآن وتراكيبه، دون استدعاء أو تكلُّف وتعمُّل، بل تجري كالماء الزُّلال، ولا شبهة فيما يصير للكلام بذلك من الفخامة والجزالة والرَّوْنَق، كقوله في هذا الكتاب: (فآتت ثمارها). (بُعِثت من مرقدها). (يُسِيغُه). (جزءٌ مقسوم). (مَرَّةً أخرى). وغيرها. ويظهر هذا جليًّا في مقالةٍ له ختمها بقوله: «وسلامٌ عليك يوم تُقَرِّظ، ويوم تنقُد، ويوم تكون للحق وليًّا»[٢].

وهذه الطريقة في الكتابة لا تتأتَّى إلا لمن حفظ القرآن، ثم نقَّب عن معانيه، «واتخذه بحرًا يستخرج منه الدرر والجواهر، ويودعها في مطاوي كلامه. وكفى بالقرآن الكريم وحده آلةً لمؤلِّف الكلام، فهو تجارة لا تبور، ومنبعٌ لا يغور، وكنزٌ يُرجَع إليه، وذخرٌ يُعوَّل عليه»[٣].

---

(١) الحركة الأدبية للفاضل ابن عاشور (٩١). **وينظر**: التعالم للشيخ بكر أبو زيد (ضمن المجموعة العلمية ص٨٣).

(٢) مجلة الهداية الإسلامية (١/ ١٣). بواسطة: محمد الخضر حسين حياته وآثاره (١٠٩).

(٣) الجامع الكبير لابن الأثير (١٤٠). **وينظر في كيفية استفادة الكاتب من القرآن**: فتاوى رشيد رضا (٤/ ١٣٨٤).

۞ أسباب نشر الكتاب:

سبق أن نشر هذا الكتاب مرارًا، فطبع في حياة المؤلف عام ١٣٤٦هـ عن المطبعة السلفية بالقاهرة، ثم نشره علي الرضا الحسيني ضمن كتاب «الخيال في الشعر العربي ودراسات أدبية»، وأخيرًا ضمن «موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين» عام ١٤٣١هـ.
وقد حداني لإعادة نشره الحاجة إلى خدمته والتعليق عليه، فقد اشتملت جميع الطبعات السابقة على غلط وسقط(١)، وخلت من خدمة النص من حيث ضبط مشكله وتوثيق نصوصه، وتتميم مباحثه.

ولاتحاد موضوعه مع كتاب ابن عاشور، ناسب أن يلحق به، وقد كان العلماء يعتنون بجمع المؤلفات المتصلة في مجموع واحد، وكثيرٌ من مجاميع المخطوطات تشهد بذلك.

كما أنه صغير الحجم، ونشر ضمن مجموع كبير، فكان خليقًا بأن يطويه النسيان، ففي نشره على هذا النحو إبراز له، ودلالة عليه.

۞ منهج التحقيق:

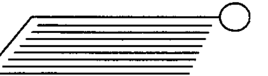
سرت في التحقيق على ما سبق أن بيَّنته في تصدير كتاب ابن عاشور، ولكن أنبِّه هنا إلى أنني قابلت بين المطبوعات الثلاث المومى إليها، فتبين أن نشرتي الحسيني لا فرق بينهما البتة، فجعلتهما نسخة واحدة رمزت إليها بـ(ح)، ورمزت إلى طبعة المطبعة السلفية بـ(الأصل).

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى وآله وصحبه

---

(١) وأقلها أخطاء طبعة المطبعة السلفية، أما نشرتا الحسيني، فالأخطاء فيهما متكررة، ولم يصحح شيئًا منها في نشرته الأخيرة.





ترجمة المؤلف
محمد الخضر حسين

۞ اسمه ونسبه ومولده:

محمد[١] الخضر بن الحسين[٢] بن علي بن عمر الحسني التونسي، وهو من أسرة عريقة في العلم والشرف، حيث تعود أسرته إلى البيت العمري في بلدة (طولقة) جنوب الجزائر، وقد رحل والده إلى (نفطة) من بلاد الجريد بتونس بصحبة صهره (مصطفى بن عزوز) حينما دخل الاستعمار الفرنسي الجزائر، ومما يدل على عراقة أسرته في العلم أن منها جده (مصطفى بن عزوز) وأبو جده لأمه (محمد بن عزوز)، من أفاضل علماء تونس، وخاله (محمد المكي) من كبار العلماء وكان موضع الإجلال في الخلافة العثمانية.

ولد المترجَم ببلدة (نفطة) في ٢٦ رجب ١٢٩٣هـ.

---

(١) **مصادر ترجمته**: تراجم الأعلام للفاضل ابن عاشور (١٨٥)، معجم المطبوعات لسركيس (١٦٥٢)، الأعلام للزركلي (٦/ ١١٣)، معجم المؤلفين (٩/ ٢٧٩)، المستدرك على معجم المؤلفين (٦٣٥)، كتابات حول الإمام محمد الخضر حسين (جمع علي الرضا الحسيني)، من أوراق ومذكرات الإمام محمد الخضر حسين (جمع علي الرضا الحسيني)، ملاحق كتاب أحاديث في رحاب الأزهر (١٥٣)، محمد الخضر حسين حياته وآثاره للأستاذ محمد مواعدة. وهو أفضل وأوعب ما كتب عنه.

(٢) ذكر الأستاذ محمد مواعدة أنَّ اسم الشيخ الأصلي: محمد الأخضر ابن الحسين، فأبدلت كلمة (الأخضر) بـ(الخَضِر) منذ طفولته. كما حذفت كلمة (ابن) من (ابن الحسين) بعد سفره إلى المشرق العربي مسايرةً للطريقة المشرقية في التسمية. **ينظر**: محمد الخضر حسين حياته وآثاره (٢١).

۞ طلبه للعلم وشيوخه:

في تلك البيئة العلمية نشأ محمد الخضر حسين، فحفظ القرآن الكريم على مؤدبه الخاص الشيخ عبد الحفيظ اللموشي، ودرس بعض العلوم الشرعية واللغوية على خاله الشيخ محمد المكي ابن عزوز الذي اعتنى به عناية خاصة، لما رأى عليه من أمارات النبوغ، وقد تحدث الشيخ الخضر حسين عن إفادته من خاله فقال: «وقد كنت كلفًا بأساليب تعليمه، ومعظم ما أدركت في التعليم تلقيت من دروسه»[١].

ومن العلماء الذين تلقى عنهم أيضًا:

• الشيخ سالم بوحاجب، قال مترجمنا: «حضرت دروسه عندما أخذت في قراءة الكتب العالية فشعرت بأني دخلت في مجال أفسح للنظر وأدعى لنشاط الفكر، وكان الأستاذ ينقد الآراء ويتجاوزها إلى الغوص على أسرار المباحث دينية كانت أم عربية، ولا يترك في درس الكتب الشرعية أن يعقد الصلة بين أصول الإسلام ومقتضيات المدنية المعاصرة»[٢].

• الأستاذ عمر ابن الشيخ، وكان «نافذ الفكر في المباحث الغامضة، قديرًا على حلِّ المسائل العويصة»[٣].

• الشيخ محمد النجار، قال المترجم: «كنت أستفيد من مجالسه ما لا يقل عما أستفيد من دروسه؛ إذ كان رَحِمَهُ اللهُ ذا ذاكرة لا تخونه فيما يستودعها من علم، ولم نر له في سعة الاطلاع والمحاضرة بالعلوم على اختلاف فنونها من نظير»[٤].

---

(١) خلاصة الرحلة الشرقية (٣١٥). نشرت في جريدة الزهرة ـ ربيع الثاني ـ ١٣٣١هـ. (وأدرجت ضمن ملاحق كتاب الخضر حسين حياته وآثاره).

(٢) تونس وجامع الزيتونة (٣٠).

(٣) تونس وجامع الزيتونة (٣٠).

(٤) تونس وجامع الزيتونة (٩٨).

۞ حياته:

يمكن تقسيم حياة الشيخ محمد الخضر حسين إلى ثلاث مراحل[١]:

المرحلة الأولى: في تونس:

حيث ولد بها ونشأ، وتلقى مبادئ العلم، ثم حفظ القرآن مما خوله الانتظام بجامع الزيتونة.

وفي عام ١٣١٦هـ نال شهادة (التطويع) التي تخول حاملها إلقاء الدروس في الزيتونة تطوعًا، فاشتغل بالتدريس والتعليم.

وأنشأ مجلته «السعادة العظمى» وبقيت سنة واحدة حتى أغلقها المستعمر الفرنسي.

ثم تولى قضاء (بنزرت) عام ١٣٢٣هـ مع الخطابة والتدريس بجامعها، ثم حدثت اضطرابات سجن على إثرها طائفة من أهل العلم، وضيق على الشيخ محمد الخضر، فاضطر إلى الرحيل عن تونس.

المرحلة الثانية: التنقل وعدم الاستقرار:

وصل دمشق عام ١٣٣٠هـ مع أسرته وعيِّن مدرسًا بالمدرسة السلطانية، وألقى في جامع بني أمية دروسًا أثنى عليها أهل العلم، وتوثقت بينه وبين علماء الشام صلة وثيقة كالشيخ محمد بهجة البيطار، والشيخ جمال الدين القاسمي.

وفي عام ١٣٣٣هـ ذهب إلى الأستانة فأرسله وزير الحربية (أنور باشا) إلى برلين في مهمة للاجتماع بأسرى المغاربة الذين زجَّت بهم فرنسا في خطوط القتال الأولى، ووقعوا في الأسر، ليحرضهم على

---

(١) هذا التقسيم اتبعه كل من كتب عن حياة الشيخ، كما درج عليه هو نفسه عند حديثه عن أطوار حياته. **ينظر**: محمد الخضر حسين حياته وآثاره (١٩، ٣٣٦).

القتال ضد فرنسا، وظل هناك تسعة أشهر أتقن فيها اللغة الألمانية وكتب «مشاهد برلين»[١] مذكراته عن تلك الحقبة.

ثم عاد إلى دمشق، فاعتقله (جمال باشا) عام ١٣٣٤هـ بتهمة علمه بالحركات السرية المعادية للأتراك، ومكث في السجن سنة وأربعة أشهر ثبتت بعدها براءته. ثم عاد إلى التدريس في دمشق، وتولى التدريس بمعاهدها، ثم نزح عن دمشق التي أحبها، حينما أصدرت السلطة الفرنسية ضده حكمًا بالإعدام غيابيًّا بتهمة تحريض المغاربة على الثورة، فنزح عن دمشق مستقرًّا في مصر.

المرحلة الثالثة: في مصر:

وقد وصلها عام ١٣٣٩هـ فوجد بها صفوةً من أصدقائه الذين التقاهم بدمشق ومنهم: (محب الدين الخطيب) ونظرًا لمكانته العلمية والأدبية اشتغل بالكتابة والتحرير، وكان العلامة (أحمد تيمور) من أول من قدَّر الشيخَ في علمه وأدبه، فقدم له المعونة، وتوطدت العلاقة بينهما. ثم التحق بدار الكتب المصرية فبقي بها مصححًا خمس سنين، مع نشاطه في الدروس والمحاضرات، ثم نال شهادة العالمية من الأزهر، ونصَّ القرار على أن اللجنة «امتحنت الشيخ محمد الخضر فوجدته بحرًا لا ساحل له»[٢].

وكان عضوًا في مجمعي اللغة العربية بدمشق والقاهرة.

وفي عام ١٣٧٠هـ تقدم بطلب عضوية (هيئة كبار العلماء) فنالها ببحثه (القياس في اللغة العربية).

وفي ١٣٧٢هـ تولى مشيخة الأزهر، واستقال بعدها بسنتين.

---

(١) جمعت في رسالة بهذا العنوان.

(٢) أحاديث في رحاب الأزهر (الملحق ص١٦٩).

۞ آثاره العلمية:

- نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم.
- نقض كتاب في الشعر الجاهلي.
- الدعوة إلى الإصلاح.
- الخيال في الشعر العربي.
- القياس في اللغة العربية.
- محمد رسول الله خاتم النبيين.
- ديوان خواطر الحياة.

وله جملة من المحاضرات والمقالات التي جمعت في كتب، فمن محاضراته:

- الحرية في الإسلام.
- مدارك الشريعة الإسلامية.
- حياة اللغة العربية.
- العظمة.
- الخطابة عند العرب.
- علماء الإسلام في الأندلس.

ومن مقالاته:

- السعادة العظمى.
- رسائل الإصلاح
- تفسير القرآن.
- تونس وجامع الزيتونة[١].

---

(١) وقد اعتنى بتتبع مؤلفاته وطباعتها ابن أخيه الأستاذ علي الرضا الحسيني، وأصدر بأخرة مؤلفاته كلها في مجموع بعنوان: «موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين»، جزاه الله خيرًا.

۞ وفاته:

توفي رحمه الله في القاهرة عام ١٣٧٧هـ، ودفن في مقبرة أصدقائه آل تيمور جزاه الله خير الجزاء، ورحمه رحمة واسعة.

۞ ثناء العلماء عليه:

قال صديقه العلامة محمد الطاهر ابن عاشور: «إنه من أفذاذ علماء الإسلام، وقد كان قليل النظير في مصر»(١).

وقد انعقدت بينهما صداقة متينة، صرح بها الخضر حسين بقوله: «انعقدت بيني وبينه صداقة بلغت في صفائها ومتانتها الغاية التي ليس بعدها غاية»(٢).

وقد زار ابنَ عاشور ذات يوم اثنان من أولي العلم، فأرسل إلى الخضر حسين يدعوه إلى زيارته، **وكتب له بيتين:**

تألَّقت الآدابُ كالبَدْرِ في السَّحَرْ وقد لَفَظ البَدْرانِ مِنْ مَوْجِهَا الدُّرَرْ

فما لي أرى مِنْطِيقَها الآن غائبًا وفي مجْمَع البَحْرَيْنِ لا يُفْقَدُ الخَضِرْ(٣)

وقال الشيخ محب الدين الخطيب: «ما هُوجم الإسلام في وقعة إلا وكان(٤) للأستاذ حفظه الله دفاعٌ أمتن من الفولاذ، وأرسخ من الجبال الرّاسيات. والسّيّد حفظه الله محبوب من كلّ محبٍّ للإسلام معروف فضله لكل من اتّصل به من أبناء المشرق والمغرب. وقد تعود من صدر حياته أن يحمل دنياه على آخرته، وأن يضحِّي بالأولى في سبيل الأخرى إذا تعارضتا»(٥). رحمه الله وغفر له.

---

(١) محمد الخضر حسين حياته وآثاره (٢١١).

(٢) مجلة الهداية الإسلامية (٥/٢٢٦). بواسطة: الخضر حسين حياته وآثاره (١٢٩).

(٣) خلاصة الرحلة الشرقية (٢٧١) (ضمن ملاحق كتاب الخضر حسين حياته وآثاره).

(٤) إدخال (الواو) على الفعل الماضي التالي (إلا) غلط، والاستعمال العربي تجريد هذه الجملة من الواو كما في قوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [يس: ٣٠].

(٥) مجلة الفتح (٥٥١ ـ ربيع الأوّل ـ ١٣٥٦هـ). بواسطة: قضايا الإصلاح عند محب الدين الخطيب (٢٤٨).



النصُّ محققًا



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه وسلم.

أيها السَّادة:

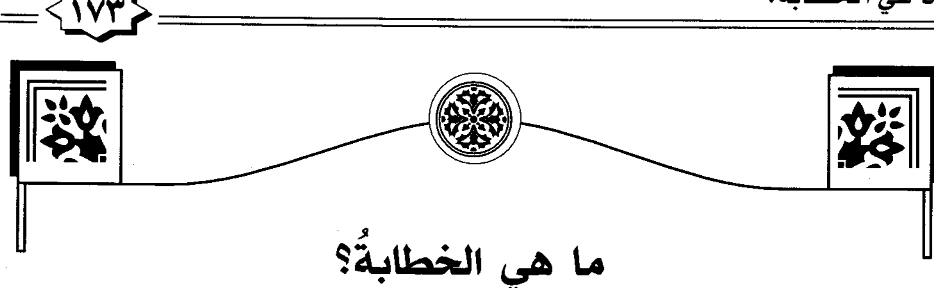
أملنا وثيق في أن تنهض هذه الجمعية وتضرب بجناحيها في إقبالٍ ونجاح، وما علينا إلا أن نبتغي بها الأسباب التي تصعد بالجماعات إلى أن تكون عزيزة الجانب ثابتة الأقدام.

ومن خير هذه الأسباب وأقربها إلى الغاية المنشودة صَرْفُنا العنايةَ في إتقان صناعة البيان، ومن أجل هذا اخترتُ أن ألقي كلمةً في **الخطابة عند العرب،** فقد كانت مظهرًا من مظاهر الإبداع، وعاملًا من عوامل الإصلاح.

ولا بأس في أن أفتتح هذه الكلمة بالحديث عن حقيقة الخطابة في لسان الفلسفة وإن كانت وجهتُنا أدبيَّةً، فإنَّ للوجهة الأدبية في هذا الموضوع صلةً بالوجهة الفلسفية.







ما هي الخطابةُ؟

يذكر المناطقةُ الخطابة فيقولون: هذا القياسُ من قبيل الخطابة وليس ببرهان.

والخطابة على هذا القَصْد ضَرْبٌ من ضروب القياس، وهي: القياس المؤلَّف من أقوالٍ مَظنُونَةٍ أو مقبولة.

والأقوالُ المظنونةُ: ما يُؤخَذ فيها بالمحتمِلِ الرَّاجح.

والأقوال المقبولة: ما تُتَلَقَّى ممن يُعْتَقَدُ صِدْقُه وسَدَادُ رأيِه.

ومثال الخطابة المؤلَّفة من أقوال مظنونة: أن تشير إلى أُمَّةٍ غربية أو شرقية وتقول: (هذه الأُمَّةُ تُسَاسُ بإرادتها؛ لأنَّ لها مجلسًا نِيَابِيًّا ينظرُ في شؤونها). وهذا الاستدلالُ يرجع إلى الخطابة القائمةِ على أقوالٍ مظنونةٍ؛ إذ الشَّأْنُ في الأمم ذاتِ المجالس النيابيَّة أن تكون مَسُوسَةً بإرادتها. ولا يبلُغ هذا الاستدلال أن يكون قاطعًا؛ إذ من الجائز - ولو على بعد - أن تَجُول عند انتخاب الأعضاء ريحٌ ضَاغِطَةٌ فلا يجري الانتخابُ على وجهِه الصحيح.

ومثال الخطابة المؤلَّفة من أقوالٍ مقبولة: أن تقول لمن يتخبَّطُه الغضب حين يُنقَدُ قولُه: (لا تستنكِف مِنْ أن يُرَدَّ عليك رأيُك، فقد قال الخليفة المأمون: «إنَّ العِلْمَ على المناقشة، أثبتُ منه على المتابعة»[1]). أو تقول لمن يُبْلَى بسلطة جاهل: (لا تُطِعْ مَنْ يأمرُك بغير هدى، فقد قال

(١) **ينظر:** الدهاء في السياسة للمؤلف (ضمن محاضرات إسلامية ص٩٦).

أبو بكر الصديق ﷺ: «فإذا عصيتُ الله ورسولَه فلا طاعة لي عليكم»[1].

ومقابل الخطابة أربعة فنون[2]:

أحدها: البرهان: وهو القياس المؤلَّف من أقوال يقينية، **كأن تقول**: (تونس مملكةٌ غير مستقلَّة؛ لأنه يقيم في ثَكَناتِها ويقبِض على زمام أمرِها رجالٌ فرنسيون). وإنما كان هذا القياس برهانًا؛ لأنَّ العقل لا يستطيع أن يتصوَّرَ لأمةٍ استقلالًا إلا أن يكون لرجالها الرأيُ النافذ والكلمةُ العليا.

ثانيها: الجدل: وهو القياس المؤلَّف من أقوال مشهورة مُسَلَّمَةٍ بين الناس، أو أقوالٍ يُسَلِّمُهَا المخاطَب ولو لم تكن في نفسها صادقة. **ومثال ما كان مؤلَّفًا من أقوالٍ مشهورةٍ مسلَّمة بين الناس**: أن تشير إلى قوانين أو محاكم ترفع الأقوياءَ على المستضعفين درجةً أو درجات، وتقول: (هذه القوانين قبيحةُ الوَضْع، أو هذه المحاكمُ قبيحةُ الهيئة؛ لأنها لا تقوم على أساس المساواة بين الناس). وهذا الاستدلال يرجع إلى أقوالٍ عَرَفها الناس وتعاقدوا على صِحَّتها، وهي أنَّ عدم المساواة بين الناس ظلمٌ، وأن قُبْحَ الظلم شديد.

ومثال القياس المؤلَّف من أقوالٍ يسلِّمُها المخاطَب ولم تكن في نفسها صادقةً: أن تُحاور من لا يعرفُ الحقَّ والباطل أو الضَّارَّ والنافع، وإنما يريد الجديد والقديم، فتقول له: (الخمرُ غيرُ لائقةٍ؛ لأنَّ أحدثَ قانونٍ وُضِع لها في البلاد الغَرْبيَّة يمنع من تناولها). وهذا القياس يعتمدُ على قولٍ يسلِّمه مخاطَبك الذي يدور مع الجديد أينما دار، وهو أنَّ كلَّ شيءٍ يوضَع له قانونٌ جديدٌ يَمنع من تناوله، فهو غيرُ لائق. ولو قلت:

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٤١٣).

(٢) ينظر: حاشية الباجوري على السلم (٧٥).

(الخَمْرُ غيرُ لائقةٍ لأنَّ علماء الاجتماع بأمريكا قَرَّروا أنها قَذًى في عَيْنِ المدَنِيَّة، وعَثْرَةٌ في سبيل العُمْران)، كان قياسُك هذا من قبيل الخطابة.

ثالثها: **الشِّعْرُ**: وهو القياس المؤلَّف من أقوالٍ خيَالِيَّةٍ. **ومثال هذا**: أن يُزَيِّن لك الرجلُ الخُمُول والقعود عن الناس في ناحيةٍ فيقول: (الخُمُول أهنأُ حياةً، وأقربُ إلى السلامة من الظهور، فإنَّ عواصف الرياح تحطِم الأشجارَ الشَّامخة برؤوسِها، ولا تَمَسُّ الشجرَ القريب من الأرض بسوء). وإنما كان هذا القياسُ شِعْرًا؛ لأنَّه لم يزد على أن خَيَّلَ لك الظاهرَ بالعملِ مع الجماعةِ في صورةِ ما تصرَعُه الرياح العاصفةُ، حتى تأخذَك رَوْعَةٌ، وتَسُلَّ يدَك من يدهم نُفُورًا وفَزَعًا. ويمكنُك أن تعارِض هذا الخيالَ بخيالٍ مثلِه فتقول: (الظهور خيرٌ من الخمول؛ فإنَّ الثعالبَ تدوس النباتَ القريبَ من الأرض بأرجلِها، ولا تَصِلُ إلى الأشجار الشَّامخة إلا أن تَرمُقَها بأعينِها).

وقد يجتمع في القياس الواحد الشِّعْرُ والخَطَابة، **ومثال هذا**: أن تقول: (عَلِّمُوا البنات تحت ظِلال الصِّيَانةِ والحيَاء، فإنهنَّ من البنين بمنزلة أعجاز القصيدة من صدورِها، ولا يحسُن في القصيدةِ الواحدةِ أن تكونَ صدورُها مُحْكَمةً، وأعجازُها ضعيفةً متخاذِلةً). وهذا القياس من جهة ما فيه من تَخْييلٍ شِعْرٌ، ومن جهة ما يَضعُه في النَّفس من إقناعٍ خَطَابَةٌ. وهذا النوعُ من الاستدلال هو ما يسميه الباحثون في فلسفة الأدب بـ(التَّمثِيل الخَطَابي)[1].

رابعها: **السَّفْسَطَة**: وهو القياس المؤلَّف من أقوالٍ لم تستوفِ شرائطَ الإنتاج. **ومثاله**: أن يقول مَنْ في قلبه مَرَضٌ: (إنَّ نَبْذَ آداب الدين تَطوُّرٌ من تطورات العصر، وتطوُّرات العصر لا تأتي مُقَاومَتُها بشيء). وإنما كان هذا القياس من نوع السَّفْسَطَة؛ لأنَّ التطورات التي لا تُقَاوَم

(١) **ينظر**: منهاج البلغاء (٦٧).

إنما هي التطورات الناشئةُ عن سُنَنٍ كونيَّةٍ ثابتةٍ، أو التطورات التي يأتيها الناس برجَاحَة عَقْلٍ وسَلامةِ ذَوْقٍ، أما التطورات الناشئةُ عن أهواءٍ أو جَهَالةٍ، فهي التي تجيءُ الشرائعُ وتُؤَلَّفُ الكتب وتُلقَى الخُطَبُ لمحاربتها وتطهيرِ الأرض من أرجاسِها، وإن لبسها الرؤساءُ ومن في الأرض جميعًا.

ولعلَّ بعضَ السَّادة الحاضرين يلاحظون أنَّا سُقْنَا أمثلةَ الخَطَابة وما يقابلها من فنون القياس على غير الطريقة المعروفة في دَرْسِ القوانين المنطقية، فلم نقل مثلًا: (تونس مملكةٌ شَرقيَّةٌ يقبِض على زِمَامِهَا رجالٌ فرنسيون، فهي غيرُ مستقلَّةٍ)، النتيجة: تونس غير مستقلة.

وعُذْرُنَا فيما سلكنا أنَّ هذه المقاييس لا تَرِدُ في المخاطَبات التي تُرَاعَى فيها قوانينُ البلاغة إلا محذوفةَ إحدى المقدمتين أو النتيجة؛ **أي**: محذوفةَ ما تدلُّ عليه قُوَّةُ الكلام تَفَصِّيًا من وَصْمَتي التَّكرار والإطالة لغير جَدْوى[1].

ويُرَاد من الخطابة: القوة الصَّانعة للأقوال المقنعة. وعلى هذه البابة رسمها أرسطو فقال: «هي قوةٌ تتكلَّفُ الإقناع الممكِنَ في كلٍّ واحدٍ من الأشياء المفرَدة»[2].

ومعنى هذا أنَّ الخطابةَ: قوةٌ يُطِيقُ صاحبُها إقناعَ المخاطَبين في كلِّ شيءٍ يَدَّعي أنه غرضٌ صحيح، والإقناع: تقويةُ الظَّنِّ، وهو ما تعتمد عليه صناعة الخطابة.

وإنما وصف الإقناع بالإمكان فقال: (تتكلَّف الإقناع الممكن) لأنَّ شأن هذه الصناعة إعدادُ النفوس لعمل الإقناع، وإن لم تبلغ غايتَها القُصْوى. وكذلك الشأنُ في سائر الصناعات، فإنها تُعِدُّ النفس لعمل

(١) ينظر: منهاج البلغاء (٦٥).
(٢) الخطابة لأرسطو (الترجمة القديمة) (٩).

خاصٌّ. ثم إنَّ الناس يكونون فيها على درجاتٍ متفاوتة متفاضلة.

وإنما قال: (في كلِّ واحدٍ من الأشياء المفرَدة) لأنَّ الخَطابة تتناولُ كلَّ العلوم والفنون، ويسوغُ لها أن تدخلَ في كل شيءٍ صغيرًا كان أو كبيرًا، معقولًا كان أو محسوسًا، ومن هنا قال الباحثون في شؤونها: يلزمُ الخطيبَ أن يكون مُلِمًّا بالعلوم والفنون ما استطاع، وأن يسعى دائبًا إلى أن يزداد في كلِّ يومٍ عِلْمًا.

أما الخَطَابة في لسان الأدباء والبلغاء، فهي: إلقاء الكلامِ المنثورِ سَجْعًا أو مُرْسَلًا؛ لاستمالةِ السامعين إلى رَأْيٍ، أو ترغيبِهم في عمل، وهذا ما يريدونه عندما يذكرون الخطابة ويقولون: فلانٌ يقومُ على الخَطَابة أكثر مما يقوم على الكتابة[١].

والخطابة عند هؤلاء ـ وإن كانت تعتمِد على الأقوال المظنونةِ أو المقبولة ـ قد يدخل فيها ما يُسمَّى عند المناطقة (بُرْهَانًا)، قال صاحب المناهج الأدبية: «والأقوال الصادقةُ يقينًا لا تقعُ في الخَطَابة من حيث إنها خطابة، فإن أَلَمَّ بها الخطيبُ فقد عَدَل بالخطابة عن أصلِها»[٢].

وربما أتى الخطيبُ على أقوالٍ مموهة؛ **أي**: ذات جمل تشبه ما يكون صادقًا وليست في نفسها صادقة أو ذات هيئة تشبه ما يكون صحيحًا وليست في نفسها بصحيحة. قال مالك بن دينار: رأيت الحجاج يتكلَّم على منبره، ويذكر حُسْنَ صنيعه لأهل العراق، وسوء صنيعهم له، حتى إنَّه لَيُخيَّلُ إليَّ[٣] أنه صادقٌ مظلوم[٤].

---

(١) **ينظر**: فن الخطابة للشيخ علي محفوظ (١٣).

(٢) منهاج البلغاء لحازم (٦٢). والمناهج الأدبية واردٌ على طرة المخطوط بخطٍ حديث، فرجَّح المحقق أن عنوانه: «منهاج البلغاء وسراج الأدباء»، ونقله عن السبكي في عروس الأفراح (١/ ٢٩).

(٣) جملة: (ليخيل إلي) سقطت من (ح)، وأثبتت من الأصل، ومن البيان والتبيين.

(٤) البيان والتبيين (٢/ ١٩٣). وذلك لبيان الحجَّاج، وحسن تخلُّصِه بالحُجَج.



شرفُ الخَطابةِ

تَشرُف العلومُ والصنائع بمقدار ما تشرُف غاياتها. وللخَطَابة غايةٌ ذاتُ شأنٍ خطيرٍ، وهي إرشاد الناس إلى الحقائق، وتشويقِهم إلى ما ينفعهم في هذه الحياة، وفي تلك الحياة.

والخطابة معدودةٌ في وسَائلِ السِّيَادَة والزَّعَامة، سمع الإمام علي بن أبي طالب ﷺ زيادًا يخطُب ـ وكان زيادٌ لا يُدْعى يومئذٍ لأبي سفيان ـ فقال: «لو كان هذا الفتى قُرَشِيًّا لَسَاق العربَ بعصاه»[١]. وكانوا يعدُّونها شرطًا للإمارة، ألا ترون إلى عبيد الله[٢] بن زياد ـ وكان خطيبًا على لُكْنَة في لسانه ـ كيف يقول: «نِعْمَ الشيءُ الإمارةُ، لولا قَعْقَعَةُ البُرُد[٣]، والتَّشَزُّنُ[٤] للخطب»[٥].

وقد عُنِي الإسلام بالخطابة إذ شَرَعها في أيام الجُمَع والأعياد ومواسم الحَجِّ، شَرَع الخطابةَ وما شرعها إلا ليتولاها ذو نَبَاهَةٍ وعِلْمٍ وبلاغة:

---

(١) المشهور أنَّ القائل عمرو بن العاص بحضور علي ﷺ كما في وفيات الأعيان (٦/ ٣٥٧). وقد سبق التنبيه على ذلك في رسالة ابن عاشور. **ينظر**: ص (..).

(٢) الأصل، (ح): «عبد الله» والتصويب من البيان والتبيين (١/ ١٣٤)، والنهاية (٢/ ٤٧١).

(٣) **البرد**: جمع بريد، والمراد به الرسول، وذلك أن الأمير لا يدري ما يأتي البريد به من خير أو شر، فهو يجزع لرؤيته ويخاف.

(٤) الأصل، (ح): «التشرُّف»، والمثبت من البيان والتبيين (١/ ١٣٤)، والنهاية (٢/ ٤٧١)، واللسان (شزن). قال ابن الأثير: «**التَّشَزُّن**: التأهُّب، والتهيُّؤ للشيء، والاستعدادُ له، مأخوذٌ من عُرْضِ الشيء وجانبه، كأنَّ المُتَشَزِّن يدع الطمأنينة في جلوسه ويقعد مستوفِزًا على جانب».

(٥) البيان والتبيين (١/ ١٣٤).

(يتولاها ذو نَبَاهَة) ليكون بصيرًا بما يطرأ على نظام الجماعة مِنْ خَلَلٍ، وبما يَنصِبُه أعداؤُها من مكايد، وبما يُبَيِّتُهُ منافقوها من تضليل.

(يتولاها ذو عِلْم) حتى يُفَرِّق بين المعروف والمنكر، ويُمَيِّزَ الأوهام من الحقائق، ويكون إرشادُه مملوءًا بالمواعظ الحسنة، والحكم السامية.

(يتولاها ذو بلاغة) ليختار مِنْ أساليب البيان ما تألفُه الأذواقُ، وتنفتح له الصُّدُور.

وكذلك كانت الخطابة يوم كانت اللغة في حياتها الزاهرة وكان الخطباء كما ولدتهم أمهاتهم أحرارًا.

ففي الخطابة شرفٌ عظيمٌ، وشَرَفُها في أن يكونَ القائمُ عليها نبيهًا عالِمًا بليغًا.

قد يبلغ الخطيبُ بِحِذْقِه في فنون البيان، أن يريك الباطلَ في صورة الحق، ويخيِّلَ إليك الشقاءَ سعادةً. وهذا لا يُزرِي بقَدْر الخطابة، وإنْ هي إلا ككثيرٍ من وسائل الخير التي قد يذهبُ بها بعضُ الناس في غير مذهبِها، ويَضَعُها[1] فيما ليس من شأنها، ومَثَلُهَا في هذا مَثَلُ السَّيْف، تَهَزُّه يدُ العَدْل لتضرب به الباطلَ مرَّةً، ويَهزُّه الباطلُ ليسطو به على الحقِّ مرَّةً أخرى.



(١) (ح): ويصفها. وهو غلط. والتصويب من الأصل.



مَاذا تفعلُ الخطابةُ؟

الخطيب البارع يقف في الجُنْدِ المتباطئ، ويصفُ له ما ينالُه الأبطالُ من عِزَّةٍ يوم يعيشون، أو سعادةٍ يوم يموتون، فينقلبُ التَّرَدُّدُ عَزْمًا صارمًا، والإحجامُ هجومًا رائعًا.

الخطيب البارع يقف في الجماعة الخاملةِ، فيهزُّ قلوبَهم هَزًّا، فإذا هي ناهضةٌ من خُمُولها، عاملةٌ لإعلاء ذِكْرِها، مُقْتَحِمَةٌ كلَّ عقبةٍ تقوم في طريقها.

الخطيب البارع يقف بين قوم نشؤوا في بيئةٍ مغبرة جهلًا وعَمَاية، أو تلقَّتهم دُعَاة الغَوَاية، قبل أن تألَفَ الحقَّ بَصَائِرُهم، ويَشتدَّ في العلم ساعدُهم، فلا يبرح يعرِض عليهم سُبُلَ الهداية في استوائها ونقائها، فإذا هم الرِّجَالُ المصلحون، أو الزعماء الناصحون.

الخطيب البارع يقف بين طائفتين استعرت بينهما نارُ العداوة، ولم يبق بينهم وبين أن يصبح لونُ الأرضِ أحمرَ قانيًا إلا شِبْرٌ أو ذراع، فيذكِّرهم بعواقب التَّدَابر، وينذرهم مصارعَ التقاتل، فإذا القلوب راجعةٌ إلى ائتلافها، والسيوفُ عائدةٌ إلى أغمادها.

والشعراءُ يقرِنون الخطابةَ بالسيف لتشابههما في إعلاء كلمة الحق، وحَمْل النفوس الجامحة على أن تعود إلى السكينة والنِّظَام، وهذا أحد الشعراء يسمِّي فعل السيف خُطْبَةً **فيقول:**

السيفُ أصدقُ مِنْ زيادٍ خُطْبَةً ... في الحَرْبِ إن كانت يمينُك مِنْبَرَا[1]

---

(١) البيت لمحمد من عمار من رائيته المشهورة في مدح المعتضد عباد (والد المعتمد)، كما في نفح الطيب (١/ ٦٥٦).

وآخر يسمِّي نفسَه يوم يَطعُنُ بالسيف خطيبًا **فيقول**:

إذا لم أكنْ فيكم خطيبًا فإنني ... بسيفيَ في يومِ الوَغَى لَخطيبُ[١]

ورُبَّ كلمةٍ يلقيها الخطيبُ فتنفذُ في قلب السامع، وينتفع بها في سيرته ما دام حَيًّا، قال الحسن: لقد وَقَذَتْنِي[٢] كلمةٌ سمعتُها من الحَجَّاج. فقيل له: وإنَّ كلامَ الحَجَّاج لَيَقِذُك؟! فقال: نعم، سمعتُه على هذه الأعواد يقول: إنَّ امرأً ذهبتْ ساعةٌ من عمره في غير ما خُلِق له، لَحَرِيٌّ أن تطولَ عليه حَسْرتُه[٣].

ولشدةِ وَقْعِ الخطب في نفوس الملأ، ترى الرئيسَ المستبِدَّ ينظرُ إلى الخطباء الأذكياء بعينٍ عابسةٍ، يحذرُ من أن يحومُوا حولَ سيرتِه، ويُقنِعُوا الناسَ بأن لا طاعةَ لمن يضطهدُ حقوقَهم، ولا ينصحُ في تدبير شؤونهم.

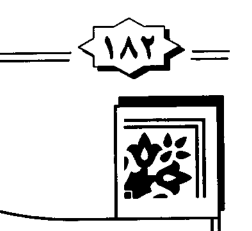


---

(١) البيت لثابت بن كعب، كما في الأغاني (١٤/ ٢٥٥). **وينظر ما يأتي**: ص (١٩٧).

(٢) **أي**: سكَّنتني ومنعتني من انتهاك ما لا يَحِلُّ ولا يَجْمُل. **ينظر**: النهاية لابن الأثير (٥/ ٢١٢).

(٣) البيان والتبيين (٢/ ١٩٣).



أَطوارُ الخطابةِ

كان للعربِ في الجاهلية خطابةٌ أدبية، ولكنهم كانوا يقدِّمون الشاعر على الخطيب من جهة أن الشعر أعلقُ بالأذهان، وأسرعُ تقلُّبًا في البلاد، فهو أرفع صوتًا بمفاخرهم، وأكثرُ إذاعةً لمثالب أعدائِهم[١]. وتقديمُ العرب للشَّاعر على الكاتب، وإقبالُهم على حفظ الشعر أكثر من إقبالهم على حفظ الخطب، كان السببَ في قلة ما وصل إلينا من خطبهم في الجاهلية[٢].

والخطب التي يمكننا أن نستخلصَ منها صورةَ الخطابة في ذلك العهد، هي هذه الخطب التي تُؤثَر في كتب الأدب والتاريخ؛ كخطب وفود العرب عند كسرى، ثم هذه الخطب المرويَّة في كتب السيرة النبوية لزعماء العرب، الذين يَفِدون على رسول الله ﷺ مبدأ اعتناقهم للإسلام.

والنظرُ إلى جملة هذه الخطب، يجعلنا على ثقةٍ من أنَّ الخطابة قبل الإسلام كانت بهذه المنزلة المناسبة لأمةٍ هي إلى البداوة أقرب منها إلى

---

(١) قال أبو عمرو بن العلاء: «كان الشاعر في الجاهلية يُقَدَّمُ على الخطيب بفَرْطِ حاجتهم إلى الشعر الذي يُقَيِّدُ عليهم مآثرهم، ويفخِّمُ شأنَهم، ويهَوِّلُ على عدوِّهِم ومَنْ غَزَاهُم، ويُهَيِّبُ من فُرْسَانِهِم، ويخوِّفُ من كَثْرَةِ عددهم، ويهابهم شاعرُ غيرهم فيراقب شاعرَهم، فلمَّا كَثُرَ الشعر والشعراء، واتخذوا الشعر مكسِبَةً ورحَلُوا إلى السُّوْقَةِ وتسرعوا إلى أعراض الناس، صار الخطيبُ عندهم فوقَ الشاعر، ولذا قال الأول: (الشعر أدنى مروءة السَّرِي، وأسْرَى مروءة الدَّنِي)، ولقد وَضَع قول الشعر من قَدْرِ النابغةِ الذُّبْيَاني، ولو كان في الدهر الأول، ما زاده ذلك إلا رفعة». البيان والتبيين (١/ ٢٤١). **وينظر**: العمدة لابن رشيق (١/ ١٢٢)، مقدمة ابن خلدون (١١٢٢).

(٢) كما أنَّ حفظ النظم أيسر من حفظ النثر.

الحضارة، ولكنها كانت ذاتَ ذكاء وحُسْن تصرُّفٍ في فنون البيان.

وهذه الخطب تُمَثِّلُ الخطابةَ في عهد الجاهلية، سواءٌ علينا أكانت مأثورةً على نحو الواقع أم وصلت أَثَارةٌ[١] منها إلى أيدي الرواة، وأضاف إليها بعضُهم جُمَلًا تحاكيها في أسلوبها وطِرْز[٢] تفكيرها.

ولا وجه لإنكار أن يكون في العرب قبل الإسلام خطابة ممتازة[٣]، فإن الخطابة أثرُ انفعالاتٍ تنشأ عن حوادث تَمَسُّ الجماعات، ولم تخلُ حالُ العرب من حوادثَ على هذا النَّحْو، فقد كانوا مطبوعين على التَّفَاخر بخصالِ السُّؤْدَدِ؛ كإباءةِ الضَّيْم، وحماية الجار، وعلى التَّفاخر بمجد الآباء والعشيرة والقبيلة، فتثورُ بينهم لهذه الطبيعةِ محاوراتٌ شديدةٌ، وجِدَالٌ عنيف، وكانت الحروب بينهم لا تكاد تضعُ أوزارَها، وكانت لهم بعدَ هذا مجامعُ ينشرون فيها مصنوعاتِ قرائحِهم، ليباهوا بما فيها من بلاغةٍ وحكمة.

وإذا كان في لغة القوم بلاغةٌ، وفي نفوسهم طُمُوحٌ إلى السِّيَادة، وفي ألسِنتهم قوةٌ على الجَدَل، وشِدَّةٌ في المُحَاورة، وفي أَيْمَانهم سيوفٌ تتجافى عن أغمادها، وفي بلادهم أسواقٌ بضاعتُها ما تبتدعُه القرائح، فما الذي يمنعهم من أن يلدوا خطباءَ يقرَعُون الأسماع بذكر مفاخرهم، ويُثيرون العواطفَ إلى الدفاع عن أعراضهم وأنفسهم وأموالهم؟

طلع الإسلام بشأنه الخطير فاتسع مجال الخطابة، واشتدت البواعث على ركوب منابرها، ومن أهم هذه البواعث: الدعوة إلى هداية

---

(١) **أي**: بقية.

(٢) **أي**: نَمَط وطريقة. وهي من الألفاظ الشائعة في كتب المؤلف.

(٣) **الممتاز**: المتميز عن غيره. فقد يكون في الخير، وقد يكون في الشر، كما قال تعالى: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [يس]. ولم أجد استخدامه بمعنى الحَسَن، ولذا أنكره بعضهم بهذا المعنى. **ينظر**: تقويم اللسانين لتقي الدين الهلالي (١١٧).

الإسلام، والتحريض على الوقوف في وجه خصومه بعزم وطيدٍ[١] وإقدام حكيم، ويضاف إلى هذا أنَّ من أسباب إجادتِها وإبداعها ما بَهَرهم به القرآن ومنطق رسول الله ﷺ من بلاغة القول وروعة الأسلوب.

وقد تنفَّس صدرُ الإسلام برجالٍ سبقوا في حَلْبَة الخطابة، حتى أصبح الخطباء لذلك العهد يُقَدَّمون على الشعراء ويُرفَعون فوقهم درجَات، خصوصًا عندما انحطَّ الشِّعْرُ بالإسراف في المديح، والإقذاع في الهجاء، والإغراق في التَّشْبِيب، وفي المديح المُفْرِط مَلَقٌ[٢]، وفي الهجاء المُقْذِع دَناءَةٌ، وأقلُّ ما يدلُّ عليه الإسراف في التَّشبيب أنَّ صاحبَه لا يُرجَى لمقامات الجِدِّ، ولا يصلح لأن تُنَاط به جَلائلُ الأعمال.

واستمرت الخطابة لأول عهد الدولةِ العباسية بمنزلتها التي بلغَتْها في صدر الإسلام، ومن بلغاء الخطباء في هذا العهد: أبو جعفر المنصور، والمأمون بن الرشيد، وجعفر بن يحيى[٣]، وشبيب بن شيبة[٤].

ولما اختلط العرب بالعجم، وأصبح الموالي يتقلَّدون إمارة الجيوش وولاية الأعمال، ساءت حالُ الخطابة العربية، فاغبرَّ وَجْهُهَا، وبَلِي ثوبُها، وتضاءل على المنابر صوتُها. وفي هذا العهد قامت سوق السَّجْع، واندفع يستولي على النثر كتابةً وخطابة. وإذا كان في بعض الخطب المنسوجةِ على منوال السَّجْع فَصَاحَةٌ ورَوْنَقٌ، كخطب ابن نُبَاتة،

---

(١) أي: ثابت.

(٢) الملق: أن تعطي باللسان ما ليس في القلب. قال المأمون: «الثناء أكثر من الاستحقاق مَلَقٌ وهَذَر». زهر الآداب (٢/ ٣٦٠).

(٣) هو: جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي، أبو الفضل، وزير الرشيد العباسي، ولد ونشأ في بغداد، واستوزره هارون الرشيد، ملقيًا إليه أزِمَّة الملك، وكان يدعوه: أخي، فانقادت له الدولة، يحكم بما يشاء فلا ترد أحكامه، إلى أن نقم الرشيد على البرامكة نقمته المشهورة، فقتله في مقدمتهم، ثم أحرق جثته بعد سنة. وهو أحد الموصوفين بفصاحة المنطق وبلاغة القول. وفيات الأعيان (١/ ٣٤٢)، الأعلام (٢/ ١٣٠).

(٤) ستأتي ترجمته.

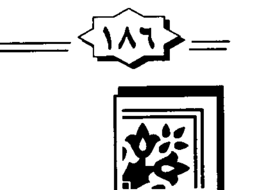
فإنَّ كثيرًا منه لم يُكسِبْه السجع إلا سَمَاجةً وثِقَلًا. والتزامُ السجع ـ كما يقول ابن خلدون ـ: «ناشئٌ من القصور عن إعطاء الكلام حقَّه في مطابقة مقتضى الحال»[1].

عندما سقطت بغداد في أيدي التَّتَار، وصارت الدولة إلى أيدي أمراءَ لا يعنيهم شأنُ العربية، انحطَّت اللغة العربية إلى دَرْكٍ سافلٍ، وظَلَّت الخطابة بعد هذا مقصورةً على أيام الجُمَعِ والأعياد ومواسم الحج، وموقوفةً على مواعظ محدودة، بعد أن كانت تخوضُ الإرشادَ إلى وسائل العِزَّة ووجوه الإصلاح.

وما برحت الخطابةُ في موقفها، حتى أقبلَ عهدُ الخديوي إسماعيل باشا، واهتزَّت مِصْرُ في حركة اجتماعية أو سياسية، فنشطت الخطابة مِنْ عِقَالِها، بل بُعِثَتْ من مرقدِها، وتخلَّصَتْ من قيود السجع، فآتَتْ من الآثار ما تقرؤون اليوم وما تسمعون.



(١) مقدمة ابن خلدون (١٠٩٥).




أَسبابُ ارتقاءِ الخَطابةِ

إذا اعتبرنا بأطوار الخطابة عند العرب نجد الخطابة أخذت ترتقي **في ثلاثة أحوال:**

في أواخر عهد الجاهلية. في صدر الإسلام. في صدر نهضتنا الحاضرة.

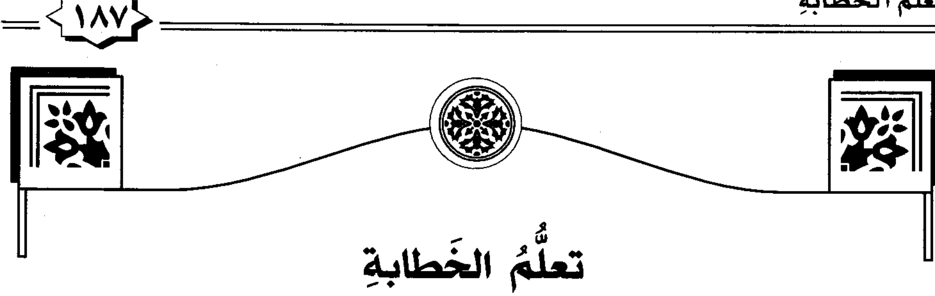
نأخذ من الحالة الأولى أنَّ من أسباب رُقِيِّ الخطابة ـ بعد فصاحة اللغة ـ: حياةَ الأمة في بيئةٍ حُرَّةٍ، وشعورَها بأنَّها ذاتُ سُؤْدَدٍ وفَخَارٍ، وكثرة تَردُّدِهَا على حروبٍ تُدَافِعُ فيها عن أعراضها ونفوسِها وأموالِها.

ونأخذ من الحالة الثانية أنَّ من أسباب رُقِيِّ الخطابة: اعتناقَ الأمةِ دينًا تحملُها الغَيْرَةُ والعاطفة على أن تَبُثَّ نصائحَه وتُجاهرَ في سبيله بما تملك من قوة.

ونأخذ من الحالة الثالثة أنَّ من أسباب رُقِيِّ الخطابة: شعورَ الأمة بالحاجة إلى أن تأخذَ الحالة الاجتماعية [و][1] السياسية هَيْئةً غيرَ هيئتِها، وتسلكَ سيرةً أقومَ وأهدى من سيرتها.



(١) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق. وقد خلت من المطبوعتين.



تعلُّمُ الخَطابةِ

قد يَدْرُسُ علومَ الأدب بما فيها من علمي العَروض والقوافي مَنْ لا يدري كيف يصنعُ شِعْرًا مستقيمَ الوَزْن سليمَ القافية، وقد يَدرُسُ علومَ الأدب بما فيها من علوم البلاغة مَنْ لا يستطيعُ أن يكتبَ خِطَابًا يُسِيغُه الذَّوْقُ الصحيح، كذلك الرجلُ قد يدرسُ قوانين الخطابة ويضيفُ إليها التَّضَلُّعَ من علوم اللغة وآدابها، ثم لا يكون له بعد هذا في الخطابة العَمَلِيَّةِ جزءٌ مقسوم.

الخطابةُ لا يُحكِم صُنعَها إلا من يأخذ بها خاطِرَه يومًا فيومًا، ويُرَوِّضُ عليها لسانَه في هذا المَجْمَعِ مَرَّةً، وفي ذلك المَجْمَعِ مَرَّةً أخرى.

نقرأ في كتب الأدب ما يدلُّنا على أن العرب كانوا يأخذون أنفسهم بالتدرُّب على الخطابة حتى تلين لهم قناتُها[1]، نجدهم حين يتحدثون عن عمرو بن سعيد بن العاص يقولون: إنه كان لا يتكلَّم إلا اعترَتْهُ حُبْسَةٌ في مَنْطِقِه، فلم يزل يَتَشَادَقُ ويعالِجُ إخراج الكلام حتى مَالَ شِدْقُه، ومن أجل هذا دعي بالأشدق وإياه يعني **الشاعر الذي يقول**:

تَشَدَّقَ حتى مَالَ بالقولِ شِدْقُهُ ۝ وكُلُّ خطيبٍ لا أبا لك أَشْدَقُ[2]

---

(١) فاللسان يحتاج إلى أن يُمرَّن على القول، حتى يخفَّ له، كما تحتاج اليد إلى التمرين على العمل، والرِّجْل إلى التمرين على المشي. قال ابن المقفع: إذا كَثُرَ تقليبُ اللسان رقَّت جوانبُه ولانت عَذَبَتُه. وقال العتّابي: إذا حُبِسَ اللسانُ عن الاستعمال اشتدت عليه مخارج الحروف. **ينظر**: الكامل للمبرد (٢/ ٧٦٤). **وينظر** ما سلف في أصول الإنشاء والخطابة (٥٢، ١٤٠).

(٢) أنشده الجاحظ في البيان والتبيين (١/ ٣١٥). **وينظر**: أصول الإنشاء والخطابة (١٤٠).

وربما تصدَّى بعض خطبائهم لتعليم الفتيان كيف يخطبون، يقصُّ علينا صاحب (العِقْد الفريد)[١] أنَّ بِشْرَ بنَ المعتمر مَرَّ بالخطيب إبراهيم بن جَبَلة السَّكونيِّ وهو يعلِّم فتيانَهم الخطابة، فوقف بشرٌ يستمع ثم قال لهم: اضربوا عما قال إبراهيم صَفْحًا، واطووا عنه كَشْحًا، ثم دفع لهم صحيفةً من تَنْمِيقِه تحتوي شيئًا من آداب الخطابة[٢].

والخطابة كسائر الصناعات يتفاوت الناس في إتقانها والأخذ بزمامها؛ فمنهم مَنْ يمتلكها في أَمَدٍ[٣] قريبٍ، ومنهم مَنْ يحتاج إلى أن يصرف في مزاولتها زمنًا بعيدًا، وقد كان أهل الأدب يقولون: إنهم لم يروا قطُّ خطيبًا بلديًّا إلا وهو في أول تكلُّفِه للخطابة [كان][٤] مُستثقَلًا، إلى أن يَتوقَّحَ[٥] وتستجيبَ له المعاني، ويتمكَّنَ من الألفاظ، إلا شبيب بن شَيْبَة[٦]، فإنَّه بدأ بحلاوةٍ ورشاقة، وسُهولة وعُذوبة[٧].

وإذا كانت الخطابةُ صناعةً تتعاصَى على طُلابها إلا أن يأتوها عن[٨] طريق الدُّرْبَة والممارسة، فمن اللائق برجالٍ يتقلَّدون في هذه الأمة أَمْرَ التعليم، أن يفرِضُوا لها من أوقات الدراسة نصيبًا كافيًا، حتى تُخرِجَ لنا هذه المعاهدُ والمدارسُ خطباءَ يقودون الأمة إلى حيث تلقى السِّيَادة والعَظَمة.

---

(١) يرى الشيخ محمد بهجة الأثري أنَّ اسم الكتاب هو (العقد) فحسب، وزاد النساخ المتأخرون صفة (الفريد) من عند أنفسهم. **ينظر**: مجلة المجمع العلمي العراقي (م/ ٣٥، ٢/ ٦١).

(٢) الخبر في البيان والتبيين (١/ ١٣٥)، ولم أجده في العقد.

(٣) (ح): أمر. وهو غلط. والتصويب من الأصل.

(٤) ما بين المعكوفين سقط من الأصل، واستدرك من البيان والتبيين.

(٥) **أي**: يشتد عوده.

(٦) **هو**: شبيب بن شيبة بن عبد الله الأهتم، أبو معمر، كان نديمًا للمنصور وللمهدي من بعده، وكان كريمًا عليهما، أثيرًا عندهما. يقال له: (الخطيب) لفصاحته، توفي سنة ١٧٠هـ. وفيات الأعيان (٢/ ٤٥٨)، الأعلام (٣/ ١٥٦).

(٧) البيان والتبيين (١/ ١١٢).

(٨) (ح): من. والمثبت من الأصل.



إعطاءُ الحروفِ حقَّها

ومما يُقِيمُ الخطبة ويكسوها رَوْنَقًا، أن يلفِظ الخطيبُ بالحروف مُتَمَكِّنَةً من مخارجها، وقد كان العرب يحتفلون بهذا الوجه من الحُسْن، فيأسفُ الخطيب على سقوط شيءٍ من أسنانه، وإنما يأسف؛ لأنه يَفُوتُه النطقُ ببعض الحروف على وجهها الصحيح. سقطت ثنايا عبد الملك بن مروان فَشَدَّها بالذهب وقال: «لولا المنابرُ ما باليتُ متى سَقَطَتْ»[١].

وكانوا يفضِّلون الخطيب الذي يمكِّن الحروف من مخارجها على الخطيب الذي يضع الحرف بمخرج غيرِ مكين. خطب الجُمَحِيُّ، وكان منزوعَ إحدى الثَّنِيَّتَيْنِ، فكان عندما ينطق يُخالط نطقَه شيءٌ يُشبِه الصَّفِير، وخَطَب عَقِبَهُ زيدُ بنُ عليِّ بنِ الحسين، فأجاد الخطيبان إلا أنَّ زيد بن عليٍّ فَضَل الجُمَحِيَّ بتمكين الحروف وحسن مخارج الكلام، **فقال عبد الله بن معاوية[٢] يذكر ذلك:**

صَحَّتْ مخَارجُهَا وتَمَّ حروفُها　　　فلهُ بذاك مَزِيَّةٌ لا تُنْكَرُ[٣]

ولِهُجْنَةِ الحروف غيرِ المتمكِّنة، ونُبُوِّها عن السمع، كان بعض الخطباء الذين يُبْلَوْنَ بنحو اللُّثْغَةِ يَتجنَّبون في كلامهم الحرفَ الذي يَتعذَّرُ

---

(١) البيان والتبيين (١/ ٦٠).

(٢) هو: عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، كان جوادًا فارسًا شاعرًا، طلب الخلافة في أواخر دولة بني أمية، وعلا أمره وتبعه خلقٌ، ثم هزم، وقبض عليه عامل هراة، وقتله سنة ١٢٩هـ. سرح العيون (٣٤٧)، الأعلام (٤/ ١٣٩).

(٣) شعر عبد الله بن معاوية (٤٦). والخبر في البيان والتبيين (١/ ٥٨).

عليهم أن يلفِظوا به على وَجْهٍ سليم، ومثل هذا واصل الغَزَّال[١]، فقد كان ألثغَ قبيحَ اللُّثغَة[٢] في النُّطْقِ بالراء، فكان يتحامَى أن ينطِق بكلمةٍ تحتوي على الراء، على كثرة تردد الرَّاء في الكلام، ولقوَّة عارِضَتِه، وغَزَارة مادَّته من اللغة استطاع أن يلقيَ الخُطَبَ الطِّوَال دون أن يأتيَ على لفظٍ يشتملُ على هذا الحرف، وقد مَدَحَه بهذا الصنيع بعضُ الشعراء[٣] فقال:

عليـمٌ بإبدالِ الحروفِ وقَامِعٌ لكلِّ خطيبٍ يغلبُ الحقَّ بَاطِلُهْ[٤]

ومما يؤخذ به الخطيب أن ينطقَ بالألفاظ في عَجَلٍ حتى يَصِلَ الحرفَ أو اللفظَ بأخيه قبل أن يستقرَّ الحرفُ أو اللفظُ الأول في موضعِه[٥]، والأدب الجميل أن يمكِّن الحروف تمكينًا، ويفصِّلَ الكلمات تفصيلًا، وكذلك كان كلامُ أفصحِ الخليقة صلوات الله عليه، قالت أم المؤمنين عائشة ﵂: «ما كان رسولُ الله ﷺ يَسْرُدُ سَرْدَكم هذا، ولكنَّه كان يتكلَّم بكلامٍ بَيِّنٍ فَصْلٍ يحفظُه مَنْ جلس إليه»[٦].



---

(١) **هو**: واصل بن عطاء الغزَّال، أبو حذيفة، بليغٌ، متكلِّم، رأس المعتزلة، سمي أصحابه بالمعتزلة لاعتزاله حلقة الحسن البصري، وعرف بالغزَّال لتردده إلى سوق الغزْل، ليتصدق على النسوة الفقيرات. توفي سنة ١٣١هـ. سير أعلام النبلاء (٥/ ٤٦٤)، الأعلام (٨/ ١٠٨).

(٢) الأصل: اللغة. وهو غلط، والمثبت من الكامل للمبرد (٣/ ١٩٣).

(٣) **هو**: أبو الطُّروق الضبِّي كما في الكامل (٣/ ١٩٣).

(٤) الخبر في الكامل (٣/ ١٩٣). **وينظر**: البيان والتبيين (١/ ١٥).

(٥) ويسمَّى: اللَّفف، أعني إدخال حرف في حرف، وهو من عيوب الخطباء. هجا أبو الزحف الراجز أحدَهم فقال: (كأنَّ فيه لَفَفًا إذا نَطَقْ). **ينظر**: الكامل (٢/ ٧٦٣).

(٦) رواه البخاري (٣٥٦٨)، ومسلم (٦٥٥٤)، والترمذي (٣٦٣٩)، واللفظ له. وقوله: «لم يكن يسرد سردكم هذا»؛ **أي**: لم يكن يتابع الحديث استعجالًا بعضه إثر بعض، لئلا يلتبس على المستمع. **ينظر**: فتح الباري (٦/ ٥٧٨). **وينظر هدي النبي ﷺ في كلامه في**: زاد المعاد (١/ ١٧٥).



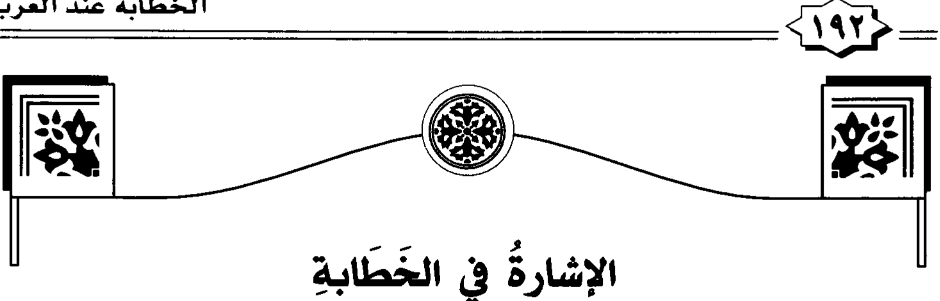
حُسْنُ الإلقاءِ

لاختيار المعاني وحسن تنسيق الألفاظ وَقْعٌ في نفوس السامعين بليغٌ، ومما يزيد الخطبة حُسْنًا على حسنها، أن يُجيد الخطيب إلقاءها، ونعني بإجادة الإلقاء: أن لا يستمرَّ في نُطقِه بالجُمَل على حالٍ واحدة، بل تكون الجمل متفاوتةً في مظاهرها، من نحو رفع الصوت وخَفْضِه، وتفخيمه وترقيقه، والوقوف عند جملة، أو وصله بأخرى، والضَّغْطِ على الكلمة أو التلفُّظ بها في هَوَادَةٍ، وأنتم تعلمون أنَّ من هَيْئَات النطق بالجملة ما[1] يُشعِرُ بابتهاجِ الخطيب أو حزنه، ومنها ما يُلائِم الجمل التي يلقيها وهو واثقٌ بصِحَّتها، ومنها ما يُلائم الجمل المرسلةَ لتهكُّمٍ أو مزاحٍ، ومرجع هذا كلِّه إلى ذكاء الخطيب وسلامةِ ذَوْقِه.

وجودةُ إلقاء الخطبة هي التي تجعل لسماعها فضلًا على قراءتها في صحيفة، وكم من خطبةٍ يُحسِنُ الرجلُ إلقاءَها فيجدُ الناسُ في سماعها من الارتياح وهِزَّةِ الطَّرَبِ فوق ما يجدونه عندما يقرؤونها في صحيفة، أو يستمعون إلى من يسرُدها عليهم سَرْدًا متشابهًا.



(١) (ح): مما. والمثبت من الأصل.



الإشارةُ في الخَطَابةِ

من سُنَن الخطابة عند العرب وغير العرب، أن يقرِن الخطيبُ بعضَ أقواله بإشاراتٍ محسوسة، كرفع اليد وخَفْضِها، أو قَبْضِها وبَسْطِها، أو إِدَارَتِها إلى اليمين في حالٍ وإدارتِها إلى اليسار في حالٍ أخرى، وأمثال هذه الإشارات لا يكاد صاحبُ حديثٍ يستغني عنها. قال ثُمامة بن أشرس[(١)]: «لو كان ناطقٌ يستغني بمنطِقِه عن الإشارة، لاستغنى جعفرُ بن يحيى[(٢)] عن الإشارة كما استغنى عن الإعادة»[(٣)].

وقد يتكلَّف الرجلُ أن يتكلَّم في هدوء وسكون، ويحرص على أن لا يتحرَّك من جوارحه حين يتحدث غير شفتيه ولسانه، مثل ما كان يصنع أبو شَمِر[(٤)] ويقول: «ليس من المنطِق أن تستعين عليه بغيره»[(٥)]. وإنما تتيسَّر هذه الهَيْئةُ لمن يتحدَّثُ في راحةِ بالٍ وقرارةِ جَأْشٍ[(٦)]، وليس هذا شأنَ الخطيب المطبوع، وإنما شأنه تَوَقُّدُ الفؤاد، وهياج العاطفة،

---

(١) هو: ثمامة بن أشرس النميري، معتزلي، قدري، وهو الذي دعا المأمون إلى الاعتزال، تروى عنه أخبار تشير إلى استخفافه بالدين، وهو من كبار البلغاء، قال الجاحظ ـ وهو من تلاميذه ـ: «ما علمت أنه كان في زمانه قروي ولا بلدي، كان بَلَغَ من حسن الإفهام مع قلَّة عدد الحروف، ولا من سهولة المخرج مع السلامة من التكلُّف، ما كان بلغَه». توفي سنة ٢١٣هـ. البيان والتبيين (١/ ١١١)، الأعلام (٢/ ١٠١).

(٢) سبقت ترجمته.

(٣) البيان والتبيين (١/ ١٠٥).

(٤) أبو شَمِر من القدرية المرجئة، تنسب إليه طائفةٌ من المرجئة يقال لهم: (الشَّمْرِيَّة) قال الجاحظ: «كان ذا تصرُّفٍ في العلم، ومذكورًا بالفهم والعلم». البيان والتبيين (١/ ٩٢)، الأنساب للسمعاني (٣/ ٤٥٥).

(٥) البيان والتبيين (١/ ٩١).

(٦) **الجأش**: النَّفس.

فهو في انفعالٍ يضطرُّه إلى أن يحرِّك يده ولو قليلًا[١].

فالخطيب الأَحْوَذُ[٢] من يحتفظ بحُسْن الصمت، ولا يكثرُ من الإشارة، وإذا أشارَ فإنما تكونُ إشارتُه من الحِكْمَة، كأنَّها شيءٌ استدعاه المعنى بطبيعتِه[٣].



(١) ولذا فإنَّ شأن أبي شمرٍ هذا كان مع أصحابه الذين يستمعون منه، ويسلمون له، ويقبلون كل ما يورده عليهم، فلم يكن في انفعالٍ يلجئه إلى أن يستعين بإشارة، لكن لما نازعه إبراهيم النظَّام، اضطرَّه بالحُجَّة، وبالزيادة في المسألة، حتى حرَّك يديه وحَلَّ حُبْوته، وحبا إليه حتى أخذ بيديه. **ينظر**: البيان والتبيين (١/ ٩٢).

(٢) **الأحوذ**: الحاذق المتقِن. مقاييس اللغة (٢/ ١١٥).

(٣) أما خطبة الجمعة فالأصل فيها عدم الإشارة، بل المستحب أن يسكن أطرافه، ولا يشير إلا برفع السبابة فقط، لما روى مسلم في صحيحه (٨٧٤) عن عمارة بن رؤيبة أنه رأى بشر بن مروان على المنبر رافعًا يديه فقال: «قبَّح الله هاتين اليدين، لقد رأيت رسول الله ﷺ ما يزيد على أن يقول بيده هكذا، وأشار بأصبعه المسبِّحة». قال النووي: «فيه أن السُّنَّة أن لا يرفع اليد في الخطبة». شرح صحيح مسلم (٦/ ١٦٢). وقال الشافعي: «أحبُّ أن يسكن جسده ويديه». الأم (١/ ١٧٧). **وينظر**: المغني (٣/ ١٧٩)، مرقاة المفاتيح (٣/ ٢٣٠). ويستثنى من ذلك ما إذا أراد الخطيب أن يمثِّل بيديه لتبيين قولٍ ما، كما جاء في صحيح مسلم (٨٦٧) عن النبي ﷺ أنه قال في خطبته: (**بُعثتُ أنَا والسّاعة كَهَاتين**) وقرن بين أصبعيه السبابة والوسطى.





القيامُ بمكانٍ مرتفعٍ حالَ الخُطْبةِ

يقفُ الخطيبُ بمكانٍ مرتفعٍ لكي يمتدَّ صوتُه إلى مدًى أبعدَ مما يبلغه لو كان قائمًا بمكانٍ مُسَاوٍ لمقاعدِ المستمعين، ومن دواعي ارتفاع الخطيب أن يشهدَ الحاضرون إشاراتِه الممثِّلة لبعض المعاني المعقولة. ووقوفُ الخطيب بمرأى من المستمعين يدعوهم إلى الإقبال عليه بأوفى مما لو كانوا يسمعون حديثَه وهو غائبٌ عن أبصارهم.

وكان رسول الله ﷺ يخطب يوم الجمعة مُسنِدًا ظهرَه إلى جِذْعٍ منصوبٍ في المسجد، ثم أَمَر فَصُنِعَ له منبرٌ من طَرْفَاءِ الغَابة[1]، وكانَ المنبرُ مُركَّبًا من ثلاثة[2] درج، وبقي بهذه الهيئة حتى زاده مروان في خلافة معاوية سِتَّ درجات من أسفله، وقال: «إنما زِدْتُ فيه حين كَثُرَ الناس»[3].

وكان العرب يخطبون مِنْ قيام، ولا يخالفون هذه العادةَ إلا في خطبة النكاح؛ فإنهم يُلقُونَها مِنْ جلوسٍ؛ إذ ليس مِنْ شأنِها أن تحتوي معانيَ تدعو الحاجةُ إلى أن يَسمَعها جميعُ الحاضرين.

---

(١) **طرفاء**: نوعٌ من الأشجار من فصيلة الأثل، ما زال معروفًا في المدينة. **والغابة**: الشجر الملتف، والمراد بها هنا موضع في عوالي المدينة، يقع منها غربًا.

(٢) الصواب: ثلاث درج؛ لأن (درج) مؤنثة. لكن يمكن تصحيحه على مذهب البغداديين، فإنهم يعتبرون بلفظ الجمع في معرفة تذكير اللفظ وتأنيثه. **ينظر**: شرح ألفية ابن مالك للأشموني (٤/ ٦١).

(٣) **ينظر**: فتح الباري (٢/ ٣٩٩). **وينظر تفصيل القول عن منبر النبي ﷺ في**: التعريف بما أَنْسَت الهِجْرة للمطري (٨١). قال النووي: «أجمع العلماء على أنه يستحب كون الخطبة ـ **أي**: خطبة الجمعة ـ على منبر، للأحاديث الصحيحة، ولأن الناس إذا شاهدوا الخطيب كان أبلغ في وعظهم». المجموع (٤/ ٣٥٦).

وكان عليه الصلاة والسلام يخطُب قائمًا، وكذلك كان شأنُ الخلفاء الراشدين، وروي أنَّ معاوية بن أبي سفيان ﵁ خَطَب جالسًا، وذكروا في وجه الاعتذار عنه أنه جَلَس للخطبة حينما[(١)] ثَقُلَ جِسْمُه[(٢)]. وروى مسلمٌ في «صحيحه»[(٣)] أنَّ عبد الرحمٰن بن الحكم خَطَب في يوم جمعةٍ قاعدًا، فأنكرَ عليه بعض الصحابة، وقال: انظروا إلى هذا يخطُب قاعدًا والله تعالى يقول: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ [الجمعة: ١١].

وقد اتفق العلماء على أنَّ القيام في الخطبة مشروعٌ، وإنما اختلفوا في تقدير المشروعية، فذهب فريقٌ أنه شرطٌ في صحة الخطبة[(٤)]. وقال آخرون: إنه واجب[(٥)]، ولو خَطَب مِنْ جلوسٍ لَصحَّت الخطبةُ وارتكب إثمًا[(٦)]. والذي اعتمده الحنفية أنه سُنَّة[(٧)]، ولا يبلغ حَدَّ الوجوب، فلو خَطَب قاعدًا مضت الخطبةُ على ما نَقَصَها من أدبٍ كان رسولُ الله ﷺ يحافظُ عليه ما دام حيًّا.

❁ ❁ ❁

---

(١) كذا في الأصل. وفي (ح): حين.

(٢) **ينظر**: مصنف ابن أبي شيبة (٢/ ١١٢، ١١٣). قال ابن حجر: «ولا حجة في ذلك لمن أجاز الخطبة قاعدًا؛ لأنه تبيَّن أنَّ ذلك للضرورة». فتح الباري (٣/ ٦٤).

(٣) برقم (٨٦٤).

(٤) وهو قول الشافعي كما في الأم (١/ ٣٤٢). قال القرطبي: «وعلى هذا جمهور الفقهاء، وأئمة العلماء». الجامع لأحكام القرآن (١٨/ ١١٤). وحكي إجماعًا، ولا يصح. **ينظر**: شرح صحيح مسلم للنووي (٦/ ١٥٠).

(٥) وهو قول أكثر المالكية. **ينظر**: مواهب الجليل (٢/ ١٦٦).

(٦) جملة: (ولو خطب من جلوس...) سقطت من ح.

(٧) **ينظر**: فتح القدير لابن الهمام (١/ ٤١٤). وهو المشهور عند الحنابلة. **ينظر**: المغني (٣/ ١٧١).



الإرْتَاجُ في الخُطْبةِ

قد يعرِض للخطيب وإن كان ذا عارضةٍ قويةٍ ما يسمونه إرتاجًا، وهو أن يقف فتنقطعُ عنه مذاهبُ القول فلا يدري أين يضعُ كلامَه، **ومن أسباب الإرتاج**(١): الدَّهَشُ والانبهار الذي يأخذ النفس من هيبة الملأ العظيم، أو هيبةِ الرجل الذي شأنُه أن يَنقُدَ الأقوال بعَقْلٍ موزون. وحال الدَّهَش والانبهار إنما تغشى ذلك الذي لم يكن على ثقةٍ من كفايتِه لمقام الخطابة، فيَخشى أن يقع في معنى سخيفٍ أو لفظٍ مرذول. قال الكميت بن زيد: «إنما يجترئُ على الخطابة الغَمْرُ الجاهل، أو المطبوع الحاذق، الواثقُ بغَزارته واقتداره»(٢).

والخطيب المتصنِّع متى أُرتِجَ عليه لم يَسَعْهُ إلا أن يَدَع الكلام، وينزلَ عن مقام الخطابة صاغرًا، أما الخطيبُ المطبوع فقد ينبو فِكْرُه عن الغرض الذي وقف من أجله، ولكنه لا يعجِز أن يُسمِع الناس كلماتٍ بليغةً يصونُ بها موقفَه من أن يُسَامَ بغضاضةٍ أو ازدراء.

صعد خالدُ بن عبد الله القَسْري المنبرَ فأرتِجَ عليه، فمكث مَليًّا لا يتكلَّم، ثم تكلَّم فقال: «أما بعدُ، فإنَّ هذا الكلام يجيءُ أحيانًا ويعزُب أحيانًا، فيسيحُ عند مجيئه سَيْبُه، ويَعِزُّ عند عُزُوبِه طلبُه». إلى أن قال: «وقد يُرْتَجُ على البليغ لسانُه، ويَختلِجُ من الجريءِ جَنَانُه، وسأعود فأقول

---

(١) **ينظر**: الصناعتين (٢١).

(٢) البيان والتبيين (١/ ١٣٤). والقائل: الجاحظ تعقيبًا على قول الكميت: «إن للخطبة صَعْداء ـ **أي**: مشقة ـ وهي على ذي اللُّبِّ أرمى».

إن شاء الله»[١].

ويروى في هذه الصَّدَد أنَّ ثابت قُطْنَة[٢] صَعِد منبرَ سِجِسْتَان فقال: الحمد لله. ثم أُرتِجَ عليه، فنزل وهو يقول:

فإن لا أكنْ فيكم خطيبًا فإنني بسيفيَ في يومِ الوَغَى لَخَطيبُ

فقيل له: لو قلتَها فوق المنبر لكنتَ أخطبَ الناس[٣].



(١) **ينظر**: البداية والنهاية (١٠/ ١٨).

(٢) الأصل، (ح): ثابت بن قطنة. والصواب ما أثبت. **وهو**: أبو العلاء ثابت بن كعب، شاعر فارس شجاع، من شعراء الدولة الأموية، لقب (قطنة)؛ لأنَّ سهمًا أصابه في عينه في بعض حروب الترك، فجعل عليها قطنة فعرف بها. توفي سنة ١١٠هـ. الأغاني (١٤/ ٢٥٥)، الأعلام (٢/ ٩٨).

(٣) عيون الأخبار (٢/ ١٤٥). وتقدم ذكر البيت ص (١٨١).



الارتجالُ في الخُطْبةِ

في الناس مَنْ يقفُ ليخطب فَتَنْهَالُ عليه المعاني، وتتسابقُ إليه الألفاظ، فيسترسلُ في القول دون أن يُدرِكَه حَصَرٌ أو يَتعثَّرَ في لَجْلَجةٍ[1]، وهذا ما نسمِّيه ارتجالًا.

وفي الناس مَنْ تجيئُه المعاني على مَهَلٍ، وتتوارد عليه الألفاظ في تباطؤ، فلا يحسن أن يخطب إلا بعد أن يُعِدَّ لمقام الخطابة مَقَالًا.

قال أبو هلال العسكري: «في الناس مَن إذا خلا بنفسه وأَعْمَل فِكْرَه أتى بالبيان العجيب، واستخرجَ المعنى الرَّائق، وجاء باللفظ الفائق، فإذا حاوَر أو ناظَر قَصَّر وتأَخَّر، فخَلِيقٌ بهذا أن لا يتعرَّضَ لارتجال الخُطَب»[2].

وكانوا فيما سلف يتَّهمون الخطيب المبدِع بأنه يهيئُ الخطب ويحبِّرها تحبيرًا، وإنما ينفي عنه هذه التُّهْمَةَ أن يحدُث داعٍ للخطابة فَجْأَةً فيقفُ ويخطبُ بما يُشْبِهُ خُطَبه السابقةَ ارتجالًا. قيل لبعض الخلفاء: إنَّ شبيب بن شيبة يستعملُ الكلامَ ويستعيرُه، فلو أمرتَ أن يصعدَ المنبر لرجوتُ أن يَفتضح، فأمرَ رسولًا فأخذ بيدِه إلى المسجد فلم يُفَارِقْهُ حتى صَعَد المنبرَ فارتجلَ كلامًا يُشْبِه طِرَازَ خطبه، فعرفوا أنه من أولئك الذين يستطيعون أن يقتضبوا الخطب ساعةَ يقومون على أعواد المنابر اقتضابًا.

---

(١) **لَجْلَجَ الرجلُ لَجْلَجَةً**: إذا اضطرب في كلامه ولم يُبِنْ.

(٢) الصناعتين (٢٠).

فبلاغة الخطيب في نفسها مَزِيَّةٌ، وارتجالُها بعد هذا مَزِيَّةٌ أخرى[١]، وإنما يقوى على ارتجال الخطبة وإلقائِها متماسكةَ الحَلَقات مَنْ سبق له أن أدركَ معانيَ كثيرةً تتصل بالموضوع، وكانت له حافظةٌ قويةٌ تؤدي إليه صورةَ هذه المعاني كما أودعها، وكان بعدَ هذا أَلْمَعِيًّا مُهَذَّبًا، ويحسن التصرُّف في هذه الصور، ويضع كلَّ صورة بالمكان اللائق بها.

أيها السَّادة:

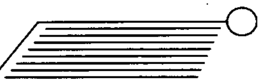
هذا ما سمح المقام بعرضه على أسماع شبابنا الأذكياء، وإنما قَصَدْنَا تذكرتَهم بهذا الفن الجليل فَنِّ[٢] الخطابة، لعلهم يمنحونه من إقبالهم جانبًا، فإنَّ الحاجة الشديدة إليه قائمةٌ، والدواعي إلى تَرْقِيَتِه وتوسيع نطاقه مجتمعةٌ، وأولو الألباب هم الذين يقدِّرون الحاجات فيبادرون إلى سَدِّها، ويستمعون إلى الدواعي فيحسنون إجابتها.



---

(١) قال المؤلف في كتابه «الدعوة إلى الإصلاح» (٦٦): «ويزيد في حسن الخطبة ونفعها أن تكون من إنشاء الداعي، ويكون نفعها أبلغ إذا استطاع أن يرتجلها ارتجالًا؛ فإن الأقوال التي يَنزِعُ معناها بنفسه، ويَسبِكُ عباراتِها بطبعه، تكون أبلغ أثرًا في نفوس السامعين، وأملك لعواطفهم من أقوالٍ صنعت من قَبْلُ، فأخذ يحكي ألفاظَها حرفًا فحرفًا. والأقوالُ المنشأة حال إلقائها تصدر عن انفعال نفسٍ وقوة إرادة، فتنفذ في نفس السامع بألفاظٍ جديدة، وهيأةٍ غير مصطنعة».

(٢) (ح): من. والمثبت من الأصل.



فهرس المصادر والمراجع

١ ـ **ابن عاشور ومنهجه في التفسير**: الدكتور عبد الله الريس (رسالة دكتوراه ـ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ كلية أصول الدين) ١٤٠٨هـ.

٢ ـ **آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي**: جمع وتقديم نجله: الدكتور أحمد الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.

٣ ـ **أحاديث في رحاب الأزهر**: الخضر حسين، إعداد وضبط: علي الرضا الحسيني، الدار الحسينية للكتاب، ١٤١٤هـ.

٤ ـ **أدب الدنيا والدين**: الماوردي، حققه: ياسين السواس، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الثالثة، ١٤٢٣هـ.

٥ ـ **الأدب اليوناني**: فرنان روبير، ترجمة: هنري زغيب، منشورات عويدات، باريس، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م.

٦ ـ **إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل**: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ.

٧ ـ **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**: ابن عبد البر، دار المعرفة، بيروت.

٨ ـ **أسرار البلاغة**: عبد القاهر الجرجاني، قرأه محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.

٩ ـ **الإسكندر الكبير فتوحاته وريادة الفكر اليوناني في الشرق**: الأب متوديوس زهيراتي، دار طلاس، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٩٩م.

١٠ ـ **إصلاح المساجد**: جمال الدين القاسمي، دار الفكر، بيروت.

١١ ـ **أعلام**: الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، للدكتور محمد العزيز ابن عاشور، دائرة المعارف التونسية، الكراس الأول، ١٩٩٠م.

١٢ ـ **الأعلام**: خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة عشرة، ٢٠٠٢م.

١٣ ـ **الأغاني**: أبو الفرج الأصفهاني، دار الكتب المصرية.

١٤ ـ **الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء**: سليمان الكلاعي الأندلسي، تحقيق: الدكتور محمد كمال الدين، دار عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

١٥ ـ **الإلماع في أصول الرواية وتقييد السماع**: القاضي عياض، تحقيق: السيد أحمد صقر، المكتبة العتيقة، تونس، الطبعة الأولى، ١٣٨٩هـ.

١٦ ـ **الأم**: الشافعي، دار الفكر.

١٧ ـ **أمالي المرتضى (غرر الفوائد ودرر الفرائد)**: الشريف المرتضى، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٨٧هـ.

١٨ ـ **الأمالي**: أبو علي القالي، تصوير دار الجيل، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ.

١٩ ـ **الإنباه على قبائل الرواة**: ابن عبد البر، تحقيق محمد نجم، دار المعرفة، بيروت.

٢٠ ـ **الأنساب**: السمعاني، تحقيق: عبد الله البارودي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.

٢١ ـ **أنوار الربيع في أنواع البديع**: ابن معصوم المدني، تحقيق: شاكر هادي شاكر، النجف، ١٣٨٨هـ.

٢٢ ـ **الإيضاح في علوم البلاغة**: الخطيب القزويني، تعليق وتنقيح: الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتاب اللبناني، الطبعة الخامسة، ١٤٠٣هـ.

٢٣ ـ **البحر المحيط في أصول الفقه**: بدر الدين الزركشي، تحقيق: الدكتور عمر الأشقر، وزارة الأوقاف، الكويت.

٢٤ ـ **بدائع الصنائع**: الكاساني، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.

٢٥ ـ **البداية والنهاية**: ابن كثير، مطبعة السعادة، مصر، الطبعة الأولى، ١٣٥١هـ.

٢٦ ـ **البدر الطالع بمحاسن القرن السابع**: محمد بن علي الشوكاني، تحقيق: الدكتور حسين العمري، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.

٢٧ ـ **البديع في نقد الشعر**: أسامة بن منقذ، تحقيق: الدكتور أحمد أحمد بدوي وزميله، القاهرة، ١٣٨٠هـ.

٢٨ ـ **البصائر والذخائر**: أبو حيان التوحيدي، تحقيق: الدكتورة وداد القاضي، دار صادر، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤١٩هـ.

٢٩ - **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**: جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٤هـ.
٣٠ - **البيان والتبيين**: عمرو بن عثمان الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت.
٣١ - **التاريخ الكبير**: الإمام البخاري، دار الكتب العلمية، بيروت.
٣٢ - **تاريخ بغداد**: الخطيب البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت.
٣٣ - **تاريخ دمشق**: ابن عساكر، تحقيق: محب الدين العمري، دار الفكر، ١٤١٩هـ.
٣٤ - **تحرير التحبير**: ابن أبي الإصبع المصري، تحقيق: الدكتور حفني محمد شرف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، مصر، ١٣٨٣هـ.
٣٥ - **تراجم الأعلام**: الفاضل ابن عاشور، تونس، ١٩٧٠م.
٣٦ - **تراجم المؤلفين التونسيين**: محمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.
٣٧ - **التربيع والتدوير (ضمن رسائل الجاحظ)**، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.
٣٨ - **تشنيف المسامع شرح جمع الجوامع**: الزركشي، تحقيق: الدكتور عبد الله ربيع وزميله، مؤسسة قرطبة، الطبعة الثانية، ٢٠٠٦م.
٣٩ - **التعالم وأثره على الفكر والكتاب**: بكر أبو زيد، (ضمن المجموعة العلمية)، دار العاصمة، النشرة الأولى، ١٤١٦هـ.
٤٠ - **التعريف بما أنست الهجرة من معالم دار الهجرة**: جمال المطري، دراسة وتحقيق: الدكتور سليمان الرحيلي، دارة الملك عبد العزيز، ١٤٢٦هـ.
٤١ - **التعريفات**: الشريف الجرجاني، تحقيق: الدكتور محمد المرعشلي، دار النفائس، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ.
٤٢ - **تفسير التحرير والتنوير**: محمد الطاهر ابن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.
٤٣ - **تفسير الرازي (التفسير الكبير)**، دار الكتب العلمية، بيروت.
٤٤ - **تفسير القرآن العظيم**: ابن كثير، تحقيق: سامي سلامة، دار طيبة، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ.
٤٥ - **تفسير الكشاف**: جار الله محمود الزمخشري، ضبطه: محمد عبد السلام شاهين، توزيع مكتبة عباس الباز، مكة، الطبعة الثالثة، ١٤٢٤هـ.

٤٦ ـ **تقريب التهذيب**: ابن حجر العسقلاني، تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٥هـ.

٤٧ ـ **تقويم اللسانين**: الدكتور محمد تقي الدين الهلالي، نشر وتوزيع مكتبة المعارف، الرباط، الطبعة الثاني، ١٤٠٤هـ.

٤٨ ـ **تلخيص الخطابة**: ابن رشد، حققه: عبد الرحمٰن بدوي، وكالة المطبوعات، الكويت.

٤٩ ـ **تهذيب الآثار**: الطبري، مكتبة الثقافة، بيروت، ١٩٩٨م.

٥٠ ـ **تونس وجامع الزيتونة**: محمد الخضر حسين، جمعه وحققه: علي الرضا الحسيني، ١٣٩١هـ.

٥١ ـ **الثقات**: ابن حبان، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الهند، الطبعة الأولى، ١٣٩٣هـ.

٥٢ ـ **جامع الأمهات**: أبو عمرو بن الحاجب، دار الكتب العلمية، بيروت.

٥٣ ـ **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**: ابن جرير الطبري، تحقيق: محمود شاكر، دار المعارف، مصر، الطبعة الثانية.

٥٤ ـ **الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور**: ابن الأثير، تحقيق: الدكتور عبد الحميد هنداوي، دار الآفاق العربية، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ.

٥٥ ـ **الجامع لأحكام القرآن**: أبو عبد الله القرطبي، تحقيق: الدكتور عبد الله التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ.

٥٦ ـ **الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع**: الخطيب البغدادي، تحقيق: الدكتور محمد عجاج الخطيب، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، ١٤١٦هـ.

٥٧ ـ **جمهرة أشعار العرب**: أبو زيد القرشي، تحقيق: الدكتور محمد الهاشمي، دار القلم، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ.

٥٨ ـ **جمهرة الأمثال**: أبو هلال العسكري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، وزميله، دار الجيل، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ.

٥٩ ـ **حاشية الباجوري على السلّم المنورق في فن المنطق**: مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ١٣٤٧هـ.

٦٠ ـ **حاشية الصبان على شرح الأشموني**: المكتبة الفيصلية، مكة المكرمة.

٦١ ـ **حسن التوسل إلى صناعة الترسل**: شهاب الدين محمود الحلبي، تحقيق ودراسة: أكرم عثمان يوسف، دار الرشيد، العراق، ١٩٨٠م.

٦٢ - **الحيوان**: أبو عثمان الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، الطبعة الثانية، ١٣٨٦هـ.

٦٣ - **الخطابة**: أرسطو (الترجمة العربية القديمة)، حققه: عبد الرحمٰن بدوي، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٧٩م.

٦٤ - **الخطابة**: أرسطو، ترجمة: الدكتور عبد الرحمٰن بدوي، دار الرشيد للنشر، وزارة الثقافة والإعلام، العراق، ١٩٨٠م.

٦٥ - **الدعوة إلى الإصلاح**: محمد الخضر حسين، تحقيق: علي بن حسن، دار الراية، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

٦٦ - **دلائل الإعجاز**: عبد القاهر الجرجاني، قرأه محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤١٣هـ.

٦٧ - **الدهاء في السياسة**: محمد الخضر حسين (ضمن محاضرات إسلامية) جمعها وحققها: علي الرضا التونسي، المطبعة التعاونية، ١٣٩٤هـ.

٦٨ - **ديوان ابن المعتز**: تحقيق: الدكتور يونس السامرائي، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

٦٩ - **ديوان ابن النبيه**، المطبعة العلمية، مصر، ١٣١٣هـ.

٧٠ - **ديوان ابن حمديس**، تحقيق: الدكتور إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

٧١ - **ديوان ابن نباتة المصري**، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٧٢ - **ديوان ابن نباتة**، تحقيق: عبد الأمير الطائي، دار الحرية، بغداد، ١٣٩٧هـ.

٧٣ - **ديوان أبي العتاهية**، تحقيق: الدكتور شكري فيصل، جامعة دمشق، ١٣٨٤هـ.

٧٤ - **ديوان أبي العلاء (سقط الزند)**، تحقيق: عبد السلام هارون، وجماعة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٤٠٦هـ.

٧٥ - **ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي**، تحقيق: محمد عبده عزام، دار المعارف، مصر، ١٩٦٤م.

٧٦ - **ديوان أبي دلامة الأسدي**، إعداد: الدكتور رشدي علي حسن، دار عمار، الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.

٧٧ - **ديوان أبي فراس الحمداني**، رواية ابن خالويه، عني بجمعه وشرحه: الدكتور سامي الدهان، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٤م.

٧٨ - **ديوان أبي نواس**، تحقيق: أحمد الغزالي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٢هـ.

٧٩ ـ **ديوان الأعشى الكبير**، دار النهضة العربية، شرح وتحقيق: الدكتور محمد محمد حسين، ١٩٧٤م.

٨٠ ـ **ديوان الخضر حسين (خواطر الحياة)**، حققه وعلق عليه: علي الرضا الحسيني، الدار الحسينية للكتاب، الطبعة الرابعة، ١٤١٠هـ.

٨١ ـ **ديوان المتنبي مع الشرح المنسوب إلى أبي البقاء العكبري**، ضبطه وصححه: مصطفى السقا، وصاحباه، مطبعة البابي الحلبي، مصر، الطبعة الأخيرة، ١٣٩١هـ.

٨٢ ـ **ديوان النابغة الذبياني**، شرحه الشيخ ابن عاشور، الشركة التونسية للتوزيع.

٨٣ ـ **ديوان الوأواء الدمشقي**، تحقيق: الدكتور سامي الدهان، دار صادر، بيروت.

٨٤ ـ **ديوان جميل**، جمع وتحقيق وشرح: الدكتور حسين نصار، دار مصر للطباعة، الطبعة الثانية، ١٩٦٧م.

٨٥ ـ **ديوان دريد بن الصمة**، تحقيق: الدكتور عمر عبد الرسول، دار المعارف، مصر.

٨٦ ـ **ديوان لبيد بن ربيعة**، حققه وقدم له: الدكتور إحسان عباس، الكويت، ١٩٦٢م.

٨٧ ـ **الذخيرة في محاسن الجزيرة**: ابن بسام، تحقيق: الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٣٩٩هـ.

٨٨ ـ **ذكريات الشيخ علي الطنطاوي**، دار المنارة، دمشق، الطبعة الثالثة، ١٤٢٢هـ.

٨٩ ـ **الرد على المنطقيين**: ابن تيمية، تحقيق: الشيخ عبد الصمد شرف الدين، إدارة ترجمان السُّنَّة، لاهور، الطبعة الثانية، ١٣٩٦هـ.

٩٠ ـ **رسائل أبي العلاء المعري**، المطبعة المدرسية، أكسفورد.

٩١ ـ **رسائل أبي بكر الخوارزمي**، مطبعة الجوائب، قسطنطينية، الطبعة الأولى، ١٢٩٧هـ.

٩٢ ـ **رسائل بديع الزمان مع شرحها (كشف المعاني والبيان)**: إبراهيم الأحدب الطرابلسي، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، ١٩٨٠م.

٩٣ ـ **روضة المحبين ونزهة المشتاقين**: ابن القيم، تحقيق: محمد عزير شمس، دار عالم الفوائد، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ.

٩٤ - **زاد المعاد في هدي خير العباد**: ابن القيم، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعبد القادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٢٤هـ.

٩٥ - **زهر الأمثال والحكم**: الحسن اليوسي، تحقيق: محمد الحجي وزميله، نشر دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٤٠١هـ.

٩٦ - **سر الفصاحة**: ابن سنان الخفاجي، تحقيق: الدكتور النبوي شعلان، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.

٩٧ - **سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون**: ابن نباتة المصري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤١٩هـ.

٩٨ - **سنن الترمذي**، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٩٩ - **سير أعلام النبلاء**: الذهبي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وجماعة، مؤسسة الرسالة، بيروت.

١٠٠ - **سيرة ابن إسحاق**، تحقيق: محمد حميد الله، جمعية الوقف لخدمات الخير، قونية، تركيا، الطبعة الثانية، ١٤٠١هـ.

١٠١ - **سيرة النبي ﷺ**: أبو محمد ابن هشام، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة دار التراث، القاهرة.

١٠٢ - **سيرة علي بن أبي طالب**: الدكتور علي الصلابي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٦هـ.

١٠٣ - **شرح الجوهر المكنون في صدف الثلاثة الفنون**: عبد الرحمٰن الأخضري، دراسة وتحقيق: الدكتور محمد بن عبد العزيز نصيف (رسالة دكتوراه - الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة) ١٤٢٩هـ.

١٠٤ - **شرح الرضي لكافية ابن الحاجب**، دراسة وتحقيق: حسن الحفظي وزميله، مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.

١٠٥ - **الشرح الصغير**: الصاوي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٧٨م.

١٠٦ - **شرح العضد على مختصر ابن الحاجب**: عضد الدين الإيجي، وبهامشه حاشيتا التفتازاني والشريف الجرجاني، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٣٩٣هـ.

١٠٧ - **الشرح الكبير**، لأبي البركات العدوي الدردير (ت١٢٠١هـ) على مختصر خليل المبين لما به الفتوى (ت٧٦٦هـ) مع حاشية الدسوقي على الشرح الكبير: محمد ابن عرفة الدسوقي، تحقيق: محمد عبد الله شاهين، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية.

١٠٨ ـ **شرح الكوكب المنير**: ابن النجار الحنبلي، تحقيق: الدكتور محمد الزحيلي وزميله، مكتبة العبيكان، ١٤١٣هـ.
١٠٩ ـ **شرح المختصر**: التفتازاني، منشورات إسماعيليان، الطبعة الثالثة، ١٣٨٦هـ.
١١٠ ـ **شرح المفتاح**: التفتازاني، مخطوط، مكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة، برقم (٨١/ ٤٦١).
١١١ ـ **شرح المقدمة الأدبية لشرح المرزوقي على ديوان الحماسة لأبي تمام**: الطاهر ابن عاشور، تحقيق: ياسر بن حامد المطيري، مكتبة دار المنهاج، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ.
١١٢ ـ **شرح المواهب اللدنية**: الزرقاني، المطبعة العامرة، مصر، ١٣٢٩هـ.
١١٣ ـ **شرح صحيح مسلم**: محيي الدين النووي، تحقيق: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، الطبعة العاشرة ١٤٢٥هـ.
١١٤ ـ **شرح مشكلات ديوان أبي تمام**: المرزوقي، تحقيق: الدكتور عبد الله الجربوع، توزيع مكتبة التراث، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.
١١٥ ـ **شروح التلخيص**: القزويني، التفتازاني، ابن يعقوب، السبكي، مطبعة بولاق، مصر، الطبعة الأولى، ١٣١٧هـ.
١١٦ ـ **شعر عبد الله بن معاوية**، جمعه: عبد الحميد الراضي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ.
١١٧ ـ **الشفا بتعريف حقوق المصطفى**: القاضي عياض، تحقيق: علي البجاوي، دار الكتاب العربي، بيروت.
١١٨ ـ **شفاء العليل في القضاء والقدر والحكمة والتعليل**: ابن القيم، دار المعرفة، بيروت.
١١٩ ـ **شيخ الإسلام محمد الطاهر ابن عاشور**: محمد الحبيب ابن الخوجة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ١٤٢٥هـ.
١٢٠ ـ **صحيح الإمام البخاري (مع الفتح لابن حجر)**.
١٢١ ـ **صحيح الإمام مسلم (مع شرح النووي)**، تحقيق: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، الطبعة العاشرة ١٤٢٥هـ.
١٢٢ ـ **الصناعتين**: أبو هلال العسكري، تحقيق: علي البجاوي وزميله، مطبعة عيسى البابي الحلبي، الطبعة الأولى، ١٣٧١هـ.
١٢٣ ـ **ضوء الصباح على ترجيز المصباح**: الضرير المراكشي، تحقيق ودراسة: ياسر بن حامد المطيري، (رسالة ماجستير ـ الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة) ١٤٣٢هـ.

١٢٤ ـ **الطبقات الكبرى**: ابن سعد، دار صادر، بيروت.
١٢٥ ـ **الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وحقائق الإعجاز**: يحيى بن حمزة العلوي، تصحيح سيد بن علي المرصفي، مطبعة المقتطف، مصر، ١٣٣٢هـ.
١٢٦ ـ **عبث الوليد**: أبو العلاء المعري، تحقيق: ناديا الدولة، الشركة المتحدة للتوزيع، دمشق، ١٩٧٨م.
١٢٧ ـ **عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده**: الدكتور أحمد مطلوب، وكالة المطبوعات، الكويت، الطبعة الأولى، ١٣٩٣هـ.
١٢٨ ـ **عروس الأفراح** (ضمن شروح التلخيص).
١٢٩ ـ **العققة والبررة**: معمر بن المثنى، تحقيق: عبد السلام هارون (ضمن نوادر المخطوطات)، دار الجيل، مصر، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.
١٣٠ ـ **العمدة في صناعة الشعر ونقده**: ابن رشيق القيرواني، تحقيق: الدكتور النبوي عبد الواحد شعلان، مكتبة الخانجي، مصر، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.
١٣١ ـ **عنوان الأريب عما نشأ بالمملكة التونسية من عالم وأديب**: محمد النيفر، تونس، ١٣٥١هـ.
١٣٢ ـ **عيون الأخبار**: ابن قتيبة، تصوير دار الكتاب العربي، بيروت.
١٣٣ ـ **فتاوى الإمام محمد رشيد رضا**، تحقيق: الدكتور صلاح الدين المنجد وزميله، الدار العمرية، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ.
١٣٤ ـ **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**: ابن حجر العسقلاني، تصحيح: الشيخ عبد العزيز بن باز ومحب الدين الخطيب، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٨٠هـ.
١٣٥ ـ **فتح القدير**: ابن الهمام، مصور عن طبعة بولاق.
١٣٦ ـ **الفروق في اللغة**: أبو هلال العسكري، حققه: جمال دغمش، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
١٣٧ ـ **الفَسْر (شرح ابن جني الكبير على ديوان المتنبي)**، حققه وقدم له: الدكتور رضا رجب، دار الينابيع، دمشق، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م.
١٣٨ ـ **الفلك الدائر على المثل السائر**: ابن أبي الحديد، تحقيق: الدكتور بدوي طبانة وزميله، دار الرفاعي، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ.
١٣٩ ـ **فن الخطابة وإعداد الخطيب**: الشيخ علي محفوظ، دار الاعتصام.
١٤٠ ـ **فوات الوفيات**: ابن شاكر الكتبي، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٣م.
١٤١ ـ **قدامة بن جعفر والنقد الأدبي**: الدكتور بدوي طبانة، مكتبة الأنجلو، القاهرة، ١٣٧٣هـ.

١٤٢ ـ **قضايا الإصلاح عند محب الدين الخطيب**: رغداء محمد أديب زيدان (رسالة ماجستير ـ كلية الإمام الأوزاعي ـ لبنان ـ ١٤٢٧هـ).
١٤٣ ـ **قضية اللفظ والمعنى وأثرها في تدوين البلاغة العربية**: الدكتور علي العماري، مكتبة وهبة، مصر، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.
١٤٤ ـ **قلائد العقيان ومحاسن الأعيان**: الفتح بن خاقان، حققه: الدكتور حسين خريوش، مكتبة المنار، الأردن، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.
١٤٥ ـ **الكامل**: محمد بن يزيد المبرد، حققه وعلق عليه: الدكتور محمد الدالي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ.
١٤٦ ـ **الكتاب**: سيبويه، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ.
١٤٧ ـ **كتابات حول الإمام محمد الخضر حسين**: علي الرضا الحسيني، الدار الحسينية للكتاب، ١٤١٨هـ.
١٤٨ ـ **الكشكول**: بهاء الدين العاملي، تحقيق: طاهر الزاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٣٨٠هـ.
١٤٩ ـ **كفاية الطالب في نقد كلام الشاعر والكاتب**: ضياء الدين ابن الأثير، تحقيق: الدكتور النبوي شعلان، الزهراء للإعلام العربي، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
١٥٠ ـ **كليلة ودمنة (ضمن آثار ابن المقفع)**، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.
١٥١ ـ **لسان العرب**: ابن منظور، دار صادر، بيروت.
١٥٢ ـ **المثل السائر**: ضياء الدين ابن الأثير، تحقيق: الدكتور أحمد الحوفي وزميله، دار الرفاعي، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.
١٥٣ ـ **المجلة الزيتونية** (مجلد٢/ جزء٣/ ص١٣٤) سنة ١٣٥٦هـ.
١٥٤ ـ **مجلة المجمع العلمي العراقي** (مجلد/ ٣٥، جزء ٢/ ص٦١).
١٥٥ ـ **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**: الهيثمي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٧م.
١٥٦ ـ **المجموع شرح المهذب**: النووي، إدارة الطباعة المنيرية، مصر، ١٣٤٤هـ.
١٥٧ ـ **المحاسن والأضداد**: الجاحظ، عني بتصحيحه: محمد أمين الخانجي، المطبعة الجمالية، مصر، الطبعة الثانية، ١٣٣٠هـ.
١٥٨ ـ **المحتسَب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح لها**: ابن جني، تحقيق: علي النجدي ناصف وآخرين، نشر المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٣٨٦هـ.

١٥٩ ـ **المحصول في علم أصول الفقه**: فخر الدين الرازي، دراسة وتحقيق: الدكتور طه العلواني، من مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ.
١٦٠ ـ **محمد الخضر حسين حياته وآثاره**: محمد مواعدة، الدار التونسية للنشر، ١٩٧٤م.
١٦١ ـ **محمد الطاهر ابن عاشور**: إياد الطباع، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ.
١٦٢ ـ **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**: ابن القيم، تحقيق: عبد العزيز الجليل، دار طيبة، الطبعة الثانية، ١٤٢٥هـ.
١٦٣ ـ **مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح**: علي القاري، قرأه وخرج حديثه: صدقي العطار، دار الفكر، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.
١٦٤ ـ **المستدرك على الصحيحين**: أبو عبد الله الحاكم، تصوير دار المعرفة، بيروت.
١٦٥ ـ **المستدرك على معجم المؤلفين**: عمر رضا كحالة، لبنان.
١٦٦ ـ **مشارق الأنوار على صحاح الآثار**: القاضي عياض، المكتبة العتيقة، تونس، ١٣٣٣هـ.
١٦٧ ـ **مشاهير القرن العشرين**: محمد بوذينة، تونس، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م.
١٦٨ ـ **المصنف**: ابن أبي شيبة، تحقيق: كمال الحوت، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.
١٦٩ ـ **المصنف**: عبد الرزاق الصنعاني، تحقيق: حبيب الرحمٰن الأعظمي، المكتب الإسلامي، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.
١٧٠ ـ **مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس**: الفتح بن خاقان، تحقيق: محمد علي شوابكة، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ.
١٧١ ـ **معالم السنن**: الخطابي، المكتبة العلمية، بيروت، ١٤٠١هـ.
١٧٢ ـ **معاهد التنصيص على شواهد التلخيص**: عبد الرحيم العباسي، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، عالم الكتب، بيروت.
١٧٣ ـ **معجم الأدباء**: ياقوت الحموي، تحقيق: الدكتور إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م.
١٧٤ ـ **معجم الشعراء**: المرزباني، تحقيق: عبد الستار فراج، دار إحياء الكتب العربية، مصر، ١٣٧٩هـ.
١٧٥ ـ **المعجم الفلسفي**، مجمع اللغة العربية، مصر، المطبعة الأميرية، ١٤٠٣هـ.

١٧٦ ـ **المعجم الكبير**: الطبراني، تحقيق: حمدي السلفي، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ.
١٧٧ ـ **معجم المؤلفين**: عمر رضا كحالة، لبنان.
١٧٨ ـ **معجم المطبوعات**: سركيس، مصر.
١٧٩ ـ **المغرب في حلى المغرب**: ابن سعيد المغربي، تحقيق: الدكتور شوقي ضيف، دار المعارف، مصر.
١٨٠ ـ **المغني**: ابن قدامة المقدسي، تحقيق: الدكتور عبد الله التركي، دار هجر، الطبعة الثانية.
١٨١ ـ **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب**: ابن هشام الأنصاري، تحقيق: الدكتور مازن المبارك وزميله، دار الفكر، بيروت، الطبعة السادسة، ١٩٨٥م.
١٨٢ ـ **مفتاح العلوم**: السكاكي، منشورات المكتبة العلمية الجديدة، بيروت.
١٨٣ ـ **مفتاح المفتاح**: الشيرازي، دراسة وتحقيق: نزيه عبد الحميد سراج، (رسالة دكتوراه ـ جامعة الأزهر) ١٣٩٧هـ.
١٨٤ ـ **المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم**: أبو العباس القرطبي، حققه: الدكتور محيي الدين مستو وزملاؤه، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الرابعة، ١٤٢٩هـ.
١٨٥ ـ **مقالات في الخطابة لبعض مشاهير كتاب العرب**: الأب جبرائيل أده، مطبعة الآباء اليسوعيين، ١٨٩٠م.
١٨٦ ـ **مقامات الحريري**، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، الطبعة الثالثة، ١٣٦٩هـ.
١٨٧ ـ **مقاييس اللغة**: أحمد بن فارس، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، مصر، الطبعة الثالثة، ١٤٠٢هـ.
١٨٨ ـ **مقدمة ابن خلدون**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٢م.
١٨٩ ـ **مقدمة تفسير ابن النقيب في علم البيان والمعاني والبديع**: جمال الدين ابن النقيب، تحقيق: الدكتور زكريا سعيد علي، مكتبة الخانجي، مصر، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
١٩٠ ـ **الملاحن**: ابن دريد، تحقيق: عبد الحفيظ القرني، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.
١٩١ ـ **من أوراق ومذكرات الإمام محمد الخضر حسين**: علي الرضا الحسيني، الدار الحسينية للكتاب، ١٤١٤هـ.
١٩٢ ـ **منهاج البلغاء وسراج الأدباء**: حازم القرطاجي، تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، تونس ١٩٦٦م.

١٩٣ ـ **منهاج السُّنَّة**: ابن تيمية، تحقيق: الدكتور محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.

١٩٤ ـ **مواهب الجليل لشرح مختصر خليل**: الحطاب الرعيني، تحقيق: الشيخ زكريا عميرات، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٩٥ ـ **موجز البلاغة**: محمد الطاهر ابن عاشور، تصوير مكتبة أضواء السلف، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ.

١٩٦ ـ **الموطأ**: مالك بن أنس، صححه وعلق عليه: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، مصر.

١٩٧ ـ **ميزان الاعتدال**: الذهبي، تحقيق: علي البجاوي، دار الفكر، بيروت.

١٩٨ ـ **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**: ابن تغري بردي، المؤسسة المصرية العامة، مصر.

١٩٩ ـ **نصرة الثائر على المثل السائر**: صلاح الدين الصفدي، حققه: الدكتور محمد علي سلطاني، دار العصماء، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ.

٢٠٠ ـ **نفح الطيب**: المقري التلمساني، تحقيق: الدكتور إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٣٨٨هـ.

٢٠١ ـ **نهاية الأرب في فنون الأدب**: شهاب الدين النويري، دار الكتب المصرية، ١٣٤٢هـ.

٢٠٢ ـ **نهاية الإيجاز**: الفخر الرازي، تحقيق: الدكتور بكري شيخ أمين، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٥م.

٢٠٣ ـ **النهاية في غريب الحديث والأثر**: للمجد ابن الأثير، تحقيق: محمود الطناحي وزميله، دار إحياء التراث العربي.

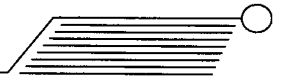
٢٠٤ ـ **نهج البلاغة المنسوب إلى علي** ﷺ، شرحه محمد عبده، دار الأندلس، بيروت، ١٤١٦هـ.

٢٠٥ ـ **الوشي المرقوم في حل المنظوم**: ضياء الدين ابن الأثير، تحقيق: الدكتور جميل سعيد، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، ١٤٠٩هـ.

٢٠٦ ـ **الوفا بأحوال المصطفى**: ابن الجوزي، صححه: محمد زهري النجار، المؤسسة السعيدية، الرياض.

٢٠٧ ـ **وفيات الأعيان**: ابن خلكان: تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

٢٠٨ ـ **يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر**: أبو منصور الثعالبي، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٧٣م.



فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

فن الخطابة

الموضوع	الصفحة

الخطابة عند العرب للخضر حسين

الموضوع	الصفحة